

شرح وصية الإمام (ع) لولده الإمام الحسن (ع)

عباس علي الموسوي

دار الأضواء
بيروت ▪ لبنان

عبّاس علي الموسوي

الوصيّة الخالدة

شرح وصيّة الإمام (ع) لولده الإمام الحسن (ع)

على صراط الحق

دار الأضواء
بيروت • لبنان

الطبعة الأولى

١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

دار الأضواء

الخبر - شارع عبد الله الحاج - بناية الزويهنة
ص.ب ٤٠/٢٥ - برقيا: الخبر - عسكر

كلمةٌ لا بدّ منها

هجمة جديدة من هجمات الجاهلية الحديثة على إسلامنا، ودينا ومعتقداتنا بل على وجودنا وحياتنا... إنها هجمة ماكرة رسمها الفكران: الصليبي الحاقد والصهيوني المجرم، وراحت هذه القوى الكافرة تشنها حرباً سافرة تارةً وحرباً مستترة أخرى، فإن رأت أدواتها من الحكام المحليين يستطيعون القيام بالمهمة أوكلت الأمر إليهم وإلا فتولّت هي الأمر بنفسها.

إنها على كل حال- الحرب الإستعمارية التي تريد أن تأتي على وجودنا وتحاول أن تجتثّ جذورنا وتقضي على ديننا ورسالتنا. وقد مهّدت لذلك بغزو استشراقي تبشيري زرعت على يديه بذور التشكيك في كل ما يتصلُ بهذا الدين من معتقدات وتشريعات وقيم ومثل وأخلاق... حتى وصل بها الأمر أن امتدّت يدها إلى أعزّ مقدساتنا وأصحّها وأثبتها فحاولت تحريف كتاب الله- كما حرّفت الكتب المقدسة من قبل؛ ولكن يقظة المسلمين وتنبّههم كانت أقوى من مكرهم وكيدهم، فكشفت التحريف وعملت على علاجه كما هتكت ستور المبشرين والمستشرقين وبيّنت خلفيّاتهم ودواعيهم...

إن هذه الأمة، بما لها من أصالةٍ وعمق، وبما تتمتع به من سمّوٍ فكري وإشعاعٍ روحي لا تأتي عليها الهزات والهجمات إلا لتزيدها قوةً وصلابة وإصراراً على رفض كل أشكال التبعية والإستغلال والإستعمار.

إنها أمةٌ أبتْ عليها عقيدتها أن تخضع أو تذل أو تعطي الدنية في دينها.

إنها أمةٌ صهرتها الأحداث فخلقت منها عملاقاً يتحدى جبروت الظالمين وغطرسة المتكبرين...

إنها أمةٌ إن أصيبت بنكسةٍ أو خسرت جولة، فالنتيجة مضمونة لصالحها والعاقبة لها طالما تمكست بدينها وآثرته على دنياها...

إن هذه الأمة الإسلامية العظيمة وقفت على ما أصابها من نكبات وإنتكاسات وعرفت أنها كلها كانت وليدة تهاونها بدينها وعدم الإلتزام به وتطبيقه.. فحينما تخلّت عنه في بعض مراحلها أصيبت بالوهن والضعف وأصيبت بالإهتزاز والارتجاج، ولكنها عندما كانت تعود إليه، تعود إلى عزتها وكرامتها وتستعيد دورها القيادي والريادي بين الأمم...

وإن أهم معالم هذه العودة.. أن تفتش في مصدر حياتها وديمومتها.. في مصدر رفعتها وقوتها.. أن تبحث في القرآن الكريم وتغوص في محيطه لتأخذ من كل آيةٍ من آياته زخماً وعزيةً وحركةً ونوراً... وتأخذ من سنّة المعصومين مناراً تهتدي به في ظلمات الحياة، وتعود إلى فكر وتراث العظماء ممن تخرّجوا من مدرسة النبوة فتفتش معهم في رحاب فكرهم وآمالهم وتطلّعاتهم...

وإن بين أيدينا كتاب نهج البلاغة الذي تضمّن خطب ومواعظ وحكم ووصايا الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، هذا الكتاب- الذي لم نقف على حقيقته ولم ندرك قيمته بعد. صدر من الرجل الثاني بعد النبي ﷺ، فهو يمثّل الموقف الإسلامي في كل القضايا التي تعرّض لها أو تناولها، فجدير بكل المسلمين أن يعيشوا في رحابه ويتعمقوا في مداليله وأفكاره ويدرسوه بدقة ووعي...

وإن عظمة ما فيه بل أعظم ما فيه- وإن كان كله عظيماً- يتجلى في أمرين:

الأول: في عهد الإمام إلى مالك الأشتر، فإنه أعظم وثيقة وأروع دستور لما يجب أن يكون عليه الحاكم والوالي وأركان الدولة من الوزراء والقضاة

والجند؛ تناول فيه الإمام كل القضايا التي تخلق دولة الإسلام المثالية التي ينشدها الدين وتحلم بها الأمة... ويكفي دلالة على أهميته أنه قد تناوله العشرات من الكتّاب بالبحث والتحقيق والدراسة.

الثاني: هذهْ الوصية التي بين أيدينا التي كتبها لإبنه الإمام الحسن عليه السلام فإنها أروع وصية تربوية، تهذيبية، دخل الإمام فيها إلى عمق هذه النفس البشرية فوقف على عللها وأمراضها ووصف لها دواءها الناجع الذي يشفيها... إنها رسالة وجهها الإمام إلى ولده ظاهراً وإلينا واقعاً؛ يحتاج كل منا إلى أن يقف أمامها وقفة المتأمّل، يقف عند كل فقرة بل عند كل كلمة يفكر فيها.،. يحللها.،. يدرسها.،. يعيشها.. ويحوّلها إلى حركة حية... إنها رسالة واحدة من تراثٍ ضخم، تحتاج إلى تحليل وتدقيق... وقد رأينا أن نساهم في عرضها وتبسيطها، والوقوف على بعض معانيها الرفيعة والعظيمة... سائلين الله سبحانه أن يتقبلها منا وينفعنا بها ويجعل ثوابها إلى أرواح شهداء الإسلام، سيّما شهيدنا الأستاذ العظيم مفخرة الدنيا آية الله السيد محمد باقر الصدر عليه الرحمة والرضوان.

عباس علي الموسوي

النبي شيت في ربيع الأول سنة ١٤٠٤ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

«من الوالد الفان، المُقِرّ (١) للزمان، المُدبر العُمر، المستسلم للدهر، الذامّ للدنيا. الساكنِ مساكنَ الموتى، والظاعنِ (ب) عنها غداً؛»

اللغة: ظعن ظعناً: سار ورحل، يقال: ظعنوا عن ديارهم أي رحلوا عنها.

---

(١) هذه وصية أمير المؤمنين (ع) الذي خبر الحياة ووقف على أسرارها وذاق حلوها ومرّها وعاش آلامها ومصائبها وجاهد باطلها في زمن النبي كما جالد الحرافها بعده، عاش في ظلال النبوة الرحيمة ورشف من معينها وغاص إلى عمق الأمور وبواطنها وحلّل أسرارها وألغازها، إنه وقف على هذه الحياة وقفة العملاق ينظر إلى خصمه القزم فيترفع عن أن يمدّ يده إليه، وتأبى كبرياؤه أن تتصاغر إلى مستواه.،. ووقف من علوّ بترفّع نفس وإباء همة ينظر إلى هذه الحياة ويقرأ معالمها، ينظر إلى رجالها.،. إلى الاستقامة والعدل،. إلى الأعوجاج والإنحراف.،. إلى المبادىء والمُثلُ... إلى الضعة والسفالة.،. إلى المجاهدين الصابرين، وإلى الكسالى الخانعين... وقف عند كل منعطف يدرس ظواهره كما يدرس بواطنه ويستخلص العبر والحكم كي يقدمها خلاصة مملوءة بالتجارب النافعة والوصايا الناجعة إلى البشرية كلها... القريب والبعيد.،. المسلم وغير المسلم...

(من الوالد الفان): الوالد بعطفه وحنانه، برقته وشفقته، بكل ما يحمل هذا الإسم من المضمون والعمق من الرعاية للأبناء والمحافظة عليهم والحيطة

لهم؛ من الوالد الذي يذوب من أجل أبنائه ويستعذب مرّ الحياة وعلقمها من أجلهم؛ من الأبوّة التي ينساب منها رحيق العطاء ولا تعرف الكل ولا الملل..، من الأبوّة لا من غيرها كي تتقرر في ذهن الولد أهمية الوصية وعظمتها، كي يدرس الولد مضمونها ويقف عند كل كلمة فيكرر قراءتها، ويتمعّن بمدلولها ويعمل بنصها لأنها خرجت من قلب رحيم به يتمنى له الفوز والنجاة...

(من الوالد الفان): الوالد الذي كُتب عليه الفناء لأنه مصداق يدخل في قوله تعالى: «كل من عليها فإن ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام»، تقريراً للنفس واعترافاً بهذا المصير..، الفناء الذي لا بد أن يمر على هذا الإنسان بعد أن يقطع شوط الحياة بحلوه ومره، بطاعته لله أو بعصيانه له.

(المقر للزمان): هذا الزمان الذي عاند الحق وأهله، الذي نحّى علياً عن خلافة المسلمين ربع قرن من الزمن وحوّل مدة خلافته إلى حروب طاحنة دارت بين الحق والباطل؛ هذا هو الزمن الذي استطاع أن يقتص من علي جزاء استقامته وعدله بضربة سيف من يد شقي أصابت غرته الشريفة.؛. هذا الزمن في حالة حرب مع علي، وعلي يعترف لهذا الزمان، يعترف له في أيامه القليلة، وسيكون اعترافاً عليه عندما يقف ليشهد بالحق والإستقامة والمبدئية الرسالية الفذة...

(المدبر العمر): حيث أن الإنسان من أول يوم يوضع فيه على الأرض يبدأ في هدم عمره، وكلما تقدم به العمر تقدم نحو الآخرة وأدبر عمره الذي كُتب له أن يعيشه؛ ومن كان عمره ينقص ويدبر يجب أن يكون على أهبة الإستعداد لنتائج هذا العمر وما يقدمه فيه...

(المستسلم للدهر): فإن من فاتته الحيلة في التغلب على خصمه وكان هذا الخصم قاهراً لسائر الناس آتياً على كل أحلامهم وآمالهم يحق له الإستسلام وليس الإقرار فقط..، بل الإستسلام له كي يفعل ما يريد.

(الذامّ للدنيا): وهل هناك إنسان وقف على الدنيا كما وقف عليها علي؛

وهل هناك إنسان ذمها كما ذمّها علي؟.. إنه الكبير الذي خاطبها بما تستحق وتعامل معها كما يحق لها أن تُعامَل ووصفها بحقيقتها التي تكشفت له عن خبرة وممارسة.·..

(الساكن مساكن الموتى): فإنه على هذه الأرض قد مرت أجيال وأجيال سجلها التاريخ وذكر تاريخها وأيامها وسِلْمها وحربها وما جرى عليها وما حدث فيها؛ هذه الدار كان يسكنها الأجداد والآباء ومن قبلهم أجدادهم وآباؤهم وكل تلك الوجوه قد ارتحلت ولم يبق منهم إلا الآثار والأخبار؛ تُروى عنهم المآثر والمكارم كما تُروى النقائِص والمثالب.. إن هذه الدار قد سكنها قبلي قوم ماتوا وارتحلوا فكيف يكون حالي وأنا أتنقل بين تلك الأطلال والآثار وهل يروق للساكن مساكنَهم وهو يرى آياتهم وآثارهم أن ينشرح أو يفرح!!. إنه يتصوّر حاله عن قريب وقد ارتحل. فلم يبق عليه إلا أن يحسن سلوكه ويستعد...

(والظاعن عنها غداً): غداً في حساب العمر الذي انقضى شطره الكبير، وفي حساب المعتبر الخبير الذي سلك مسالك الموتى وسكن مساكنهم ولم يختلف عنهم بأمر واحد بل هو مثلهم يعترضه الهرم ويقطع أمنيته الموت كما اعترضهم الهرم وقطع أمنيتهم الموت؟.. هي السنون!! ما أسرعها في العمر!!. بالأمس كنا أطفالاً نسبح في أحلامنا وآمالنا، واليوم انكفأنا على أنفسنا وأخذتنا العِبرة بأننا على أهبة الإستعداد لسفر طويل.؟. إنه الغد ينتظر منادياً بالرحيل.؟. فلا بد من الإستعداد له...

«إلى المولود (١) المؤمّل ما لا يُدركُ، السالكِ سبيلَ من قد هلك، غرض الأسقام ورهينةِ الأيام، ورميّةِ المصائب، وعبد الدنيا، وتاجر الغُرور، وغريمِ المنايا، وأسيرِ الموت، وحليف الهموم، وقرينِ الأحزان، ونُصُبِ الآفات، وصريع الشهوات، وخليفةِ الأموات»...

اللغة:

الغرض: الهدف.
الرهينة: المرهون- النُصب: الشيء المنصوب.
الرمية: ما أصابه السهم- نصب الآفات: غاية البلاء وهدف المصائب.

---

(١) إنها أربع عشرةَ صفةً متلاحقةً تنصبّ كلُّها على هذا الصغير وترافقه في مسيرة حياته، إنك تقرأها في صور متعددة من هذا الإنسان؛ إنه يأمل أن يعيش عمراً مديداً ويأمل أن يثري ويغني ويأمل أن يعمرَ ويبني ويأمل أن يرتفع نجمه ويعلو صيته، ويأمل ويحلم ويتمنى أن تتحقق هذه الأحلام والآمال ولكن دون تحقيقها عقبات ومعوقات ودون الوصول إليها خنادق وبحار وصحارى وقفار؛ لا يكاد يقطع مفازة إلا ويتيه في أخرى أوسع منها؛ ولا يكاد يسبح في بحر حتى يغوص في محيط لا يدرك نهايته إلا الله؛ لا تكاد تتحقق لديه أمنية إلا وتراءت أمام عينيه أمنيات عديدة لا يزال عاجزاً عن تحقيقها؛ إنه يأمل ما لا يُدرَكُ من طول العمر وكثرة المال وعلّو الجاه والسلطان.

إن هذا الإنسان هو نفسه الذي يتحرك اليوم، سواء كنتَ أنتَ أم أنا أم غيرنا من الأحياء؛ إننا جميعاً نسعى كما سعى الأولون من آبائنا وأجدادنا... على الطريق نفسها وفي الإتجاه ذاته. إن كل يومٍ نقطعه هو يوم يقرّبنا نحو

الآخرة ويبعدنا عن الدنيا ، كل يوم يمضي يهدم عمرنا وينقصه ويدنينا من عالم آخر من عوالم الآخرة... إننا على السبيل عينه الذي مضى عليه الأولون من أهلنا ولا بد من أن نصل إليه؛ فما أحسن أن يلتفت الإنسان إلى هذا المصير ويُعدّ له عدّته التي يرتفع بها عن الذل والهوان فيلتحق بركب الصالحين من الأنبياء...

هذا الإنسان هدف للنوائب؛ فترى النكبات تنصبّ عليه من كل جانب، إنك تراه فاقداً لعزيز من أخ أو أب أو ابن، أو مفجوعاً بقريب أو صاحب أو خليل، إنه مرهون بعوامل الأيام وما يجري فيها ويمر عليها؛ فإذا أُدبرت أزعجت وإذا فاتت أماتت.

إن هذا الإنسان عبد للدنيا يؤثرها على الآخرة ويتعامل معها وكأنها هي الخالدة والباقية؛ يقر لمن فيها من الطواغيت والجبابرة بحق الوجود كما يقر للظلم والجور أن يستشري ويستفحل ويستمر أمره.. العجب كل العجب لهذا الإنسان الذي يسمى حراً وهو من أشد الناس عبوديةً لغير الله.!. إنه يميل مع هواه ويخضع لمن أحب ويذل نفسه لمن هو أقوى منه.!. هذا الإنسان يجب أن يتحرر من كل العبوديات الأرضية وينبذ كل الآلهة المصطنعة ويكون عندما يقول لا إله إلا الله. مدركاً لمدلولها ومفهومها، يعيش بعمقها وسعتها.!. يجب أن يقول لا إله في الكون... ليس الشهوة إله.!. ولا الغريزة إله!.. ولا الجاه إله.!.. ولا العشيرة إله..، ولا المال إله.!. ولا شيء من متاع الدنيا بإله... إنما الله هو الإله.!. الله وحده لا شريك له هو الذي يستحق العبادة وهو وحده الذي يستحق التوحيد.!. وهو وحده مالك الأمر والنهي؛ ومتى تعبّد الإنسان لله تحرر من كل هذه العبوديات... وانطلق في رحاب الله يحقق إرادته وينفذ أمره ونهيه ويعمل وفق تشريعه وحكمه.!. وما أروع أن يكون الإنسان عبداً لله يعيش معه ويدرك لذة هذه العبودية التي ترادف تحرر هذا الإنسان من كل العبوديات الأخرى...

ويصف الإمام هذا الإنسان بتاجر الغُرور لأنه يظن الربح في هذه

الحركات والأعمال التي تصدر منه، فهو يعمل من أجل أن يترفّه ويتنعّم، يعمل وكأنه يخلد في الدنيا ناسياً أنه غريم المنايا ومطلوبها، والغريم لا بد وأن يُدرَك خصوصاً إذا كان من يطلبه له موعد وقدرة في الوصول إليه... إن هذا الإنسان مطلوب وطالبه قادر على الوصول إليه فكيف ينسى ولا يعدّ لذلك اليوم عدته... وكيف لا يستعدّ وهو أسير الموت الذي لا يستطيع الخلاص أو الهروب منه...

ثم إن الإمام يصف هذا الإنسان بأنه حليف الهموم؛ وما أروعه من وصف ينطبق على كل إنسان منا لنرجع إلى أنفسنا لننظر هل استطعنا أن نتخلى عن هذه الهموم وهل استطعنا أن نطردها من بيننا؟!.. إن كل إنسان يُهمُّه قوته وتُهمه معيشته، يهمه منصبه وجاهه، يهمه ماله وأولاده، أكبر همه دنياه إن كان من أبناء الدنيا، وهم أشد الناس هموماً؛ أو آخرته ويجب أن تأخذ من المؤمن هماً أوسع من جميع الهموم...

ثم إن هذا الإنسان، قرينُ الأحزان، فمن يومه الأول الذي يرى فيه الحياة، يصرخ ويبكي، ويستمر في الحزن والبكاء في أعماق نفسه حتى ولو استطاع أن يبسم ثغره وتضحك شفتاه... لأنه نصب للآفات وصريع الشهوات وخليفة الأموات على حد قول الإمام؛ ومن كان يمثل هذه الأوصاف حق له أن تدمع عيناه دماً، ويذوب قلبه ألماً، خشيةً من عذاب الله ونقمته وشوقاً إلى رحمة الله وجنته.

«أما بعدُ فإنَّ فيما[1] تَبيَّنتُ من إدبار الدنيا عني وجموح الدهر عليّ وإقبال الآخرة إليّ ما يزعني عن ذكر مَن سواي والإهتمام بما ورائي؛ غير أني حيث تفرَّدَ بي دون هموم الناس همُّ نفسي، فصدَفني رأيي وصرفني عن هواي، وصرَّحَ لي محضُ أمري فأفضَى بي إلى جدٍّ لا يكون فيه لَعِب، وصدقٍ لا يشوبُهُ كذِب؛ ووجدتُك بعضي بل وجدتك كلّي حتى كأنَّ شيئاً لو أصابك أصابني، وكأنَّ الموتَ لو أتاك أتاني، فعناني مِنْ أمرك ما يعنيني من أمر نفسي فكَتَبتُ إليك كتابي مستظهراً به إنْ أنا بقيتُ لك أو فنيتُ»..

اللغة:

جموح الدهر: إستعصاؤه وتغلّبه، يقال: جمح الفرس إذا غلب صاحبه فلم يملكه.

يزعني: يصدّني:

المحض: الخالص.

مستظهراً به: مستعيناً به.

---

١ – إني أشعر من خلال هذه الكلمات عمق الجراح التي يشعر بها الإمام وعظيم المأساة التي تختلج بين جوانحه..: أشعر بالأسى والمرارة يملآن ذلك القلب الكبير الذي وسع الأحداث والآلام والمحن والمصائب... إنني أحسُّ بوقع هذه الكلمات التي تخرج وفي كل واحدة منها مضاضة وألم وجرح غائر لا يدركُ مداه إلا الله وعليٌّ نفسُه...

إدبار الدنيا عني وجموح الدهر عليّ... كلمات ينطوي فيها تاريخ النضال

والكفاح ويظهر من خلالها كِبَرُ المعاناة وشدة هول الأحداث... بحيث قد انزوت الدنيا وأعطت ظهرها لذلك المجاهد الذي عن يديه صَدَر طعمُها ومعناها؛ الدنيا بزخارفها قد تنكّبت عن عليّ وتنكّرتْ له. والدهر العنيد قد استعصى عليه وتغلّب على تطلعاته وآماله...

ومن نَكَدِ الدهر أن يرتفع نجم الصعاليك كمعاوية وتخبو نجوم العظماء كعلي بحيث يسوي بينهما الدهر ويقرن بين علي ومعاوية.. من هوان الدنيا على الله وحقارتها أن يُقرنَ معاويةُ بعليٍّ ويُقارَنَ بينهما فيقال: علي ومعاوية... وهل هناك أشد مرارة وأقسى وقعاً من أن تُقارَنَ الثريّا بالثرى والتبرُ بالتبن والرفيع بالوضيع، وعليّ بمعاوية..!!.

أيُّ دهر هذا لا يشكوه علي!! يومَ نُحّي عن الخلافة وتمت مؤامرة السقيفة!! أم يوم تمّت بيعة التجار لعثمان ورفضت علياً خليفة!! أم يوم جاءت الخلافة فنكثت طائفة ومرقت أخرى وبغت ثالثة!!! لله أنت يا علي.. صبرت على شيء أمرّ من الصبر..، صبرتَ على دهر أضحى يقال فيه علي ومعاوية... وهل هناك شيء أمرّ من هذا.!.

وعلى كل حال لئن أُدبرت الدنيا وجمح الدهر عليك... فإن الآخرة بإنتظارك، ولئن جُهل مقامك وبقي الناس لا يعرفونك حق معرفتك في الدنيا فإنهم في الآخرة وهي مقبلة سيعرفونك عن كَثَب؛ هناك تنكشف أقنعة الهوى ويُعرف عليٌّ على حقيقته...

والإمام هنا يريد أن يعلّمنا كيف أن الإنسان إذا تقدم به العمر يجب أن يلتفت إلى نفسه ويهتم لها فلا تذهب به مذاهب الهوى والكذب بل يجب أن يعدّ العدّة ويستعدّ ويأخذ حذره في سبيل الوصول إلى الآخرة وهو نظيف طاهر.. إن الإمام يريد أن يعلمنا وجوب الإهتمام بأنفسنا والحذر عليها من الهوى والسعيَ في سبيل إعدادها إعداداً كاملاً لملاقاة الله وحسابه... وهذا الإستعداد والإعداد لهذه النفس يتطلب أن ينظر من خلاله إلى أولاده...

فإنهم جزء متمم لسعادته ومكمّل لسروره ونجاته... هؤلاء الأولاد هم جزء من الآباء بل بتعبير الإمام: الولد هو كل الوالد؛ إنه صورة مصغرة عن الأب يحمل هوية الأب وشخصيته، عقيدته ورسالته، هدفه وسلوكه.؛. هو نسخة عن الأب فيجب الإهتمام به والإعتناء بتربيته وجعله عنصراً صالحاً يحب الخير ويسعى في سبيله.

ما أجمل وأروع تعبير الإمام.؛. ما أشرف هذا التعبير الذي كرَّرتُه مرات ومرات.وردّدته بيني وبين نفْسي وبيني وبين الناس وعشت معه في أحلامٍ وردية نديّة كنت أحس بوقعها في نفسي راحةً وسروراً وأشعر أنها ترنيمة سماوية تشق هذا القلب الصغير لتدخل أعماقه تاركةً أثراً طيباً من آثار الإمام وعبقةً عطرة الشذى: (ووجدتك بعضي بل وجدتك كلي حتى كأن شيئاً لو أصابك أصابني وكأن الموت لو أتاك أتاني فعناني من أمرك ما يعنيني من أمر نفسي).

هذا هو منطق الأبوّة المسؤولة التي تحمل عواطف البشر وقلوبها وتتفاعل مع هذا الصغير بعطف وحنان ورقة ودعة؛ تتفاعل مع هذا الصغير لتحسْ بضغط المرض في بدنها ونفسها، إن ألم بهذا المخلوق الصغير ألم أو مرض وتعيش فرحه وسروه في نفسها عندما تحس منه الفرح والسرور...

الولد قرة العين وفلذة الكبد وأمل المستقبل ولا يدرِكُ قيمة الكلام العَلَويّ ومفعولَه إلا من أصبح أباً وتحركت عواطف الأبوّة فيه نحو الأبناء. قبل أن يرزق الإنسان ولداً يتصور أن القضية سهلة، مات الولد أو عاش، تألم أو فرح، جاع أو شبع، احتاج أو اغتني؛ يتصور أن كل هذه أمور سهلة يجب أن تُطوى ولا تأخذ من إهتمام المرء شيئاً. ولكن هذا التصوُر يتساقط كله عندما تأتي القضية إلى العالم الخارجي وتبصر النور على مسرح الوجود عندئذ ترى الآباء يختلفون في حساباتهم وعواطفهم وميولهم وحركاتهم وكل سلوكياتهم؛ عندها فقط يخرج الأب ليبحث عن لقمة العيش ورفع الألم وإدخال السرور على قلوب أولاده وإن كان في ذلك شقاؤه وتعبه وغربته بل موته.

فمن هنا كانت كلمة الإمام: (فعناني من أمرك ما يعنيني من أمر نفسي) كيف أهتم بنفسي وأحافظ عليها وأتمنّى لها النجاح والعز؛ كيف أسعى في سبيل فلاحها وسعادتها! هكذا، وبالاهتمام ذاته أهتم بك وأعتني بسعادتك.

فأني أُوصيك بتقوى الله، أيْ بُنَيَّ ولزومِ أمرِه، وعمارة قلبك بذكْرِه، والإعتصام بحبله، وأيُّ سببٍ أوثقُ من سببٍ بينك وبين الله إنْ أنت أخذت به؟».

هذا هو مطلع الوصية العلوية الذي يجب أن يكون المطلع لكل وصايا الآباء للأبناء، الوصية بتقوى الله الذي لا يعلو إنسان عن الأمر بها.. إنها تمثل الخضوع لله في الجوارح والأذعان من داخل الجوانح.؟. إنها رعشة في القلب تجعل هذا الإنسان يهتز من الأعماق في خضوع وتضرّع إلى الله باسطاً يديه إلى ربه متفانياً في طاعة الله وخدمة عباده.. التقوى!!. تمثل منتهى الغايات التي يطمح إليها الإنسان ومن أجلها كانت كل تكاليف الله من طهارة وصيام وصلاة وغيرها لأن كل هذه الواجبات تخلق من هذا الإنسان عضواً منضبطاً ضمن الخط الإلهي لا يخرج عنه ولا يدخل في غيره.؟. كل هذه التكاليف تبني الشخصية الملتزمة بالإسلام فكراً وعملاً وسلوكاً، عقيدة وطريقة حياة... فالتقوى تمثل الدرجة العليا من الإلتزام والخضوع لأنها تتخذ طابع الانقياد المطلق الصادر من القلب والضمير والوجدان...

ثم إنه عليه السلام أمره بملازمة أمر الله وعمارة قلبه بذكره والاعتصام بحبله وهذا الاعتصام بحبل الله هو أوثق الأسباب وأشرفها وأضمنها لنجاح الإنسان وفوزه في الحياة الدنيا والآخرة...

«أحْيِ قلبَك بالموعظة، وأمِتْهُ بالزَّهادة وَقوِّهِ باليقين، ونوِّرْهُ بالحكمة، وذلِّله بذكر الموت، وقرِّرْه بالفناء، وبصِّره فجائعَ الدنيا، وحذِّره صولةَ الدهر، وفُحْشَ تقلّب الليالي والأيام».

(أحي قلبك بالموعظة): فيما يمر أمامك من مشاهد الحياة وصورها فإذا أبصرت مبتلىً فاعتبر بابتلائه وافرض نفسك مكانه وخذ العِبرة والحكمة منه؛ وإذا رأيتَ غنياً قد افتقر أو فقيراً اغتنى فخذ أيضاً منه العبرة وأدِرْ بصرك فيما حولك فإنها كلها مواعظ وعِبَر؛ وإذا قرأت سيرة الصالحين ومناقب الشرفاء فاقتد بهم وسر على دربهم النيّر الرباني وهكذا دواليك، إقرأ الأحداث والناس وخذ من كل منها الموعظة والعبرة التي تحيي قلبك.

(وأمته بالزهادة): فإن الزهد عبارة عن اختصار الكثير من الملذات والكماليات بل الضروريات من أجل الفقراء والمساكين وأهل العوز والمحتاجين. وفي هذا الأسلوب من الترفع عن الذات والإنكار للملذات ما يُطامِنُ من شهوة الإنسان بل يميت جمحات الأهواء وميولها الشريرة الخبيثة، فإن من عاش مع الفقير واليتيم والمحتاج والمسكين ويشعر معهم بقلبه وضميره بادر إلى قهر الذات من أجلهم وإماتة الكثير من الشهوات في سبيل راحتهم وسعادتهم...

(وقوِّه باليقين): لأنه يجعل للإنسان قوةً واطمئناناً ويخلق منه عضواً مستسلماً لله في كل حركاته وسكناته، يندفع نحو هدفه وهو على بصيرةٍ من أمره دون شك أو تردد لأن من كان على شك أو تردد في عمل لم يفلح فيه ولم ينجح...

(ونوّره بالحكمة): حيث تجعل فيه إشراقة يُطلُّ منها نور يضيء جوانب ظلمات القلب، فإن الحكماء قوم عاشوا تجارب الحياة واستخلصوا أسرارها وقدّموها للناس صافيةً من كل كدر، فيحسن بمن وقف عليها أن يأخذها بجدٍ ويعمل بها في يقين.

(وذلّله بذكر الموت): الذي ما ذكره إنسان إلاّ وتغيّرت أحواله، فتبدل نعيمه إلى بؤس، وفرحه إلى ترح، ووجم بعد إنشراح، وعبس بعد ابتسام، أو كما يقول الإمام في موقع آخر: «هازم اللذات ومنغص الشهوات وقاطع الأمنيات». إن العاقل عندما يتمثل نفسه جنازة محمولة على أكتاف الرجال وقد انقطع عمله وسكت صوته وانطفأ نور عينيه ولم يعد يسمع وتعطلت جوارحه كلها عن الإلتقاط والإرسال، وضج الأهل والأقارب حوله يبكون وتمنّوا تعجيل دفنه خوف إنتشار رائحته وهتكه.. إذا نظر الإنسان بعين البصيرة والعبرة إلى هذا المشهد المؤلم وإلى حفرةٍ صغيرة سيحلّ فيها انخفض رأسه وذلت نفسه وعمل لذلك اليوم العظيم.

(وقرره بالفناء): الذي كُتب على كل الناس فإنه إذا أقرّ بذلك حُكم عليه بمقتضى إقراره من جهة ووجب أن يعمل لصالح نفسه من جهة أخرى كي يرتفع في عالم الآخرة ويلتقي مع النبيين والصديقين والشهداء...

(وبصّره فجائع الدنيا): التي لم تكن لتدوم على حال ولا تستقر على منوال، بل كما قال سيداً لأوصياء علي: «أو لستم ترون أهل الدنيا يصبحون ويمسون على أحوالٍ شتى: فميت يُبكى وآخر يُعزّى وصريع مبتلى وعائد يعود وآخر بنفسه يجود وطالب للدنيا والموت يطلبه وغافل وليس بمغفول عنه»...

تلك هي الدنيا ممتلئة بالفجائع والمصائب؛ فمن حروب تدمّر البشرية وتقضي على الحرث والنسل ومن أمراض فتاكة تأتي على الأخوة والأحبة؛ ومَنْ لم يصب بأذى؟ وأي بيتٍ لم تدخله التعاسة؟... من الذي لم يفقد حبيباً عزيزاً على قلبه؟ والداً تارةً وولداً أخرى وزوجاً ثم أخاً وهكذا!؟... من منا لم يسمع بعزيز قوم ذَلّ، أو غني افتقر أو عالم ارتدّ، أو جاهل أبى أن يتعلم!؟.. من منا لم يمر عليه شريط الأحداث وهو ينقل إليه مآسي الزمن ومصائبه؟ من علةٍ في بدنه أو نقصٍ في دينه أو اضمحلالٍ في ثروته أو أذيةٍ من أقاربه!!! إن هذا القلب البشري إذا أدرك أن الدنيا لا تصفو مشاربها؛ ففي كل مطلع شمس ومغربها فواجع ومصائب بل في كل دقيقة بل ثانية أكثر من مصيبة وفاجعة،

يعلمَ أنه لا بد من الإعداد لتحمّل كل ما يطرأ عليه ولا بد من الإستعداد والصبر والإعتصام بالله كي تهون تلك الرزايا ويخف وقع تلك المصائب...

(وحذّره صولة الدهر وفحش تقلب الليالي والأيام): وأي إنسان يستطيع أن يتحمل صولة الدهر إذا تنكب عن هذا الإنسان أو تنمّر عليه فإن محاسنه يحوّلها إلى مساوىء، وفضائله إلى نقائص، وجماله إلى قبح، وأصدقاءه إلى أعداء؛ يتحول نهاره ليلاً حالك السواد، وماؤه العذب الفرات إلى حميم آسن مستكره؛ تأتيه الابتلاءات من كل جانب وتزدحم عليه العلل من كل صوب حتى يروح مخاطباً كل نازلةٍ منها كما خاطبها المتنبي بقوله:

أبنتَ الدهر عندي كلُّ بنتٍ　　فكيف وصلتِ أنتِ من الزحامِ

أو بقوله في تصوير المصائب وكثرتها:

فصرت إذا أصابتني سهامٌ　　تكسّرت النصال على النصالِ

«وأعرِضْ عليه أخبارَ الماضين، وذكّره بما أصاب مَن كان قبلك من الأولين، وسر في ديارهم وآثارِهم، فانظرْ فيما فعلوا وعمّا انتقلوا، واين حلّوا ونزلوا، فإنك تجدهم قد انتقلوا عن الأحبة، وحَلّوا ديار الغربة».

(واعرض عليه أخبار الماضين): من الأمم والأشخاص كقوم هود وصالح ويونس وموسى أو فرعون وهامان وقارون والسامري، فإن في مراجعة أحوالهم والوقوف على أخبارهم عِبَراً لمن اعتبر وموعظة لمن اتّعظ، إن في الطغيان الفردي ما يُردي الفرد ويقتله، فَمَنْ تجاوز حدودَه البشرية وادّعى الألوهية كما فعل فرعون فإن مصيره كمصيره لا محالة، وكذلك مَنْ جمعَ المالَ وادَّعى أنه حصل عليه بما عنده من العلم وتبجّح وبَطِرَ فلا محالة أن يناله الخسف والضياع كما نال قارون والسائرين على خطاه... إن في عرض سجلات الماضين والوقوف على تاريخهم ما يجعل عند المرء رؤيةً شخصية بتحسين واقعه والإرتفاع عن الحضيض إلى التكامل والسمو... وكما أن الطغيان الفردي يُردي بصاحبه، فكذلك الطغيان الاجتماعي والانحراف العام، فإنه يُحيقُ بالجماعة الانحلالَ والضياع المؤدي إلى نكبة الطوفان كما في قوم نوح أو الخسف والوباء كما في أقوام آخرين... وإن الله قد أمرنا وحثنا على النظر في أحوال الماضين كي نعتبر بما جرى عليهم وما حاق بهم، قال تعالى: ﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشدَّ منهم قوة[1]﴾ وقال تعالى: ﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعَمَرُوها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبيان فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسَهم يظلمون﴾[2].

---

(١) سورة فاطر، آية: ٤٤.

(٢) سورة الروم، آية ٥٩.

إن في عرض أخبار الماضين تذكرة لمن ينسى وعبر لمن اعتبر... إن الإنسان إذا عاش مع الأولين الماضين في مسيرتهم فنظر في أفعالهم الصالحة فاقتدى بها ونظر في أعمالهم القبيحة فاجتنبها فقد استفاد في حياته الدنيا وفي آخرته؛ إنه يجتنب مواضع العطب الذي دخل عليهم ويسد النوافذ والأبواب التي دخل منها الفساد والضلال؛ يجتنب الكفر والانحلال والمفاسد الاجتماعية والاخلاقية ويسير على الخط الإلهي لا ينحرف عنه ولا يتعداه...

إن الإنسان العاقل ينظر في أفعالهم ويتبصر كيف انتقلوا عن هذه الدار وحلوا دار القرار... إن هذه الأرض التي نسير عليها نحن الآن قد سار عليها قوم قبلنا... قد تنقلوا عليها فزرعوا وبنوا وامتلكوا ثم لم يلبثوا أن ارتحلوا عنها وتركوها لنا وسنرحل نحن أيضاً ونتركها لغيرنا. والعظيم من اتّعظ بغيره واعتبر بما جرى عليه وما صار إليه... إن أولئك السابقين من الأهل والأجداد كان لهم أحبة فانتقلوا عنهم وكان لهم أموال ففارقوها، وكان لهم كثير كثير ولكنهم تخلوا قهراً عمّا يحبون، تخلّوا عن كل ذلك وحلوا في ديار الغربة... وأي غربةٍ أعظم وأفظع من غربة القبر...

«وكأنّكَ عن قليلٍ قد صرتَ كأحدهم: فأصلحْ مثواك، ولا تَبِعْ آخرتك بدنياك، ودعِ القولَ فيما لا تعرفُ. والخطابَ فيمَا لم تُكلَّفِ، وأمسِك عن طريقٍ إذا خفت ضلالته، فإن الكفَّ عند حَيْرةِ الضلال، خيرٌ من ركوب الأهوال».

(وكأنك عن قليلٍ قد صرتَ كأحدهم): رهين الثرى ودفين التراب وما أشرفها موعظة تجعل الانسان يرجع إلى حقيقته ويقف عند قدره، يتذكر تلك الحفرة الصغيرة التي يستطيع أن يوسعها بأعماله الصالحة ومناقبه الحميدة وإطاعته لله ولرسوله ولأولي الأمر الذين فرض الله طاعتهم، كما يستطيع أن يضيّقها أزيد مما هي عليه، ويصغّر حجمها أكثر مما هي صغيرة بقبائح أعماله وسيئاتها وعصيانه لأوامر الله وتكاليفه. إن المسلم يستطيع بحسن عمله أن يوسع قبره كما في وصية النبي التي يقول فيها: (وانه لا بد لك يا قيس من قرين يدفن معك وهو حي وتدفن معه وأنت ميت، فإن كان كريماً أكرمك، وإن كان لئيماً أسلمك، ثم لا يُحشر إلا معك ولا تُبعث إلا معه ولا تُسأل إلا عنه، فلا تجعله إلا صالحاً فإنه إن صلُح أنستَ به وإن فسُد لا تستوحش إلا منه وهو فعلك.

وقد نظم قيس هذا المعنى النبوي بأبياتٍ من الشعر فقال:

تخيّر خليطاً من فعالك إنما	قرين الفتى في القبر ما كان يفعلُ
ولا بد بعد الموت من أن تُعدّه	ليومُ يُنادى المرءُ فيه فيُقبلُ
فإن كنتَ مشغولاً بشيء فلا تكن	بغير الذي يرضي به الله تشغلُ
فلن يصحب الانسان من بعد موته	ومن قبله إلا الذي كان يعملُ
ألا إنما الانسان ضيف لأهله	يقيم قليلاً بينهم ثم يرحلُ

(فاصلح مثواك ولا تبع آخرتك بدنياك): أصلح مقرك الذي سترحل إليه وهو قبرك بالعمل الصالح والتقوى والورع والخوف من الله وكل السبل التي ترضي الله تعالى، ولا تبع تلك الدار الآخرة التي فيها الاستقرار والدوام بهذه الدار التي لا استقرار فيها ولا ارتياح؛ هذه الدنيا لا تعادل الآخرة ولا

تساويها ، فالغبي من غبي مع وجود المنبه والمرشد والناصح والدالّ على الخير...

وإذا كان الشقي من باع آخرته بدنياه ، فهناك من هو أشقى منه وهو الذي باع آخرته بدنيا غيره ، إنه غبي في منتهى الغباوة وشقي في منتهى الشقاوة ، إنه يقاتل ويُقتل في سبيل طاغوت من طواغيت الأرض كي يتربع على كرسي الحكم ؛ إنه يضحي ويبذل دنياه ويخسر آخرته من أجل أن تتحقق الأحلام الفرعونية التي تدفع هذا الرئيس أو ذاك لتسلّم عرش السلطة... ماذا جنى هذا الشقي؟ إنه أقدم على بذل نفسه وسفك دمه فخسر الدنيا وخسر الآخرة في سبيل أمجاد زائفة يسعى إليها هذا الجبار أو ذاك... وهل هناك من هو أشد تعاسةً وشقاءً منه... لا.. لا.. ليس هناك أشقى منه وأتعس... إن الله سبحانه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، فهذا هو البيع الحقيقي ومن أجل الله يكون الجهاد الحقيقي... ومن أجل الله يكون بذل النفس والمال... من أجل الله فقط يكون بيع الدنيا بالآخرة ، وتلك تجارة لن تبور ولن تخسر ، بل نتيجتها الربح فقط والربح الوافر...

(ودع القول فيما لا تعرف والخطاب فيما تكلّف): لأن من تكلم بما لا يعرف فضح نفسه وأظهر معايبها ودلّل على جهله ؛ وكفى بهذا صَغاراً واحتقاراً. إن بعض الناس عنده حب الكلام ، وحب الحديث ، لا يكلّ ولا يملّ وفي كل العلوم على اختلافها وتشعب فروعها تراه يخوض فيها حتى بين أربابها وأهل الاختصاص فيها وهذا ما نراه جلياً في مجالس الفقهاء والعلماء ؛ فترى الغريب أو القريب يطرح مسألته مستفهماً عنها وقبل أن يتكلم العالم بالإجابة ترى بعض الحجاج أو المتفقهين بثلاث أو أربع مسائل يبادر للإجابة كأنه هو المسؤول ؛ إنه يُخرجُ من جرابه الخاص دون مراجعة أهل الخبرة والإطلاع ، يجيب خطأً وفساداً بدل أن ينتظر جواب العالم كي يفهم المسألة وحلّها... إنه يدلل على ضعف نفسه وصغرها وما أحسنه لو صبر حتى يعلم...

(وأمسك عن طريق إذا خفت ضلالته فإن الكف عند حيرة الضلال خير من ركوب الأهوال): وهذا شيء مُدرَكٌ بالوجدان ، ظاهر للعيان ، لا يحتاج إلى دليل ولا إلى برهان ، فإن الإمام الصادق عليه السلام يقول: « العامل على

غير بصيرة كالسائر على سراب[1] بقيعة لا تزيده سرعة السير إلا إلا بعداً . وقد أمرنا الأئمة (ع) أن نتوقف عن الكلام في ما لا نعلم ونكف عن الشبهات ونقف عند عدم تبيّن الطريق ووضوحه .

قال أبو جعفر (ع): الوقوف عند الشبهة خير من الاقتحام في الهلكة، وتركك حديثاً لم تَرْوِه خير من روايتك حديثاً لم تُحْصِه.

وقال رسول الله (ص): (حلال بيّن وحرام بيّن وشبهات بين ذلك فمن ترك الشبهات نجا من المحرمات ومن أخذ بالشبهات ارتكب المحرمات وهلك من حيث لا يعلم ...

وفي حديث الرضا (ع) في اختلاف الأحاديث: ... وعليكم بالكف والتثبت والوقوف وأنتم طالبون باحثون حتى يأتيكم البيان من عندنا ...

(١) هذه الأحاديث من الوسائل، باب ١٢، من أبواب صفات القاضي.

«وَأْمُرْ بالمعروف تكُنْ من أهلـه، وَأَنْكِرِ المنكَر بيـدك ولسـانك، وبايِنْ مَنْ فَعَلَه بجهْدك، وجاهد في الله حق جهاده، ولا تأخذْك في الله لومة لائم، وخُضِ الغمراتِ للحق حيث كان».

(وأمر بالمعروف تكن من أهله وأنكر المنكر بيدك ولسانك وباين من فعله):
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم ما جاء به الأنبياء بل دعوتهم كلها توجهت إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فإنهم رأوا الفراعنة وأنصاف الآلهة تتربع على كراسي الضلال وتدّعي ماليس لها بحق فكان على الأنبياء أن يقفوا في وجوههم ويعيدوهم الى حجمهم الطبيعي؛ فمن هنا بادر موسى (ع) إلى الوقوف في وجه فرعون عندما ادّعى الربوبية، وقال: أنا ربكم الأعلى فحجمّه في إطاره، ولما رفض وأبي واراد أن يفتك بموسى ومن معه من المؤمنين كانت المعجزة التي سقط فيها فرعون غريقاً لم يقدر أن ينقذ نفسه، وكذلك بادر نوح إلى قومه وصالح وثمود وشيخ الأنبياء إبراهيم ولوط ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين... إنهم كلهم أرادوا أن يردوا هذا الإنسان إلى واقعه الصحيح ومساره السليم؛ كلهم رأوا المنكرات تعج في المجتمع وتفتك بهذا الجسم، فقاموا بنشر الإصلاح وبث الهداية...

الأنبياء هم الطليعة الأولى التي شقت ظلمات الجهل والضلال وأمرت بالمعروف ونهت عن المنكر وعلى خطاهم سار المصلحون والمؤمنون وأكد الاسلام على هذه الفريضة وفرضها على المؤمنين فقال في محكم كتابه: ﴿ولتكن منك أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾. وقال تعالى: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾. وكذلك جاءت السنة الشريفة لتغرس هذا المفهوم في ذهن الأمة وتؤكد على أهميته ودوره إذ يشكل الرقابة الدائمة من الأمة على نفسها، يجعل من كل فرد مراقباً لكل انحراف أو تصدّع فيحاول إصلاحه وعلاجه...

– عن أبي جعفر وأبي عبدالله (ع): «ويل لقوم لا يدينون الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

– عن أبي الحسن الرضا (ع) يقول: «لتأمُرنّ بالمعروف ولتنهُنّ عن المنكر أو ليُستَعملَنّ عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم».

– وعن أبي جعفر (ع) قال: «يكون في آخر الزمان قوم ينبع فيهم قوم مراؤون، إلى أن يقول:... ولو أضرّت الصلاة بسائر ما يعملون بأموالهم وأبدانهم لرفضوها كما رفضوا أسمى الفرائض وأشرفها، إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة عظيمة بها تقام الفرائض، هنالك يتم غضب الله عز وجل عليهم فيعمهم بعقابه فيهلك الأبرار في دار الأشرار والصغار في دار الكبار، ان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل الأنبياء ومنهاج العلماء فريضة عظيمة بها تقام الفرائض وتؤمن المذاهب، وتحِلُّ المكاسب، وتُرَدُّ المظالم، وتعمّر الأرض ويُنتصفُ من الأعداء ويستقيم الأمر.

– وعن أبي عبدالله قال: قال النبي ﷺ: «كيف بكم إذا فسدت نساؤكم وفسق شبابكم ولم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر».

فقيل له: ويكون ذلك يا رسول الله؟!

فقال: نعم، وشر من ذلك، كيف بكم إذا امرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف.

فقيل له: يا رسول الله ويكون ذلك؟!

قال: نعم، وشر من ذلك، كيف بكم إذا رأيتم المعروف منكراً والمنكر معروفاً.

إن للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شروطاً ومراتب يجب أن تراعى في هذا الوجب العظيم ونحن نذكرها بإيجاز واختصار حتى يقف عليها المسلم ويرى انطباقها عليه واتصافه بها.

حتى يجب الأمر بالمعروف على الإنسان يجب أن تتوفر فيه شروط:

الأول: معرفة المعروف والمنكر ولو إجمالاً لأن من لا يعرف المعروف ولا المنكر كيف يأمر بالأول وينهي عن الثاني..

الثاني: احتمال ائتمار المأمور بالمعروف وتأثره بالأمر والنهي وإلا إذا كان الأمر وعدمه سواء فلا يجب وإذا سقط الوجوب يبقى الجواز.

الثالث: أن يكون المرتكب للمنكر والفاعل له مصرّاً على المنكر، أما إذا كان المنكر قد صدر منه خطأً أو إضطراراً فلا يجب الإنكار.

الرابع: أن لا يلزم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضرر في النفس أو العرض أو في المال على الآمر أو على غيره من المسلمين.

وأما مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهي:

أولاً: الإنكار بالقلب وهو تعبير عن إظهار كراهة المنكَر؛ ومن هنا قال الإمام أمير المؤمنين (ع): من ترك إنكار المنكر بقلبه ولسانه ويده فهو ميت بين الأحياء، ومن هنا قال أيضاً: أيها المؤمنون إنه من رأى عدواناً يُعمل به منكراً يُدعى إليه فأنكره بقلبه فقد سلم وبريء، ومن أنكره بلسانه فقد أجِرَ، وهو أفضل من صاحبه، ومن أنكره بالسيف لتكون كلمة الله العليا وكلمة الظالمين السفلى فذلك الذي أصاب الهدى وقام على الطريق ونور في قلبه اليقين.

ثانياً: الإنكار باللسان بأن يعظه وينصحه ويوقفه على حقيقة الأمر.

قال أبو جعفر (ع): من مشى إلى سلطان جائر فأمره بتقوى الله ووعظه وخوّفه كان له مثل أجر الثقلين الجنِ والأنسِ ومثلُ أعمالهم.

ومنها الحديث المشهور: أفضل الجهاد كلمة حق امام سلطان جائر.

ثالثاً: الإنكار باليد بالضرب الرادع عن المعصية، وهذا هو الحل الأخير الذي لا بد منه وهو في أغلب الأحيان أنجح الحلول وأنجعها؛ فإن العصاة والفَسَقة لا يخافون إلا من السوط والسيف، لا يخافون إلا على جلودهم؛ وهذا قد وردت الأحاديث فيه إذا توقف رفع المنكر عليه..

ففي الحديث عن علي (ع) يقول فيه.. (ومن أنكر بالسيف لتكون كلمة الله العليا وكلمة الظالمين السفلى، فذلك الذي أصاب سبيل الهدى وقام على الطريق ونور في قلبه اليقين).

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: «من رأى منكم منكراً فلينكره بيده إن استطاع فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه».

هذا هو الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر الذي دعا الإمام ولده كي يقوم به حتى يكون من أهله؛ وأهل المعروف كما تصفهم الأحاديث هم أهل المعروف في الآخرة وهم كما عن رسول الله ﷺ: «أول من يدخل الجنة المعروف وأهله وأول من يرد على الحوض وإن لهم باباً خاصاً من أبواب الجنة يقال له المعروف ولا يدخله إلا أهل المعروف». فيجب ان يخوض الغمرات من أجل الحق فإن في خوضها إحقاقاً للحق فضلاً عن اللذة النفسية التي يحصل عليها الانسان من خلال إقدامه ومغامرته.

«وتفقّه في الدين وعوّد نَفسَك التصبّر على المكروه، ونعم الخُلُقُ التصبّرُ في الحق، وألجِئ نفسَك في أمورك كلها إلى إلٰهكَ، فإنك تُلجئُها إلى كهفٍ حريز ومانع عزيز، وأخلِصْ في المَسألةِ لربكَ، فان بيده العطاء والحرمان، وَأكثِر الأستخارة، وتفهّم وصيتي ولا تذهبَنَّ عنك صفحاً، فإن خيرَ القول ما نَفَع. واعلَمْ أنه لا خيرَ في علم لا ينفعُ، ولا يُنتَفَعُ بعلمٍ لا يحق تعلُّمُه».

(وتفقّه في الدين): فإن الدين دستور المسلم وبرنامجه الذي يجب أن يتحرك ضمن خطوطه، فإذا لم يكن المسلم متفهماً له وواعياً لأحكامه، إذا لم يعرفه ولم يدرسه كيف يسير عليه وهل يمكن أن نقول لإنسان لا يعرف الطريق فأخذ يمشي يميناً ويساراً إنه يمشي على الجادة..؟ إن أول ما يجب على كل فرد مسلم أن يعرَف تكليفه في كل مسألة فإن لله في كل مسألة حكماً؛ ولا تخلو قضية أو حادثة بدون حكم من الله فيها، فيجب أن تنسجم أعمال الانسان وتصرفاته مع أحكام الله ومراداته، وهذا لا يتم إلاّ بالوعي لها. والوقوف عندها، والفهم لكل حكم منها. والدين كما نفهمه وكما فهمه المسلمون وكما هو في واقعه يتناول الحياة بجميع جهاتها العبادية منها والإقتصادية، السياسية والعسكرية، الإجتماعية والأخلاقية...! إنه الإسلام صاحب الدين والدولة قضية وفي كل حادثة؛ وقد أكدّ القرآن والسنّة على وجوب التعلّم أو التفقّه فيه.

١ - عن أبي عبدالله (ع): طلب العلم فريضة على كل مسلم، ألا إن الله يحب بُغاة العلم.

٢ - عن علي بن أبي حمزة قال: سمعت أبا عبدالله (ع) يقول: تفقّهوا في الدين فانه من لم يتفقّه منك في الدين فهو أعرابي؛ إن الله يقول في كتابه: ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون.

٣ - وعن فضل بن عمر قال: سمعت أبا عبدالله (ع) يقول: عليكم بالتفقّه في دين الله ولا تكونوا أعراباً فإنه من لم يتفقّه في دين الله لم ينظر الله إليه يوم القيامة ولم يُزكِّ له عملاً.

وعن أبي عبدالله (ع) قال: لوددْت أن أصحابي ضُرِبَتْ رؤوسهم بالسياط حتى يتفقهوا.

عن أبي عبدالله (ع) قال: قال له رجل: جُعلت فداك. رجل عرف هذا الأمر لزم بيته ولم يتعرف إلى أحد من إخوانه؟ قال: فقال: كيف يتفقّه هذا في دينه.

فالتفقّه في الدين ومعرفة أحكامه ليست قضية نافلة أو استحباباً شرعياً بل هو واجب على كل إنسان ولا عذر لأحد في هذا الأمر المهم الواجب، ولا يقبل الله قول التاجر الذي لم يتفقّه في تجارته ثم يقع في الحرام من جراء معاملة رَبَويّة لا يعرفها أو بيع شيء حرام لا يجوز بيعه. وكذلك غيره من الأشخاص الذين يتقلبون في الحياة ويرتكبون المحرمات دون علم بها... فما أحسن كلَّ واحد منا إنْ يبدأ من الآن- إذا لم يعرف أحكام دينه- بتعلّمها ووعيها حتى تكون تصرفاته شرعية يرضاها الله ويقبلها منه.

(وعوّد نفسك التصبّر على المكروه ونعم الخلق التصبّر في الحق): فبالصبر يستطيع الانسان أن يصل إلى مراده؛ وبالصبر يستطيع ان يحقق آماله، وبالصبر يستطيع أن يقهر نفسه وينتصر عليها، ويحقق بعدها الانتصار على الآخرين.

نعم الصبر في مفهوم الإسلام وكما يفهمه المسلمون وليس الصبر الذي أراده المستعمرون وحاولوا أن يفسروه بما يخدم مصالحهم ويحفظ لهم منافعهم.

نعم ليس معنى الصبر الاستسلام والخضوع والذل، بل الصبر (هو الحركة الواعية في طريق الهدف الإسلامي) فهو حركة لا إستسلام وواعية لا مضطربة وفي خطّ الله، وليس في خط الشيطان؛ فإن المؤمن إنسان صبور لا تتزلزل أقدامه عند الحوادث ولا تضطرب أعصابه عند الأزمات، بل يبقى على اتزانه

وهدوئه يقابل الأحداث والمشاكل بعقل ورويّة، ويفكّر في حلولها بصفاء الايمان وطهره؛ وهذا المعنى من الصبر هو المراد إسلامياً.

قال تعالى: ﴿واتبعْ ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين﴾. يعني لا تتوان فيما أوحي إليك بل اتبعه كاملاً واصبر على أدائه ولا تخف من مشقات الطريق وعقباتها بل تابع سيرك واعمل بما أوحي إليك.

- وعن أبي عبدالله: إن الحرّ حرٌّ على جميع أحواله، إن نابته نائبة صبر لها وان تداكّتْ عليه المصائب لم تكسره وان أُسر وقُهر واسْتُبدِلَ باليسر عسراً...

فالصبر جميل ومطلوب خصوصاً إذا كان الإنسان على الحق...

(والجيء نفسك في أمورك كلها إلى إلّهك، فإنك تلجئها إلى كهف حريز ومانع عزيز): وأي كهف هو أمنع وأعز من الالتجاء إلى الله؟! الرجوع إلى الله في الأمور كلها الصغير منها والكبير المهم والأهم؛ الالتجاء إلى الله والانقطاع اليه أن يتعلق القلب بحضرته وتنحصر الخطوات في خطة وضمن الشرط الذي رسمه له.

(واخلص في المسألة لربك فان بيده العطاء والحرمان): والاخلاص ضد الرياء فكما نُهي عن الرياء أُمر بالاخلاص، والاخلاص عبارة عن تجريد القصد من جميع الشوائب، فمن صلى ممتثلاً لأمر الله متقرباً منه، دون أن يقترن بنيته أي أمر آخر عُجب أو كبْر أو وجاهة أو رياء أو غيرها فهو مخلص...

وهذا الاخلاص إن قصد به وجه الله تعالى دون توقّع نفع في الدارين فهو أعلى درجات الإخلاص؛ وان كان يقصد بهذا المأمور به نفعاً يجره لنفسه أو شراً يدفعه عنها فهو في الدرجة الثانية.

وقد أمرنا بالاخلاص في قوله تعالى: ﴿وما أُمروا إلا ليعبدوا[1] الله مخلصين له الدين﴾ وقال تعالى: ﴿ألا لله الدين الخالص﴾[2].

---

(١) سورة البينة، آية: ٥.

(٢) سورة الزمر، آية: ٣.

وقال النبي ﷺ : أخلص العلم يجزك منه القليل..

وقال أمير المؤمنين (ع): طوبى لمن أخلص لله العبادة والدعاء ولم يشغل قلبه بما ترى عيناه، ولم ينسَ ذكر الله بما تسمع أذناه، ولم يحزن صدره بما أعطى غيره.

إن الإنسان إذا أخلص لله تمام الإخلاص وانقطع قلبه عمن سواه فإن الله سيكفيه المهم من أموره.

إن الأمور كلها بيد الله فمن أخلص له فإنه يتولى أمره وينجح طلْبته.

(وأكثر الاستخارة وتفهّم وصيتي ولا تذهبَن عنك صفحاً فإن خير القول ما نفع وأعلم أنه لا خير في علم لا ينفع ولا ينتفع بعلم لا يحق تعلّمه): وأكثر الاستخارة وهي طلب الخير من الله، فإنه الذي يملك الخير كله ثم يوصيه أن يتفهم الوصية ولا يعرض عنها إعراض من لا يهتم بمهام الامور ومحاسنها فإن فيها ما نفع في الدنيا وفي الآخرة؛ والقول إذا كان فيه ذلك حق فيه النظر وله الاعتبار.

إن العلم النافع هو الذي حثّ عليه الاسلام وأمر بتعلّمه وتعليمه، أما العلم غير النافع فإنه نهي عنه بل منعه. ولذا نراه منع السحر والشعبذة والكهانة وغيرها من العلوم المضرة أو التي لا نفع فيها، بينما أمر بوجوب التفقه والأدب وأوجب الاختصاص كفائياً في بعض مجالات العلوم التي يفتقر اليها المجتمع ويحتاجها في تسيير دفة الحياة والحركة الاجتماعية كالطب والهندسة وكل ما يوفر للمجتمع المسلم القوة والعزة والمنعة.

ومن هنا نرى النبي قد نهى عن علم لا ينتفع به؛ ففي الحديث عن أبي الحسن موسى (ع) قال: دخل رسول الله (ص) المسجد فاذا جماعة قد أطافوا برجل فقال: ما هذا؟ فقيل علاّمة، فقال: وما العلاّمة؟ فقالوا له: أعلم الناس بأنساب العرب ووقائعها وأيام الجاهلية والأشعار العربية، قال: فقال النبي ﷺ : ذاك علم لا يضر من جهله ولا ينفع من علمه، ثم قال النبي ﷺ : (إنما العلم ثلاثة: آية محكمة أو فريضة عادلة، أو سنّة قائمة وما خلاهن فهو فضل).

«أيْ بُنَيَّ، إني لمّا رأيتُني قد بلغتُ سناً، ورأيتُني أزدادُ وهناً، بادرتُ بوصيتي إليك، وأوردت خِصالاً منها قبل أن يَعْجَلَ بي أَجلي دون أن أُفضيَ إليك بما في نفسِي، أو أن أُنقَصَ في رأيي كما نُقِصْتُ في جسمي، أو يسبقني إليك بعضُ غلبات الهوى وفتنِ الدنيا فتكون كالصعب النفور».

اللغة:

الوهن: الضعف.

أفضي إليك: أوصل إليك.

المبادرة: المسارعة.

الصعب النفور: الذي لا يمكّن راكبه، الفرس أو البعير غير الآنس.

(أي بنيّ): برقتها ونعومتها، بحنانها وعطفها بما يحويه قلب الأبوّة الكبير الذي يرعى الصغير ويرأف به ويتعهده بالتربية والأدب (أي بنيّ) يا كلمة تذوب فيها الرجولة وتتصابى أمامها الأبطال.

(إني لمّا رأيتني قد بلغت سناً): متقدمة لا بأس بها (ورأيتني ازداد وهناً) فإن الفتوة والشباب والقوة والقدرة ليست ملكات ثابتة وقادرة على الصمود أمام عوامل الزمن وتكرار الليالي والأيام، بل ان كل تلك القوى والقدرات وكل ذلك الجسم العامر والصحة الوافرة كلها تذوب وتتراخى بفعل الزمن وضرباته. إن كل يوم يمضي يتلف نصيباً من أجسامنا حتى يأتي اليوم الذي يتهاوى الجسد كله ويموت... ولمّا كان الأمر كذلك (بادرت بوصيتي إليك وأوردت خصالاً منها قبل أن يعجل بي أجلي) فاني أخاف أن يدركني الموت قبل أن أُنفِذَ إليكَ وصيتي التي أعددتها لك. أو أخاف أن أنقص في رأيي كما نقصت في جسمي فإن بعض الناس يفقد الذاكرة أو تضعف عنده هذه الملكة

وهذا يؤدي إلى فقدان وصيته التي كان يجب أن يقدّمها لأحبابه عندما كان يمتلك الرأي الصائب والنظرة الرشيدة، وكما يجب على الانسان أن يلاحظ الأمور المتعلقة فيه ويبادر إلى اغتنامها يجب أن يلاحظ الأمور المتعلقة بغيره ويغتنمها. ومن جملة هذه الأمور المتعلقة بالغير أن يغتنم القبول عنده أو يغتنم الطهارة والنزاهة والصفاء فيدخل الى قلبه فيصلحه وإلى روحه فيداويها. وإن عالم الطفولة عالم البراءة والطهارة، عالم الصفاء، وفي هذا الوقت يقبل الطفل الترويض والتهذيب بينما إذا سبقت اليه الاشرار وغرست في نفسه الإجرام فانه يصعب إصلاحه وردّه إلى الخيرات والأعمال الصالحات. فلذا قال الامام إن هذه الوصية كانت قبل أن يسبقني إليك بعض غلبات الهوى وفتن الدنيا فتكون كالصعب النفور، أي كالجمل الذي لا يسلس قياده لراكبه بل يستوحش من كل من رأى وهذا يؤدي إلى عدم تأثير الوصية وفقدان مفعولها...

«وإنَّما قلبُ الحَدَثِ كالأرض الخالية ما أُلقِيَ فيها مِنْ شيء قَبِلَتْه فبادرتُكَ بالأدب قبل أن يقسوَ قلبُك ويشتغلَ لبّك لتستقبِل بجد رأيك من الأمر ما قد كفاك أهلُ التجارب بُغْيَتَه وتجربتَه فتكون قد كُفيتَ مَؤونةَ الطلَبِ وعُوفيتَ من علاج التجربة فاتاك من ذلك ما قد كنا نأتيه، واسْتبان لك ما ربما أظْلَمَ علينا منه».

اللغة:

المبادرة: المسارعة والمسابقة.

بغيته: طلبته

اللب: العقل.

استبان: ظهر.

(وإنما قلب الحدث كالأرض الخالية ما ألقي فيها من شيء قبلته): وهذه حقيقة اهتم بها الاسلام وشرّع لها أسلوباً فذاً في زرع المفاهيم والأفكار الإسلامية؛ فإن الشارع المقدس قد رسم للطفل عند ولادته سنناً رائعة، إنه ندب إلى الأذان في أذنه اليمني والإقامة في اذنه اليسرى إن كلمة (الله اكبر) و(لا إله إلا الله محمد رسول الله) وغيرها من فصول الأذان والإقامة تدخل نفس الطفل عند دخوله الحياة ورؤيته النور.

يدخل الطفل الحياة وتدخل قلبه ترانيم الأذان كي يلتقي الدخولان دفعة واحدة فيشكلان توافقاً وإنسجاماً مع بعضها.

ثم يأخذ الإسلام بيد هذا الطفل تدريجياً كي يصوغه صياغةً صالحةً فيمنع إرضاعه من ولدت من الزنا؛ فعندما يُسألُ الامام عن امرأةٍ ولدت من الزنا، هل يصلح أن يُسترضع بلبنها؟ يقول: لا يصلح ولا لبن ابنتها التي ولدت من الزنا... وكذلك يمنعه عن لبن المجوسية واليهودية والنصرانية؛ وهكذا عن

الحمقاء والخبيثة ويقول فيها: لا تسترضعوا الحمقاء، فان اللبن يغلب الطباع ويقول: إسترضعْ لولدك بلبن الحِسان وإياك والقِباح، فان اللبن قد يُعدي. وفي مقابل ذلك يأمر الولي أن يتخيّر للرضاع كما يتخير للنكاح، ويقول: أُنظروا من يرضع أولادكم فان الولد يشب عليه. ويقول: تخيّروا للرضاع كما تخيّرون للنكاح، فإن الرضاع يغيّر الطباع... وبعد أن يشبّ الولد ويكبر يضع الإسلام للأبوين برنامجاً تعليمياً تربوياً إن أخذا به أفلح الولد وسعد وإلا سقط وهوى. يقول الإمام الصادق (ع) «دع ابْنك يلعب سبع سنين والزمه نفسك سبع سنين». وعن النبي ﷺ: «لأنْ يؤدّب أحدكم ولداً خير له من أن يتصدق بنصف صاع كل يوم».

ويقول النبي (ص) أيضاً: رحم الله من أعان ولده على برّه؛ قيل كيف يعينه على موضعاً حسناً.

ويقول أيضاً: حق الولد على والده اذا كان ذكراً أن يَسْتَفْرِه أمه، ويستحسن اسمه، ويعلمه كتاب الله ويطهره ويعلمه السباحة.

ويقول النبي أيضاً: رحم الله من أعان ولده على برّه؛ قيل كيف يعينه على برّه؟ قال: يَقبَلُ ميسوره، ويتجاوز عن معسوره ولا يرهقه ولا يخرق به...

إن الطفل صفحة بيضاء تستطيع ان ترقم عليها الاسلام حكماً حكماً وشرعةً شرعة كما تستطيع ان ترقم عليها الكفر والضلال والانحلال؛ والخيار يرجع إلى المربي والكافل، فإن كان صالحاً حاول جهده في سبيل أن يزرع في نفس الطفل الخير والصلاح وكل المعاني الطيبة من الوفاء وأداء الأمانة والحب والبذل والعطاء، وإن كان فاسداً زرع أضداد هذه المحاسن، زرع الغدر ونكْثَ العهدِ والبغض والأنانية والأثرة وكل المساوىء والقبائح.

إن هذا الطفل يشبّ على ما يعوّده عليه مجتمعه الصغير والكبير: البيت والمدرسة والشارع، فإن كانت كلها صالحةً نشأ عنصراً صالحاً، وان كانت فاسدة نشأ عنصراً فاسداً إن الغصون إذا قوّمتها اعتدلت.

الطفل كالعجينة الرخوة تستطيع أن تصنعها ما شئت، تستطيع أن تخلق منه بطلاً رسالياً كما تستطيع أن تجعل منه مجرماً تاريخياً، تستطيع أن تجعله مهملاً تافهاً يعيش الكسل والخمول لا يفكر إلا في اللذة كيف يقتنصها وفي اللهو كيف يحصل عليه، كما تستطيع أن تجعل منه عنصراً فذاً يتوقد نشاطاً وحركة يفكر في نهضة أمته وإحياء تراثه وعودة إسلامه...

إن مجتمعنا اليوم يفقد التربية الإسلامية الصحيحة لأن الأب والأم لا يهتمّان إلا بإعالته مادياً من تنظيفه وتهيئة ملابسه ومطعمه ومشربه، أما غيرها من الأمور الأخرى فإنها يفقدانها من أنفسهما فكيف يعطيانها لغيرهما. وإذا خرجنا من البيت والأسرة إلى المدرسة فإننا نجدها أبعد ما يكون عن تلقين الإسلام وغرس مفاهيمه وأفكاره، بل على العكس من ذلك نرى مناهج الدراسة تعطي أفكاراً جاهلية قومية أو عنصرية أو عرقية أو إلحاديّة أو علمانية أو غيرها من الأباطيل التي حاربها الدين وقضى عليها ونجد المعلم يفقد العناصر المثالية التي يجب أن تتوفر في القدوة والأسوة باعتباره المثل الأعلى الذي ينظر إليه الطفل، فإذا كان المعلم فاسداً أخلاقياً أو متحللاً إجتماعياً كيف يستطع أن يقدم للمجتمع عناصر صالحة!!

وإذا خرجنا إلى الحياة بشكل عام نجد الانحراف والضلال، ففي السوق ينتشر الربا والتطفيف والغش والاحتيال، وفي القضاء نجد الرشوة والمحاباة، وفي الدولة نجد رجال السلطة وزبانية الحكم يستأثرون لأنفسهم وأقربائهم ومن حولهم من العصابات بأهم مرافق الدولة ومراكزها الحساسة دون كفاءة ولا أهلية؛ وهكذا نجد المجتمع بجميع وسائله يتحول ضد الاسلام وضد التربية الاسلامية الصحيحة، فإن وسائل الاعلام المسموعة والمرئيّة والمصوّرة كلها تصبّ لصالح دعاة الانحلال والفوضى والفساد.

وفي ضمن هذا الجو الموبوء كيف يستطيع أن ينشأ الطفل نشأةً إسلامية..!! إنه يحتاج إلى مضاعفات من الجهد والتعب وإلى رقابة مستمرة من أوليائه

وملاحقة دائمة لكل حركاته وتصرفاته فيشجعونه على الخيرات ويسددونه نحوها كما يردعونه عن المفسدات ويسدّون في وجهه أبواب الضلال والفساد. إن الطفل يحتاج إلى البيت المسلم والمدرسة المسلمة والمجتمع المسلم وعندها تسهل تربيته، وهذا ما أشار إليه الامام بقوله: «وإنما قلب الحدث كالأرض الخالية ما ألقي فيها من شيء قبلته إن كان طيباً طاهراً قبله وان كان نكداً خبيثاً قبله» ولذا يجب المسارعة في هذه الفترة إلى الأدب والتهذيب وإلى صب مفاهيم الخير والاحسان في ذهن الطفل كي تنمو وتتأصل ويستطيع أن يواجه الحياة بطهارة ونزاهة واستقامة؛ واما اذا غلب الانحراف وتأصلت بذور الجريمة والفساد في نفس الطفل، فإن صلاحه يتوقف على نزع هذه البذور المتأصلة وهدم المفاسد المتأججة في نفسه وهذا يحتاج إلى مدة مديدة- إن قدر على اقتلاعها الانسان- ثم بعد الاقتلاع يبتدىء زرع المفاهيم الصالحة من جديد وهذا يستغرق وقتاً طويلاً وقد لا يوفق الانسان إلى هذه العملية خصوصاً إذا كانت تيارات الأعداء ودعاياتهم كثيرة وتتوافق مع ميول النفس الشريرة ونزواتها، فإن هذه الطريق تكاد أن تفقد مفعولها إن لم نقل إنها عقيمة عن إعطاء أي النتائج.. ومن هنا يجب على أولياء الطفل أن يبادروا إلى تأديبه وتهذيبه كما يقول الامام (فبادرتك بالأدب قبل أن يقسو قلبك ويشتغل لبك).

ثم إن الامام أراد أن يُحبّب إليه هذه الوصية ويرغّبه في قبولها والعناية بها وذلك بذكر الأتعاب والمشقات التي خاضها أهل التجارب كي يحصلوا على ما حصلوا عليه؛ انهم تعبوا وكدّوا واجتهدوا وأخطأوا كثيراً حتى استطاعوا أن يحصلوا على النتيجة التي وصلوا إليها. إن النتائج التي بأيدينا لم تأتِ بهذه السهولة واليسر الذي يتصوّره بعض الناس بل كانت حصيلة سنين متمادية تخللها كثير من العرق والدموع بل من الدماء في بعض الأحيان. وإن هذه العلوم التي توصّل إليها الانسان والمعارف التي حصل عليها كانت نتيجة طاقات هائلة من العقل والفكر بُذلت في هذا الطريق من أجل هذه الغاية. والانسان اذا التفت الى تلك النتائج حقّ له أن يأخذها ويعتبر بها بل وجب

عليه أن يأخذها لِيُسْرِ مأخذها وسهولته فانهم كفونا مؤونة الطلب والتعب وأغنونا من علاج التجربة التي تحمل الأخطاء والعثرات بل حصلنا على النتيجة بفضل تجارب الأولين وأتعابهم.

«أيْ بُنَيَّ إنّي وإنْ لَمْ اكُنْ عُمِّرْتُ عُمرَ مَنْ كان قبلي، فقد نظرتُ في أعمالهم وفكّرت في أخبارهم وسِرْتُ في آثارهم حتى عُدتُ كأحدهم بل كأني بما انتهى إليّ من أمورهم قد عُمِّرت مع أولهم إلى آخرهم فعرفت صفو ذلك من كدره ونفعه من ضرره فاستخلصْتُ لك من كل أمرٍ نخيله، وتوخّيْتُ لك جميلَه، وصرفت عنك مجهوله».

اللغة:

النخيل: الشيء صفّاه واختاره وأخذ أفضله.

توخيتُ: تحرّيْتُ

في هذا الفصل الشريف من الوصية بيانٌ مرغّب لقبولها ودفعٌ لِمَا يُتَوَهّمُ مِن أنه كيف يقبلها الانسان وهي تجربة لزمن قصير وأيام معدودة.

إن فترة ستين سنة من عمر الامام مدة قصيرة بحساب الزمن وعمقه وامتداده الطويل فكيف تكون هذه الفترة مؤهلة لإعطاء النصائح التي تستوعب الزمان وتغوص في أحشائه لتستخرج حكم الحياة وعِبَرها وما فيها من الخير والشر.!! إنه عليه السلام أراد أن يدفع هذا التوهم بقوله: (أي بني إني وان لم أكن عمرتُ عمر من كان قبلي)، ولم تستوعب حياتي حياة السابقين كلهم ولكن (نظرت في أعمالهم) ماذا فعل فرعون وهامان وكيف قابل موسى طغيانها وعنادهما للحق! كيف عقر الشقي ناقة صالح وكيف كان ردّ الله عليهم، إنه نظر في أفعال الأنبياء وأعمالهم كما نظر في أفعال الطغاة وأعمالهم وأخذ من كل منهم العظة والعبرة. إنه وقف على الدروس التي تؤهله لجنة الله كما وقف على الدروس التي تبعده عن نار الله؛ إنه على علم بكل ما جرى في ماضي الأمم وسوابقها لأنه نظر في أعمالهم وفكّر في أخبارهم وسار في آثارهم وما تركوه من

شواهد على إيمانهم أو على كفرهم، على حقهم أو على باطلهم. إنه بعد أن درس أحوالهم بشكل دقيق وعميق عاد وكأنه عايشهم كلهم، كأنه رافق أولهم وبقي مستمراً إلى يومه هذا. فإن العبرة بما يحصل عليه الانسان من العلم والتحليل والبحث والتحقيق وأخذ صفوِ ذلك كله من أجل بناء حياة يرضاها الله ويحبها ولذا يقول الامام: (فقد نظرت في أعمالهم وفكرت في أخبارهم وسرت في آثارهم حتى عدت كأحدهم بل كأني بما انتهى إليّ من أمورهم قد عمرت مع أولهم إلى آخرهم) فعرفت صفو ذلك من كدره ونفعه من ضرره فاستخلصت لك من كل امر نخيله (صفوْ) وتوخيت لك جميله وصرفت عنك مجهوله.

«ورأيتُ حيث عنَاني من أمرك ما يَعني الوالدَ الشفيقَ، وأجمعتُ عليه من أدبك أن يكون ذلك وأنت مقبِلُ العُمر ومُقْتَبَل الدهر، ذو نيةٍ سليمة، ونفْس صافية، وأن أبتدئَك بتعليم كتاب الله عز وجل وتأويله، وشرائع الإسلام وأحكامه، وحلالِه وحرامِه، لا أجاوزُ ذلك بك إلى غيره».

اللغة:

أجمعت عليه: عزمت عليه.

...

هكذا تتجسد الأبوّة حباً وعطفاً وحناناً وتتحرك في ضمير أبنائها زارعة الخير، ناظرةً ما يُصلحهم في أمور دنياهم وآخرتهم... إن شفقة الأبوّة وحنانها تستدعي منها المسارعة في تلقين الأبناء مبادىء الأدب والاحترام ومبادىء الحلال والحرام وكتاب الله الذي هو المفتاح لكل خير والناهي عن كل شر..

إن كتاب الله هو المصدر الرئيسي لكل المسلمين.. ففيه الأحكام من حلال وحرام؛ وفيه القصص والحكم، وفيه الآداب والأخلاق؛ فيه الحدود والديات، فيه القِصاص والعقوبات، فيه العبادات والمعاملات، إنه كتاب الحياة بجميع أدوارها ومختلف شؤونها وأطوارها يتناول الانسان كما يتناول الكون ويتناول الدنيا، كما يتناول الآخرة، إنه الحياة للقلوب والجلاء للنفوس، والعُروة للوحدة والملتقى لكل المسلمين.

إن هذا الكتاب خلق من رعاة الإبل والشاء رعاة للعالم بأسره وصنع من الضائعين في متاهات الصحراء أمةً من أرقى الأمم وأعظمها، وبنى من نفوس القتلة والمجرمين نفوساً تقية صالحة تحب الخير وتعمل به وتدعو إليه...

ولكن وللأسف الشديد، عندما تركنا العمل بهذا القرآن وأهملنا النظر في أحكامه وعطلنا حدوده؛ عندما تركناه وراء ظهورنا واستبدلنا به غيره كانت

النتيجة خسارة فادحة وضربة قاصمة أصابت المقاتل منا حيث أضحينا في تفكك وانهيار وعبودية وإذلال.

إن تلك الأمة العظيمة التي خلقها هذا القرآن عادت أحقر الأمم وأذلّها عندما تركت العمل به وأهملت إقامة أحكامه وحدوده؛ وما دور اليهود وأعمالهم اليوم في بلادنا من قتل وتشريد ومن احتلال وتنكيل، إلا نتيجة للإبتعاد عن هذا القرآن وترك العمل بمضامينه وتشريعاته.

وما أعظم الأهل الذين يربّون أولادهم على حب القرآن وتلاوته ويدربونهم للعمل بمضمونه آية آية، وحكماً حكماً. ويأخذون بأيديهم إلى مواطن الأدب فيؤدبونهم بها وإلى مواطن العظة فيعظونهم بها، وإلى كل عبرة فيه ومثل فيقدمون لهم العبر ويضربون لهم الأمثال..

إن أعظم ما يقدمه الأهل لأبنائهم أن يخلقوا منهم أشخاصاً تتحرك بالقرآن وتعمل به حتى يتحولوا في وقت ما إلى قرائين ناطقة تدبّ على وجه الأرض كما كان الامام علي يعبّر عن نفسه (أنا القرآن الناطق وذاك القرآن الصامت)، فإن شدة الانسجام والالتحام وقوة التأثر واللقاء تجعل من الانسان قرآناً في إهاب إنسان بحيث تتحوّل كل حركات هذا الإنسان وتصرفاته ترجمة حرفية لمضمون الآيات..

إن الأهل إذا اعتنوا بالأولاد فزرعوا في نفوسهم القرآن والسنّة وأوضحوا لهم معالم الحلال والحرام وأخذ الطفل مع نموّه المتصاعد تتعمّق عقيدته في الله وتتركز معاني الحلال والحرام عنده كانوا قد أدوا واجبهم؛ وإنه لا يأتي سن البلوغ إلا وقد بلغ الدرجة العليا في العقيدة والعمل والرؤية الاسلامية السليمة.

أمّا لو كان الأهل يفقدون هذه الالتفاتة وهذه التربية ولم يهتموا بهذه الجوانب من التربية القرآنية بالخصوص والاسلامية بالعموم بل يتركون الأبناء للأقدار وللمجتمع الفاسد والتيارات الوافدة؛ يتركونهم للمدرسة التي تقتل فيهم التطلّع نحو الإسلام والعمل بمضمونه وتقضي على كل حرف يستمد من

القرآن أو يعتمد عليه ، فإنه لا محالة تُخلَقُ الأجيالُ المتنكرة لدينها ومبادئها المستهزئة بكل معالم الخير والمثل التي ينشدها الاسلام وينادي بها . . .

ومن هنا ينبِّه الامام في وصيته هذه الى هذه الجهة من الاهتمام بالقرآن وتوضيح معالم الحلال والحرام لهذا الناشيء الصغير فإن هذه الأمور إذا غُرست في نفس الطفل أثمرت وأعطت أحسن الخيرات . . .

«ثُم أشْفقتُ أنْ يلتبسَ عليك ما أختلف الناسُ فيه من أهوائهم وآرائهم، مثلَ الذي التبسَ عليهم فكان إحكام ذلك على ما كرهتُ من تنبيهك له أحبَّ إليَّ من إسلامك إلى أمرٍ لا آمنُ عليك به الهلكة، ورجوتُ أن يوفقِك الله فيه لرُشدك، وأن يهديَك لقصدك فعهدت إليك وصيتي هذه».

اللغة:

الشفقة: الحنو، العطف مع الخوف عليه.

التبس: اختلط ولم يتضح.

هكذا يبحث الأب الشفيق الواعي العاقل عما يُصلح ولده الضعيف الرقيق الناشيء، إنه لا يتركه في مهبّ الريح تتلاعب به وتقذفه من جانب إلى جانب ومن جهةٍ إلى أخرى، بل إن الوالد باعتباره قد مرّ بتجربة سابقة عليه وأدرك مواطن الخطر والانزلاق ومواطن القوة والصمود، إنه يدرك بعد أن مرّ بهذه التجربة أغلبَ الشُبُهات التي تحركت في عقله وأثارها أمامه غيره، ورأى بأم عينه كيف زلّت أقدم كثير ممن عاصروه نتيجة هذه الشبهات التي لم يجدوا حلاً لها، أو لم يسألوا عن حلّها فاستحكمت في نفوسهم واستعصى قلعها، فكفروا بعد إيمان، وضلوا بعد هدى، وانحرفوا بعد استقامة. إن الأب الواعي المدرك لهذه المخاطر لا يترك أولاده في متاهات ومجاهل لا يعرف سلامتهم فيها ولا نجاتهم منها، بل يُبادر الى وضع خطوط عريضة تتعيّن من خلالها وجهة المسير وحدوده ومقدار سعته وضيقه... إن إيضاح الطريق ووضع المعالم البارزة التي توصل إلى الهدف من أهم ما يتوجب على الأب. ومن هنا بادر الامام إلى بيان هذه النقطة بعد أن كان عازماً على عدم ذكرها إنه عاد إلى بيانها وتوضيح الحق فيما اختلف فيه الناس واشتبه الأمر على بعضهم فيه...

إن بيان هذه القضية المشتبه فيها وإبراز معالم الحق فيها أولى من تَرْك هذا الولد وشأنَه في معركةٍ قد لا تكون لصالحه. إذْ ربما غلبت الشبهة على عقله واستحكمت وعندها تكون الملكة التي تقود هذا الانسان الى خطر ما بعده خطر آخر. إنه خطر العقيدة التي يصغر عندها كل خطر آخر، إنه خطر الإيمان الذي ربما تزلزل فهوى بصاحبه الى نار جهنم، وعندها تكون الكارثة الكبرى التي تهون عندها كل الكوارث الأخرى.

«وَاعلَمْ يا بُنيّ أنّ أحبَّ ما أنت آخذٌ به إليَّ من وصيتي تقوى الله والاقتصارُ على ما فرضه الله عليك. والأخذُ بما مضى عليه الأولون من آبائك والصالحون من أهل بيتك، فإنهم لم يَدعوُا أن نظروا لأنفسهم كما أنت ناظرٌ وفكّروا كما أنت مفكّر، ثم ردّهم آخرُ ذلك إلى الأخذِ بما عرفوا والإمساك عمّا لم يُكَلَّفُوا».

تقوى الله واجتناب محارمه من أهم الأمور وأوجبها على الانسان المسلم فلا يفيد عمل بدون تقوى ولا تثمر تضحيات بدون تقوى ولا ينفع اجتهاد بدون تقوى... بالتقوى تتفاضل الناس وبها تقترب من الله.

والتقوى كما يفسرها الصادق (ع): أن لا يفقدُك الله حيث أمرك ولا يراك حيث نهاك..

وإن الله أثنى على المتقين وحث على التقوى في كتابه الكريم قال تعالى: ﴿الم. ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾، وقال تعالى: ﴿تزوّدوا فان خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الالباب﴾. قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون﴾. قال تعالى: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين﴾. وقال تعالى: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾. وقال تعالى: ﴿إن المتقين في جناتٍ ونهر في مقعد صدقٍ عند مليك مقتدر﴾.

وأما سنّة المعصومين فقد طفحت بالحث والتأكيد على التقوى.

قال النبي ﷺ: لو أن السموات والأرض كانتا رَتْقاً على عبدٍ ثم اتقى الله لجعل الله له منهما فرجاً ومخرجاً.

وقال النبي ﷺ: أصل الدين الورع، كن ورعاً تكن أعبد الناس وكن

بالعمل بالتقوى أشد اهتماماً منك بالعمل بغيره، فانه لا يقلُّ عملٌ بالتقوى، وكيف يقل عمل يُتَقَبَّلُ لقول الله عز وجل: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾.

وقال الامام علي (ع): اتقوا الله الذي إن قلتم سمع، وإن أضمرتم علم، وبادروا الموت الذي إن هربتم أدرككم وان أقمتم أخذكم وان نسيتموه ذكركم.

وقال علي (ع): «فإني أوصيكم بتقوى الله الذي ابتدأ خلقكم، فإن تقوى الله دواءُ داء قلوبكم وبصرُ عمى أفئدتكم وشفاءُ مرض أجسادكم وصلاحُ فساد صدوركم وطهُورُ دَنَسِ أنفسكم وجلاء غشاء أبصاركم وأمْنُ فزع جأشكم وضياءُ سواد ظلمتكم.

وقال الصادق (ع): من أخرجه الله من ذل المعصية إلى عز التقوى أغناه الله بلا مال وأعزه بلا عشيرة وآنسه بلا بشر.

وقال الصادق (ع): التقوى على ثلاثة أوجه: تقوى بالله (في الله) وهو ترك الحلال فضلاً عن الشبهة وهو تقوى خاص الخاص وتقوى من الله وهو ترك الشبهات فضلاً عن الحرام وهو تقوى الخاص وتقوى من خوف النار والعقاب وهو ترك الحرام وهو تقوى العام...

بالتقوى تقبل الأعمال فإن من صلّى بدون تقوى لا تقبل صلاته وإنما بأدائها يسقط العقاب فحسب، وأما ترتيب الأجر والثواب فهذا لا يتحقق إلا بالتقوى التي تتم باجتناب جميع المحارم...

بالقيام بجميع الواجبات المفروضة على الانسان والاجتناب عن جميع المحرمات تتحقق التقوى وتقبل الاعمال وبدون ذلك لا يقبل عمل ولا يُثاب عامل، وإنما العمل يُسقط العقاب فحسب...

والإمام هنا في وصيته يسكب في رُوع ولده ورُوع كل الناس أن يتمسكوا بهذه الخصلة الشريفة التي لا تعادلها خصلة ويضعها الامام في هذه العبارة الجميلة والصياغة اللطيفة قائلاً: (واعلم يا بني أن أحبَّ ما أنت آخذ به إليَّ من وصيتي تقوى الله والاقتصار على ما فرضه الله عليك من الواجبات وترك

المحرمات التي بها يتم العمل الصالح وتتحقق التقوى وتكون سهلة المنال لا تُرهق كاهل العامل ولا تجعله يمل من الزيادة وكثرة العمل.

ثم إن الإمام ذكّر ولده بسيرة الصالحين من أهل بيته من أجداده وأعمامه الذين نظروا في أمور الدنيا والآخرة؛ ذكره بهم وبما كانوا عليه من التفكير في مصالحهم وما ينفعهم... فإن هؤلاء العظماء كانوا على جانب كبير من رجحان العقل وسلامته وانهم لم يدخلوا في الاسلام إلا بعد أن ثبت لهم صحته كدين وثبت لهم صدق الرسول في دعواه النبوّة، فإن حمزة بن عبد المطلب أسدَ الله وأسدَ رسوله قد آمن بالنبي ودافع عنه وردّ كيد المشركين والكفار وكل أذيّة كانت تصل الى الرسول الأكرم وقد اندفع في «أُحد» يقاتل في سبيل الله حتى سقط شهيداً مضمخاً بدمه...

وكذلك جعفر بن أبي طالب الذي هاجر في سبيل الله ثم استُشهد في «مؤتة» مسطراً أروع البطولات وأعظمها. وهكذا غيرهما من أقرباء النبي وأهل بيته قد نظروا إلى الدنيا وفكروا فيها واختاروا لأنفسهم أقرب الطرق إلى الله وأصلحها لهم في دنياهم وآخرتهم...

إن هذا الرعيل من الصالحين كانوا يمثلون الطلائع الواعية في مجتمعهم؛ لم تكن تصرفاتهم خاضعة للأهواء والميول أو للعصبية والمزاج، وإنما كانت تنطلق من قناعات صحيحة وسليمة فأخذوا بما عرفوا من شرائع الدين وأحكامه وقوانينه وسُننه وكفّوا عما لم يكلّفوا فيه مما هو محجوب عنهم أو غيرُ مطلوب منهم.

«فإنْ أبَتْ نَفسُكَ أنْ تَقْبَلَ ذلك دون أن تعلمَ كما عَلِموا، فَلْيكن طلبُكَ ذلك بتفهُّمٍ وتعلُّمٍ، لا بتورُّطِ الشُّبُهات، وعُلَقِ الخصومات. وَأبدأ قبل نظرك في ذلك بالاستعانة بإلهك والرَّغبة إليه في توفيقك، وترك كل شائبة أوْلجتكَ في شبْهةٍ أو أسْلَمَتْكَ إلى ضلاله، فإنْ أيقنْت أنْ قد صفا قلبُكَ فخشع وتمَّ رأيك فأجْتَمَعَ، وكان همك في ذلك هماً واحداً، فانْظر فيما فسَّرت لك، وإنْ لم يجتمع لك ما تُحب من نفْسك وفراغ نظرك وفكرك فَأعلَمْ أنك إنما تخبطُ العَشواء، وتتورّط الظلماء. وليس طالبُ الدينِ مَنْ خبَطَ أو خَلَطَ، والأمساكُ عن ذلك أمْثَلُ».

اللغة:

الشائبة: ما يشوب الفكر من شك وحيرة.

أُولجتك: أدخلتك

العشواء: مؤنث الأعشى: الناقة التي لا تبصر أمامها، يقال هو يخبط خبط عشواء أي يتصرف في الأمور على غير بصيرة.

في هذا الفصل من الوصية يقف الامام ليعطي درساً لكل المتعلمين الذين يريدون الغوص في عالم المعقولات والمجردات، الذين يريدون ان يدخلوا الى عمق الامور وحقائقها ويستكنهوا لُباب الأشياء وأسرارها. إن هناك عالماً مجهولاً إذا دخله الانسان بدون دليل معه أو بدون أن توضع له معالم تحدد له وجهة المسير سوف يضل ويتيه وقد يعود إلى النقطة التي انطلق منها على أحسن التقادير إن لم يستمر في التيه والضلال حتى ينقضي العمر وتدبر الأيام.

إن الدخول في أمور يكثر فيها الزلل والخطل ويتعرض الإنسان خلالها إلى

مزالق كثيرة لا تحصى، يجب قبل الخوض في عباب ذلك المجهول أن يُعدّ العدة ويشحذ الهمة ويكون مؤهلاً لخوض هذه المعركة التي لم يعرف فيها النجاح من الفشل، يجب أن يهيء الأسباب التي توفر له النجاح والفوز والعودة بالظفر بعد تجوال قد يستمر طويلاً في استخراج النتيجة التي يرضاها الله ويحبها...

إن للمتعلمين صفات وضعها علماء الأخلاق والآداب وقد ذكر الشهيد الثاني في كتابه (منية المريد في آداب المفيد والمستفيد)، ما يجب أن يتحلى به طالب العلم في نفسه من الإيمان والتقوى والاخلاص وما يجب ان يوفره لنفسه من الصفات أمام شيخه واستاذه وإلى غير ذلك مما رشح به قلمه السعيد في استخلاص هذه الفوائد الجليلة. وان الإمام هنا يُلقي الأضواء أمام المتعلم الذي يريد أن يحرّر بعض هذه المسائل المهمة فيقول له:

١- يجب أولاً أن يطلب هذه المطالب المهمة من أجل الفهم والعلم، من أجل الوصول إلى الحقيقة التي هي أنشودة المخلصين لا أن يطلب هذه الأمور ليزيد الشبهات ويتخذها عضداً له في الخصومات...

٢- يجب عليه أن يبتدىء قبل كل شيء بطلب الاستعانة من الله بالتوفيق إلى وجوه الصواب وإدراك الحقائق والثبوت على الاستقامة وهذا التوجه الرباني مطلوب من الإنسان في كل أعماله وتصرفاته؛ فإنَّ طلب المدد من الله والإستعانة به يجب أن لا ينقطع عنه أو يتهاون فيه...

٣- يجب ان يكون بحث هذه القضايا بحثاً موضوعياً دون أن تشدّه المذاهب والأهواء إلى رأي معين أو جهة معينة بل يتخذ الحق والعلم وجهته؛ أن يبني بينه وبين نفسه أنه سيتخذ الدليل والبرهان هدفاً له في الوصول إلى الحقيقة دون أي أمرٍ آخر؛ وما أصعب وأشق البحث الموضوعي النزيه فانه أصعب من إزالة الجبال عن أماكنها. وأنّى للرجال أن يتركوا موروثات قومهم ويتخلوا عن عادات أهلهم ويتجاهلوا دين أسلافهم!! إننا رأينا بعض المفكرين تعصّباً منه لمذهبه أو قومه ينحرف عن الاستقامة ويُسف في التفكير ويطوّع

آيات الله وكلامه زوراً وبهتاناً من أجل أن تتفق وما عنده من رواسب مذهبية وعادات قومية... رأينا ذلك الشموخ في الرأي والاصالة في البحث كلها تتهاوى عند الدخول في بحث العقيدة والأديان... انه لا يستطع ان يتخذ الموضوعية باستمرار بل يتخذها في ما لا يضره ولا يؤذي حسه الديني أو التقليدي...

ثم أن الامام بعد أن يحدد له هذه الخطوط العريضة في منهج البحث يقول له: فإذا أيقنت أن قد صفا قلبك فخشع وتمّ رأيك فاجتمع وكان همك واحداً- وهو الوصول إلى الحقيقة وإدراك الواقع- فانظر في ما فَسَّرتُ لك...

وأما إذا لم يتوفر له ذلك بل كان قصده من أول الأمر خلاف هذه الشروط فلا بد أن يتيه ويضل ويخبط خبط الأعمى الذي لا يهتدي الطريق أو خبط السائر في ظلمات الليل البهيم مع جهله وعدم الدليل... وطالب الدين بعيد كل البعد عن مثل هذه المهاوي والأضاليل.

« فَتَفَهَّمْ يا بُنَيَّ وصيّتي، وأعلَمْ أن مالِكَ الموتِ هو مالكُ الحياة، وأنَّ الخالقَ هو المميت، وأن المفني هو المُعيد، وأن المبتلِيَ هو المعافي، وأنَّ الدنيا لم تكن لِتستقِرَّ إلاّ على ما جعلها اللهُ عليه من النَّعماء والابتلاء والجزاء في المَعاد، أو ما شاء مما لا تعلم؛ فإنْ أشكل عليك شيء من ذلك فَاحمِلْه على جَهالتك، فانك أوّلُ ما خُلِقْتَ به جاهلاً ثم عُلّمتَ؛ وما أكثرَ ما تجهلُ من الأمر ويتحيّرُ فيهِ رأيُك، ويضلُّ فيه بَصرُكَ ثم تبصِرُهُ بعد ذلك فَاعْتصِمْ بالذي خلقكَ ورزقك وسوّاك، وليَكُنْ له تعبّدك وإليه رَغبتُك ومنه شَفقتك »...

اللغة:

المعاد: يوم القيامة.

شفقتك: خوفك.

.... • ....

لقد تعلّقتْ قلوب الأئمة بالله وانقطعت عمّا عداه؛ فهي تعيش معه في كل لحظات وجودها، في السر والعلن، في الليل والنهار، في البيت والشارع، عند الأكل والشرب، في اللذة والألم، لقد تحوّلت تلك القلوب إلى محاريبَ لا ترى فيها غير الله... إن هذه القلوب قد اتصلت بالله وأولَتْهُ كلَّ شيء، وتوجهت نحوه في كل شيء... إنها أعطته الذمام المطلق، فله حق الأمر، كما له حق النهي، وبيده الحياة، كما أن بيده الموت... إن هذه الأنفاس العالية غُرست في كل نفوس المحبين والمطيعين والسائرين على خط هؤلاء الأئمة العظام...

إن غريزة حب الحياة واستمرارية الدوام فيها أهم ما ينظر إليه الإنسان؛ فقد يتخلى عن أرضٍ ملكها، أو مال اكتسبه، أو شرفٍ رفيع حازه، أو مقام

عالٍ حصل عليه، بل قد يرضى بالفقر والذل والإستعباد، ولكنه يرفض أن يتنازل عن حياته.. يرفض الكثيرون منا الموت لأنه يشكل القتل للحياة، والقضاء على استمراريتها. وإذا قضيَ عليها فات كل شيء في الحياة... فمن هنا نرى بعض الناس من أصحاب الرسالات يتنازلون عن رسالتهم مقابل أن يمنّ الطغاة عليهم بالعيش بضعة أيام ولو في بحار الذل وعرق الخزي... وهناك بعض آخر يتوقّى الكلام في الحق والافصاح عنه ويتنازل عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خوفاً من أذية تلحقه وحفظاً على نفسٍ يريد لها الحياة... إن إنتشار الفساد وشيوع الفواحش واستعباد العباد واستعمار البلاد والعبادَ، بل قتلَ الأنبياء والمرسلين والعلماء والصالحين أهونُ عند بعض الناس من نفسٍ يملكونها؛ إنهم يضحّون من أجلها بكل هذه المقدسات والشخصيات دون أي حرجٍ أو مرارة...

إن الإمام هنا يريد أن يوجّه هذا الإنسان بقطع النظر عن انتمائه، وعائلته، وهويته؛ يريد أن يوجهّه إلى الله، ويربطه ويقوّي علاقته به.. إنه يريد أن يسكب في وعي هذا الإنسان وفي ضميره وفي وجدانه وعمقه مالكية الله المطلق لهذا الإنسان ملكيته التي تستولي على الإحياء كما تستولي على سلب الحياة... فالله وحده الذي يملك حق المات كما يملك حق الحياة... ليس للطغاة.. ولا للجبابرة.. ولا للفراعنة.. ولا لكل الناس مجتمعين.. حقٌ في سلب هذه الحياة كما لم يكن لهم من قبل حق هبتها...

الله تعالى وحده هو الذي بيده الموت والحياة والفناء والاعادة وحده الذي يقول للإنسان متْ فيموت، ويقول إحْيَ فيحيا... بكلمة (كن) أخصر كلمة، يمكن أن يتم بها التعبير عن المشيئة المطلقة، يتم الفناء كما تتم الحياة...

إن الموت والحياة بيد الله وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إنّا نحن نحيي ونميت[1] وإلينا المصير﴾ ﴿وإن إلى ربك المنتهى[2] وانه هو

(١) سورة قٓ، آية: ٤٣.

(٢) سورة النجم، آية: ٤٤.

أضحك وأبكى وانه هو أمات وأحيا﴾، ﴿قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم[1] إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾.

وإن الله تعالى ينقل إلينا الحوار الذي جرى بين إبراهيم وبين فرعون من فراعنة عصره ادعى أنه يستطيع هبة الحياة كما يستطيع أن يقضي عليها، وكيف ردّ عليه إبراهيم الخليل حجته وأفحمه؛ كما ينقل إلينا قصة ذلك الرجل الذي مرّ على القرية الخاوية فتعجّب كيف يحييها الله، فأعطاه الله مثلاً حياً من نفسه ومن حماره؛ قال تعالى ﴿ألم ترَ إلى الذي حاجّ إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال: أنا أحيي وأميت، قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأتِ بها من المغرب فبُهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين﴾...

أو كالذي مرّ على قريةٍ وهي خاوية[2] على عروشها قال: أنّى يُحيي هذه اللهُ بعد موتها، فأماته الله مئة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال: لبثت يوماً أو بعض يوم قال: بل لبثتَ مئةَ عامٍ فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنّهِ، وانظرْ إلى حمارك ولنجعلَكَ آيةً للناس، وانظر إلى العظام كيف ننشزُها ثم نكسوها لحماً فلما تبيّن له قال أعلَمُ أنّ الله على كل شيء قدير﴾.

إن أمير المؤمنين يريد أن يحرر هذا الإنسان من الذل والخنوع والعبودية والإستسلام عن طريق الالقاء في رُوعه ان الحياة والموت بيد الله؛ وإذا كانت هذه بيد الله، وهو الذي يملكها، فلا يجوز لهذا المخلوق أن يخاف أحداً عليها، بل إن عليه أن يعتصم بالله ويلتجيء إليه ويتخذه كهفاً وحِرْزاً، ويعقد القلب على أن الانسان مهما أُعطيَ من قوة وامتلك من حيلة ومكر فإنه لن يستطيع أن يؤثر على غيره إذا أراد الله ان يمنعه عن التأثير والإيذاء! وهذا ما أشار إليه الحديث الوارد عن المعصومين...

---

(١) سورة الجاثية، آية: ٢٦.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٥٨ - ٢٥٩.

- فعن أبي عبدالله (ع) قال: كان علي بن أبي طالب (ع) يقول: ﴿لا يجد عبد طعم الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأنَّ ما أخطأه لم يكن ليُصيبه وأنَّ الضار النافع هو الله عز وجل﴾..

فإن قلتَ: إذا كان الأمر كله يرجع إلى الله... الحياة والموت المعاناة، والإبتلاء، فما معنى رجوعنا إلى غيره كرجوعنا إلى الطبيب عند المرض ورجوعنا إلى التجارة والاكتساب عند ارادة الربح وطلبه ورجوعنا إلى دفع المحاذير التي يمكن أن تلحقنا من جراء بقائنا تحت سقف يَصِرُّ، أو حائطٍ يَخِرُّ أو زلزال يَمُرُّ..!!

قلنا: إن رجوعنا إلى تلك الأسباب رجوع إلى الله باعتبار أنه هو الذي وفرّها للإنسان وأمر باتباعها، وأوصى بالاقتفاء لأثرها؛ إنه تعالى هو الذي طلب منا السعي في مناكب الأرض من أجل الربح وتوفير الحياة السعيدة، وهو الذي أمرنا بالعودة إلى الطبيب عند حصول المرض؛ وهكذا جميع الأسباب التي كانت محققةً لمسبَّباتها؛ ولذا نجد بعض الأحاديث تصرّح أن الله لا يستجيب دعاء ﴿اللهم ارزقني﴾ لمن جلس في بيته واكتفى بالدعاء دون الخروج والسعي في سبيل تحصيله. نعم إنَّ نظرَ المؤمن وإيمانه هو أن هذا السبب وضعه الله تعالى لذاك المسبب، وقدرة الله يمكن أن تتدخل لترفع مفعول هذا السبب وتمنعه من التأثير كما حصل في نار الخليل إبراهيم حيث قال الله لها كوني برداً وسلاماً؛ وكما في معاجز الأنبياء التي خرقت قانون الأسباب والمسببات؛ فإن الله تعالى يملك كل شيء وقادر على كل شيء...

ثم إن الإمام ينبه إلى حال الدنيا وأنها لم تكن لتستقر إلا على ما جعلها الله عليه من النعماء والإبتلاء؛ فإن النِعَم تضع الإنسان وجهاً لوجه أمام فضل الله ورحمته، وعطائه وجوده. إن هذه النعَم تجعل من هذا الإنسان عنصراً صالحاً يبحث عن كل السبل التي تؤدي به إلى شكر هذه النعَم وأدامتها عليه... إنه ينظر إلى نفسه وجسده ويقف أمام كل جارحة من جوارحه وقفة تأمّل وتبصّر، يقف أمام عينه ويبحث فيها بدقة كيف تكشف الأمور وتعكس

الأشياء وهي بعدُ على صغرها تستوعب ما يحيط بها وما يقع تحتها من أمور؛ ينظر إلى تركيبها وشرايينها وإلى عظمة الله فيها؛.. ينظر إلى أذنه، هذا الجهاز اللاقط الذي يسمع به الأصوات على اختلافها ويميز بين الحسن منها والقبيح وبين القوي والضعيف... وينظر إلى يده وينظر إلى رجله بل ينظر إلى أيّ عضو منه فإنه يرى النعمة فيه والفضل في عطائه... إن هذه النعمَ تحتاج إلى الشكر... تحتاج إلى قلب واعٍ ونفسٍ صافية وضمير طاهر... تحتاج إلى لفتة من هذا الإنسان كي يعترف ويُقر بالعجز عن أداء شكرها.

وفي المقابل، يجب أن ينظر إلى أهل الابتلاءات والمصائب، إلى المرضى والزّمنى، وإلى الفقراء والمساكين، وإلى الأيتام والمحتاجين.. ينظر إلى كل كارثة أو حادثة مؤلمة ليأخذ منها درساً عملياً يعيشه مع شخصه ونفسه فيأخذ العبرة منه والعظة وتكون هذه العِبَرُ محطاتٍ يتزوّد فيها التقوى والعمل الصالح وحب الخير والإحسان...

إن هذه الدنيا لم تكن لتستقر وتهدأ وتُبنى وتُعمر إلا بتركيبتها القائمة؛ فلو أن كل الناس في حالةٍ من الرخاء والدعة لدفع هذا الوضع إلى نسيان الآخرة؛ ولو أن الناس كلهم في فقر ومسكنة لأوجب ذلك كفراً وفساداً؛ ولو أن الناس لا يموتون أبداً لتكاثروا إلى درجة تضر بالجميع... ولو أن الناس كلهم في رغبةٍ واحدة ورأي واحد لوقع الاضطراب في الأعمال عسراً ويُسراً في دفة الحياة... ان هذه الدنيا بصيغتها الربانية هي أبدع ما يجب عليه أن تكون... ففيها الخيرون وفيها الأشرار وفيها المعافون وفيها المبتلون وفيها... وفيها... اختلاف في الطبقات والأذواق والمعاش والصحة والمرض وغيرها لعمارة الحياة وبنائها. إن هذه الدنيا محطة أختبار يجري على ثراها، تميّز الصالح من الطالح، وفيها شوط قصير ينجح خلاله الفائزون ويسقط المقصرون. والله سبحانه يُعدّ للمطيعين جنات تجري من تحتها الأنهار عند مليكٍ مقتدر، يجدون فيها نتيجة أتعابهم وجهادهم وما قدّموه من الخيرات والأعمال الصالحة. إن النتيجة لا تظهر إلا في ذلك اليوم الذي تجري فيه تصفية

الحسابات، إنه يوم القيامة... وقد يعجل الله لبعض عباده أجراً أو عقاباً كي يرده إلى الطريق السليم فيكون ذلك لصالحه. إنه يذيقه حلاوة الطاعة كي يزداد منها، كما أنه قد يذيقه مرارة العذاب كي يرده إلى العدل والإستقامة... إنه الله تعالى الذي خلق الدنيا ويعلم مايصلحها مما يفسدها.

ثم ان الإمام يلفت النظر إلى أنه إذا أشكل علينا شيء ولم نفهم وجه الحكمة فيه، ولم ندرك أسراره وأبعاده، فعلينا أن لا ننكره ونجحدَ تشريعه ونرفضَ قبوله... وكان الإمام ينظر إلى نماذج عاشت معه ومرت في هذا الطريق، كما نرى نحن اليوم الجهلة وأنصاف المتعلمين كيف يرفضون بعض الأحكام لمجرد أنها لا تعجب أذواقهم ولا تتوافق مع رغباتهم... إننا نرى ونبصر وتمر علينا الدمى المتحركة التي تقوم في كل مكان ومحل، وفي كل شارع وزاوية تارةً تعترض على هذا الحكم... وأخرى ترفض ذلك الحكم... وثالثة تشكك في أحقية هذه القضية وهكذا دواليك.. وياليتها تمتلك الرصيد العلمي الذي يُبيح لها جواز الكلام والحديث في هذا المضمار... ليتها تمتلك مقومات إبداء النظر وحق النقض والإبرام... إنها عزلاء من كل أسلحة العلم والمعرفة لا تمتلك إلا كلمة (لا...) رفضاً لكل ما لا يعجبها؛ وقد تكون في بعض الأحيان مدفوعة بحب الظهور والمخالفة من باب (خالف تعرف...) إن هذه الطبقة من الناس، وان لم يكن لها الحق في الرفض والنقض ولكنها للطلاء الذي موّهت نفسها فيه، وهو طلاء الثقافة العصرية، قد غرّت الكثير من الناس بآرائها، وصوّرت لهم أنها بما حصلت عليه من شهادات مزوّرة، وثقافة فارغة، تمتلك حق ابداء وجهات النظر...

وأما الطبقة الواعية الجديرة بحق النقض وإبداء الرأي، هذه الطبقة تحترم نفسها وعقلها ولا تُقدم على رفض رأي إلا بعد أن تقيم الأدلّة الناطقة على رفضه.، إنها تبقى في حالة توقف دون رأي حتى يتضح الأمر كنور الشمس، وحتى يسطع الدليل والبرهان كفلق الصبح.. إنها تحترم عقلها ورأيها، فلذا تتوقف عن إصدار الأحكام حتى تتيقن منها.. إن الطريقة العلمية التي تسد

جميع الإحتمالات في المسألة المعروضة وتبرهن على صحة رأيك من خلال الدليل عليه هي الطريقة التي يسلكها العلماء والمحققون فإذا لم يسدوا جميع المنافذ المحتملة التي تخالف رأيهم لا يستطيعون إبداء رأيهم ووجهة نظرهم...

إن الإمام في حديثه هنا يريد أن يقرر حقيقة عقلانية؛ فيقول (إذا اشكل عليك شيء من ذلك) ولم تقدر أن تصل إلى حقيقته بعقلك وبصيرتك فلا تجحده ولا تنكره ولا تردّه لأنك أول ما خلقت جاهلاً، خلقت طفلاً لا تمتلك ذرة من العلم والثقافة؛ ثم بالتدريج تعلّمت... إنك كنت جاهلاً لا تمتلك أي شيء من العلم، ثم تدرّجت في المعرفة حتى صرت تعرف بعض الأمور؛ ولكن ما أكثر ما تجهل!! فإن أشكل عليك شيء من ذلك فاحمله على جهالتك فإنك أول ما خلقت جاهلاً ثم ما أكثر ما تجهل من المعلومات... إنك لم تُحِطْ بجميع العلوم والفنون ومختلف الفروع والشؤون... إن كنت تمتلك ناحية علم الطب فأنت في غيره قد تكون جاهلاً، وان كنت مختصاً في الهندسة فقد تكون في الفيزياء أمياً جاهلاً. وهكذا دواليك، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿والله خلقكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً﴾ ويخاطب الله رسوله قائلاً ﴿وقل ربي زدني علما﴾ ويقول تعالى ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾. ويقول الشاعر:

فقل لمن يدّعي في العلم فلسفةً ... حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء

«وَاعْلَمْ يا بُنَيّ أنّ أحداً لم يُنْبِىءْ عن الله سبحانه كما أنبأ عنه الرسولُ صلى الله عليه وآله، فَارْضَ به رائداً، وإلى النجاة قائداً، فإني لم آلُكَ نصحةً. وإنك لن تبلغَ في النظر لنفسك- وإن اجْتهدتَ- مَبْلَغَ نظري لك».

اللغة:

الرائد: أصله الرجل يتقدم القوم فيرتاد بهم المرعى والرسول رائد سعادتنا.

لم آلك نصحاً: لم أقصِّر في نصحك وأصله لا آلو لك نصحاً.

.... • ....

سبقت الهدايةُ البشرية. ومن اليوم الأول الذي خطت قدم الإنسان على هذه الأرض كانت النبوّة معه تتقدم ركب الحياة هادية لئلا يكون للناس على الله حجة. والنبوة تعني السفارة بين الله وبين الإنسان تتلقى الأحكام وتأخذ الوصايا والتشريعات ثم تبلّغها أهلها. وقد تعددت النبوات وتكثرت حسب الظروف والأحوال التي مرت بها البشرية، وقد كان خمسة من بين ذلك الرعيل يمثلون قمة النبوة سمّوا أولو العزم، باعتبار أن دعوتهم عامة وشاملة لم تقتصر على شعب ولا وطن. وكانت كل رسالة لاحقة تنسخ الرسالة السابقة حتى وصل الأمر إلى رسالة الإسلام التي جاء بها رسول الله محمد عن الله؛ فكانت الرسالة الخاتمة والمهيمنة على جميع الرسالات، كانت هذه الرسالة هي الرسالة العالمية التي لم ولن تُنسخ بغيرها من الأديان والرسالات... إنها رسالة اخترقت الزمان والمكان وتجاوزت الأجناس والألوان وبنت قواعدها على أسس متينة قوية لا مجال فيها لعنصرية أو طائفية أو امتيازات عشوائية...

الإسلام رسالة الدنيا والآخرة، نظرت إلى الإنسان فوضعت له ما يسعده ويحييه ويأخذ بيده نحو التكامل والسمو...

إذا جئتَ إلى العبادة رأيتَ الاتصال بالله يتمثل في عالم الصلاة والزكاة والحج وغيرها مما يقرّب منه ويوثق العلاقة والاتصال. إنك تجد هذا المخلوق الضعيف الصغير يتصل بالله القوي الكبير، تجد المناجاة ينطلق بها لسان المؤمن ليعبّر عن قلبه وضميره بأعظم صور الإتصال واللقاء، إنه لقاء متى أحببته تحقق ومتى اردته صار.. ليس بينك وبينه كهنة ولا قساوسة ولا وسائط بل إنك تستطيع أن تطرق أبواب رحمته وتخلو معه في كل آن.. إنك تستطيع أن تدعوه فيستجيب لك وتشكره فيزيدك... إنك تجد في كل واحدة من العبادات ما يسمو لك ويأخذ بروحك صفاءً وطهراً ونزاهة.. فعندما تقف في صلاتك لتقول في كل فريضة - إياك نعبد وإياك نستعين - معناه أنك تتمرد على كل طاغية أو فرعون يريد أن يعلو على الإنسان ويدّعي الربوبية أو الحكم بغير ما أنزل الله. إن وقفتك أمام الله ومناجاته بهذه الصيغة العظيمة ذات المدلول العميق تريد أن تقول لكل الجبابرة والمستبدين إننا براء منكم ومن أعمالكم ومن كل مخالفاتكم التي تعصون الله بها.. إنها وقفة عز بل وقفات عز إذا اعتادها المسلم يرفض أن يقف غيرها من مواقف الذل والاستهانة...

وإذا جئتَ إلى الصوم فهو رياضة روحية وبدنية تتجلى في ترك ملذات الحياة وشهواتها من أجل الله وفي سبيله وفي ذلك تغلّب على الذات وترفّع عن كل ما يشد هذا الإنسان نحو المأكل والمشرب الذي يتقاتل عليه الناس وتجري بينهم الحروب من أجله...

واما الحج فالقِ النظر نحوه واعتبر بكل فعل تقوم به وخذ درساً فذاً لن تهتدي إليه في غيره.. ابتداءً من التلبية التي تقول فيها: ﴿لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك...) ردّدْ هذه الأنشودة وعش معها بعض الوقت وتخيّل بل تحقق أن هناك نداءً من رب العزة يدعوك إليه وأنت الآن تستجيب له وتقول لبيك...

وإذا أردت أن تطوف بالبيت فتمثل الفضيلة وتمثل طوافك حولها، وإذا رجمت الشيطان فتمثل الرذيلة وتمثل رجمك لها... هذه دروس عملية لإحياء

الفضيلة والقضاء على الرذيلة يتخذها المسلم في حياته كي يطبقها في الحج وغيره من جميع شؤون الحياة... وهكذا غير هذه الأمور من العبادات...

وأما المعاملات فللإسلام قصبة السبق فيها. إرم ببصرك نحو المتاجر فتجد المعاملة الصحيحة من الفاسدة... اقرأ شروط الصحة وموانعها... إبتداءً من العقد المتضمن لصيغته وكيف يجب أن تكون إلى شروط المتعاقدين وما يجب أن يكونا عليه، إلى العوضين أنفسهما وما يجب أن يتوفر فيهما...

أنظر إلى المساقاة والمزارعة والمضاربة والشركة والهبة والهدية والصلح وغيرها من الأبواب التي تقف أمامها مشدوهاً مأخوذاً بروعة الإسلام وعظمة تعاليمه...

وإذا جئتَ إلى الحدود والديات والقصاص والميراث والنكاح تجد التكامل الرائع الذي يتمثل في الإسلام عقيدة ونظاماً حكماً وادارة...

إن الإسلام هو الأطروحة الإلهية الخاتمة التي تكاملت من جميع جوانبها فجاءت علاجاً واقياً لهذا الإنسان من كل ضلال وإنحراف... هذه الأطروحة الكاملة لم تستطع أن تبلغها رسالة موسى أو رسالة عيسى أو غيرهما من رسالات الأنبياء... إن محمداً قد حمل هذه الرسالة واستوعبها قلبه الكبير واستطاع أن يبلغها للناس؛ فهو قد بلّغ عن الله ما لم يبلّغه غيره من الأنبياء... ففي حين نجد النبوات المتقدمة جاءت علاجاً لفترة معينة نجد الإسلام هو العلاج الدائم لكل الأزمنة والأمكنة والناس وما ذلك إلا لعظمة تشريعاته وعلوها فإنها الغذاء الذي لا يستغني عنه إنسان اليوم كما لا يستغني عنه إنسان الغد....

وإذا كان النبي هو الذي أدّى عن الله ما لم يؤدّه رسول قبله فأحرى بهذا الإنسان أن يرضى به رائداً يقوده إلى الخير ويرشده إلى النجاة. وكيف لا يكون النبي كذلك وقد تحققت على يديه أعظم المعجزات؛ إنه صنع من أولئك الأعراب الذين كانوا يتيهون في الصحراء، يعيشون على السلب والنهب، يعبدون الأصنام ويتمسّحون بها ويقرّبون لها القرابين... صنع من الجُفاة الحفاة أمةً من أرقى الأمم؛ صنعهم قادة الدنيا وروّاد الحياة.، تقرأ في كل واحد

منهم معلماً ورائداً... تقرأه زاهداً عابداً وفارساً بطلاً.. تقرأه باكياً من خشية الله، مستهزئاً بأعظم ملوك الدنيا وسلاطينها... كبُر الله في أنفسهم فصغُر ما دونه في أعينهم.. إنهم اقتدوا بالنبي فكان أن تطوعت الدنيا لخدمتهم فاقتلعوا قصور كسرى كما هدموا مجد قيصر، وحملوا الإسلام رسالة لهم في الحياة يريدون أن يخرجوا بها العباد من ذل العبادة لغيره إلى عز الطاعة له فكانت المعجزة التي استطاع النبي أن يحققها حيث بسط الإسلام ذراعيه في أقل فترة زمنية على شرق الأرض وغربها.،. عندما سار المسلمون خلف النبي وارتضوه قائداً ورائداً... وأما عندما رفضنا قيادته وانكرنا الإسلام مصدراً للحكم والتشريع، ونبذنا القرآن خلف ظهورنا، بل عندما حاربناه في الإسلام والإيمان، وأخذتْ بنا الطريق ذات اليمين تارة وذات اليسار أخرى، كانت النتيجة التي نحن فيها؛ الذل.. العار... الاستعباد... الإمتهان... الإحتقار... أصبحنا ريشةً في مهب الرياح كيف اتجهت اتجهنا معها دون استقلالية في رأي أو عزٍّ في موقف أو بطولةٍ في حلبة... لقد تلاعبت بنا الدول فأضحينا نعيش على فتات موائد الدول الكبرى؛ هي التي تنصّب الطغاة علينا، وهي التي تحرمنا حقوقنا بل أبسط حقوقنا وأيسرها.. لم يعد لنا من رأي يسمع أو كلمة يؤخذ بها.. حتى وصل الأمر أن اجتمع شذّاذ الآفاق من اقطار الدنيا والتقى الشتات اليهودي من أطراف المعمورة من أوروبا وامريكا وافريقيا وآسيا وكل زاوية في العالم، التقى اليهود الذين لم يجتمعوا في زمن ولم يتوحدوا في مكان، اجتمعوا... وكوّنوا دولة في قلب العالم الإسلامي. وها هي اليوم تتوسع وتتوسع وستبقى في توسعها ان لم يرجع المسلمون إلى دينهم وأصالتهم الإسلامية... إن هؤلاء اليهود لم يستقروا في بلاد الإسلام إلا أهل ذمة... فقد قضى الإسلام على شرورهم ومكايدهم وحيلهم.. نعم الإسلام.. وليس العرب.. الإيمان بالله وبرسوله وكتابه والعمل بضمون هذه الرسالة.. وليس باليمين ولا باليسار ولا بالمبادىء المستوردة... إذا أردنا أن نتحرر ونحرر بلادنا فليس أمامنا من خيار غير الإسلام فكما تحررنا سابقاً نتحرر الآن

وكما قضينا على مكر اليهود وغدرهم نقضي عليهم الآن... نعم إذا حفظنا وصية الإمام في قوله: واعلم يا بني أن أحداً لم ينبىء عن الله سبحانه كما أنبأنا عنه الرسول. صلى الله عليه وآله، فارضَ به رائداً وإلى النجاة قائداً...

فمن اتخذ الرسول قدوةً له في حياته يترسم خطاه ويقتدي بهداه، وحوّل الإسلام إلى لحم ودم يتحرك في إهاب إنسان؛ إذا استطاع هذا الإنسان أن يتغلب على نفسه وهواه ويشق الطريق قدماً نحو القمة السامقة التي تمثلت بالإسلام فلا شك في أنه سيفلح وينجح ويحقق المعجزات...

ثم ان الإمام (ع) يلقي في الفقرة الأخيرة في روع ولده نصيحةً عظيمة لقبول قوله وهي أنه لم يقصر في النصيحة له، وهل مثل أمير المؤمنين يشك في اخلاصه ومعرفته وفي تجربته وخبرته، وهو الذي إن قال فَصَلَ وان حكم عدل.. لم يعثر له الدهر على زلة ولم يكْبُ في موطن؛ وكيف يعثر أو يكبو وهو تلميذ النبوة الفذ الذي رافق مسيرتها الطاهرة من طفولته ونعومة أظفاره وتلقى تعاليم هذه الشريعة بنداً بنداً ودستوراً دستوراً.. حتى قال النبي فيه: ﴿أنا مدينة العلم وعلي بابها﴾. وقال ﷺ ﴿أقضاكم علي﴾ وقال هو عن نفسه: ﴿علّمني رسول الله ألف باب من العلم ينفتح لي من كل باب ألف باب..﴾ فعلي الذي شرب الإسلام مع حليبه لا ولن يقع في خطأ مع ما وفّقه الله إليه من العصمة والسداد في الرأي والصواب في القول والعمل... ومن كان بهذه المرتبة العالية التي بلغت الرقم القياسي إذا نظر في أمرٍ لا بدّ من أن يعود منه بالوجه الصحيح والسليم، ولن يكون لغيره ممن ينظرون لأنفسهم عمق نظرته وسعتها لأن نظره لهم كان عن خبرة ودراية ودخول إلى بواطن الأمور وحقائقها... فربّ ناظرٍ لنفسه بعين الشهوة والرغبة، وربّ ناظر آخر ينظر بعين المنفعة والربح المؤقت ناسياً خلفيات وسلبيات هذا الإختيار. وكم يكون الفرق شاسعاً بين إنسانٍ اختبر الحياة ووقف على مجاري الأمور ومداخلها ومالها وما عليها. وبين آخر نظر إليها نظرةً سطحية من الخارج!! فلا شك في أن نظر الأول أشد صواباً وأقرب إلى الحق من إنسان يعيش على هامش

الأمور وظواهرها. فالإمام يريد أن يقول لنا أن توجيهاته ونصائحه وتعلياته وإرشاداته أقوى وأعظم وأشد صواباً من نصائحنا وإرشاداتنا لأنفسنا... وإننا مهما بالغنا في البحث والاستقصاء فلن نبلغ مبلغ بحثه واستقصائه...

«وَاعلَمْ يا بُنَيَّ أنه لو كان لربك شريكٌ لأَتَتْكَ رسلُه ولرأيتَ آثارَ مُلْكِهِ وسلطانه، ولعرفتَ أفعالَه وصفاتِه، ولكنه إلَهٌ واحِدٌ كما وصَفَ نفسَه، لا يُضادُّه في مُلْكه أحدٌ ولا يزول أبداً ولم يَزَلْ. أوّلٌ قبل الأشياء بلا أَوَّلِيَّة وآخِرُ بعد الأشياء بلا نهاية. عَظُمَ عن أنْ تثبُت ربوبيتُه بإحاطةِ قلبٍ أو بَصَرٍ»...

الإسلام ليس معناه أن تؤمن بالله فحسب، وإنما جوهر هذا الإيمان وحدانية الله وتنزيهه عن الشريك فإن لا إله إلا الله نفيٌ لكل إله في الكون ما عدا الله... والإيمان بالله الواحد الأحد قامت البراهين عليه نذكر منها:

الأول: أنهما لو كانا إثنين وأراد أحدهما تحريك جسم مثلاً وأراد الآخرة أن يسكن فان وقع المرادان اجتمع النقيضان، وإن لم يقع شيء منهما ارتفع النقيضان، وان وقع أحدهما دون الآخر لزم الترجيح من غير مرجح والكل محال.

الثاني: إننا نرى وحدة النظام والتوافق التام بين جميع أجزائه من صغيرها إلى كبيرها، من قمرها وشمسها وبحارها وأنهارها إلى كل ذرّة في الكون. وهذا النظام والنسق والترتيب لم يحصل ولن يحصل لو كان هناك إلّهان، بل يؤدّي وجودهما إلى فساد السماوات والأرض إذ كل واحد يستقل برأيه وينفرد بصنعه، وهذا يؤدّي إلى الفساد والضلال؛ فمن وحدة النظام وتناسقه نستدل على وحدة الصانع وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله: ﴿لو كان فيهما آلهة إلاّ الله لفسدتا﴾... وقد قال الامام الصادق عندما سأله هشام بن الحكم: ما الدليل على أن الله واحد؟ فقال: اتصال التدبير وتمام الصنع كما قال عز وجل: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾.

الثالث: إجماع الأنبياء فانه لم يأتِ نبي من الانبياء يدّعي أنه من عند غير الله

الواحد الأحد وهذا ما أشار اليه الامام في حديثه هنا بقوله: (لو كان لربك شريك لأتتك رسله).

الرابع: لو كان لله شريك لزم التركيب في ذات الله وانتفى وجوب وجوده بل أضحى ممكناً وهذا غير الله الذي نعتقد بوجوب وجوده، وذلك أنهما يشتركان في كونهما واجبيْ الوجود كما يشترك الانسان مع غيره في الحيوانية؛ فلا بد من مائز يميز بين المشتركيْن كما يميز الصاهلُ الفرسَ عن الانسان وإلاّ لما حصلت الإثنينية. ومتى ثبت المائز حصل التركيب لإشتراكهما في جنس وافتراقهما في فصل، والمركب من الجنس والفصل ممكن فيكون الواجب ممكناً وهذا خلْف..

وهناك أدلة عقلية كثيرة على نفي الشريك. وأما القرآن الكريم فهو مشحون بالأدلّة الصارخة على وحدانية الله وأنه لا شريك له. قال تعالى: ﴿قل هو الله احد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد﴾ قال تعالى: ﴿إنما إلهكم آله واحد..﴾. وقال تعالى: ﴿وقضى ربك ألاّ تعبدوا إلا إياه﴾. وقال الله تعالى: ﴿لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً﴾. فالله سبحانه واحد في ذاته واحد في صفاته لا يشبهه شيء من خلقه وقد نطق القرآن بكفر من اتخذ التثليث عقيدةً له، قال تعالى: ﴿لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة..﴾..

ومن هذا البيان العقلي والقرآني يتوجه الحديث نحو النصارى الذين يقولون بالأقانيم الثلاثة: (الآب والابن وروح القدس)، ويقولون إن الثلاثة يصبحون واحداً والواحد ثلاثة.. إنه المسخ للعقول والقلوب والضرب عليها بالعمى والضلال. كيف يصبح الثلاثة واحداً والواحد ثلاثة.؟ وما دور كل واحد منهم في تدبير العالم؟ إنها سخافات وثنية دخلت النصرانية وأين هذه العقيدة الضالة من الفطرة الانسانية التي تصرخ بوحدانية الله الذاتية والصفتيـة! وما هذا التهافت البيِّن بين الثلاثة والواحد؟ وكيف تقبلها عقول العقلاء منهم؟ بل كيف يسكتون على هذا الإسفاف والهبوط إلى الحضيض في

الرؤى والفكر .. حاشاك يا رب أن يكون لك شريك وأنت القوي المطلق. ثم إنه لو كان لله شريك لكان له صفات خاصة يمتاز بها عن غيره، ثم رأيت آثار ملكه وسلطانه؛ ولكن بما أنّ كل تلك الأفعال والصفات والآثار لم تظهر فإننا نستدل من عدمها على عدم وجوده ومن فقدانها فقدانه.

ثم إن الامام وصف الله تعالى بقوله: (ولكنه إله واحد كما وصف نفسه) وليس مقصوده بالواحد المقابل للاثنين العددي اذ لا يمكن فرض الثاني حتى يقاس الواحد به بل هو واحد واجب الوجود وهذا هو الذي يفسره الحديث الوارد عن كتاب التوحيد كما يروي الشيخ الصدوق حيث يقول: إن إعرابياً قام يوم الجمل إلى أمير المؤمنين فقال: يا أمير المؤمنين أتقول إنْ الله واحد؟! قال: فحمل الناس عليه، وقالوا: يا أعرابي أما ترى ما فيه أمير المؤمنين من تقسّم القلب؟.

فقال أمير المؤمنين (ع): دعوه فإن الذي يريده الاعرابي هو الذي نريده من القوم. ثم قال: إن القول في أن الله واحد على أربعة أقسام؛ منها وجهان لا يجوزان على الله عز وجل ووجهان يثبتان فيه، فأما اللذان لا يجوزان عليه فقول القائل: واحد يقصد به باب الاعداد فهذا ما لا يجوز لأن ما لا ثاني له لا يدخل في باب الاعداد، أما ترى أنه كفر من قال: انه ثالث ثلاثة. وقول القائل هو واحد من الناس يريد به النوع من الجنس فهذا ما لا يجوز لأنه تشبيه وجلّ ربنا وتعالى عن ذلك.

وأما الوجهان اللذان يثبتان فيه فقول القائل: هو واحد ليس له في الأشياء شبه كذلك ربنا، وقول القائل: انه عز وجل أحديُّ المعنى، يعني به انه لا ينقسم في وجود ولا عقل ولا وهم كذلك ربنا عز وجل.

والله سبحانه الذي هو واجب الوجود ومبدع الوجود لا يمكن لأحد أن يضادَّه في ملكه؛ فبيده عالم التكوين وعالم التشريع، بيده خلقُ الكائنات بكلمة (كن) يكون كل شيء؛ كما ان الأمر والنهي بيده فهو الذي أرسل

الأنبياء وانزل الكتب وليس لأحد من خلقه أن يتصرف تكويناً أو تشريعاً إلا باذنه وأمره.

كما أنه سبحانه وتعالى: (لا يزول أبداً ولم يزل أول قبل الأشياء بلا أولية وآخر بعد الأشياء بلا نهاية)، ومعنى أنه لا يزول أبداً ولم يزل هو عين ما عبّر عنه المتكلمون عند حديثهم عن صفاته تعالى حيث يقولون: انه قديم أزلي بمعنى انه لا أول لوجوده، باقٍ أبدي بمعنى أنه لا آخر لوجوده وذلك لأنه واجب الوجود لذاته فيستحيل عليه تطرّق العدم السابق واللاحق وإلا لما كان واجباً.

وقول الإمام: (أول قبل الأشياء بلا أولية وآخر بعد الأشياء بلا نهاية) بمثابة التفسير لقوله تعالى: ﴿هو الأول والآخر.. وهو بكل شيء عليم﴾، يعني ليس قبله شيء ولا بعده شيء.

ثم ان الامام يصف الله بما هو حقه حيث يقول: (عظم عن أن تثبت ربوبيته بإحاطة قلب أو بصر)، وهذا ما أشار اليه القرآن الكريم حيث يقول: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾ ويقول أمير المؤمنين في فقراته التوحيدية عندما يسأله ذعلب اليماني قائلاً له: هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين، فقال أمير المؤمنين: أفأعبد ما لا أرى؟ فقال: وكيف تراه؟ فقال: لا تدركه العيون بمشاهدة العيان ولكنه تدركه القلوب بحقائق الإيمان، قريب من الأشياء غير مُلابس، بعيد عنها غير مُباين، متكلم لا بروِّيه، مُريدٌ لا بهمّة، صانع لا بجارحة... ويقول في موضع آخر من نهجه:

الأول لا شيء قبله، والآخر لا غاية له، لا تقع الأوهام له على صفة ولا تعقد القلوب منه على كيفية، ولا تناله التجزئة والتبعيض ولا تحيط به الأبصار والقلوب...

ويقول في موضع آخر: لا يدرك بوهم ولا يقدّر بفهم لا يشغله سائل، ولا يُنقصه نائل، ولا ينظر بعين ولا يُحَدُّ بأين، ولا يدرك بالحواس ولا يقاس بالناس..

ويقول عليه السلام أيضاً: أول الدين معرفته- معرفة الله- وكمال معرفته التصديق به وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الاخلاص له وكمال الاخلاص له نفي الصفات عنه، لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف انه غير الصفة، فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، ومن قرنه، فقد ثنّاه، ومن ثنّاه فقد جزأه، ومن جزأه فقد جهله، ومن جهله فقد أشار إليه، ومن أشار اليه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه، ومن قال: فيمَ فقد ضمّنه، ومن قال: علامَ؟ فقد أخلى منه، كائن لا عن حدث، موجود لا عن عدم، مع كل شيء لا بمقارنة وغير كل شيء لا بمزايلة فاعل لا بمعنى الحركات والآلة بصير إذ لا منظور اليه من خلقه...

ومضافاً إلى ذلك فان المرئي محدود ويكون جسماً والجسم محتاج. والله سبحانه غني غير مركب ولا محتاج إلى أجزائه كما انه ليس محتاجاً لغيره.

والله سبحانه بنفسه ينفي رؤية الناس له حيث نفاها عن أقرب المقربين إليه وهم الأنبياء؛ ففي جواب موسى حيث طلب الرؤية بقوله: (رب أرني أنظر اليك) فقال تعالى: ﴿لن تراني﴾...

فربوبية الله وهيمنته على الوجود وإثبات صفاته من علم وقدرة وحياة ووحدانية وغيرها من صفات الكمال أو صفات الجلال كلها تثبت بالفطرة، وبدليل العقل والوجدان وبسائر الأدلّة الأخرى التي يقر الانسان ويعترف من خلالها بأن الله وحده الصانع المكوّن؛ وأما أن ترى الله كما ترى غيره من الأشياء والأمور المحسوسة فهذا يتناقض وعقيدتنا الإلهية في الإسلام. ومن هنا يبطل ادّعاء من يقول أن المسيح هو الله... وكيف يكون العاجز رباً وكيف يكون المخلوق رباً؟.. وكيف يكون المحتاج رباً؟.. وكيف يموت هذا الإله وكيف يطرأ عليه الصلب بزعمهم؟ إن رباً لا يدفع الصلب والقتل عن نفسه هذا- ليس رباً يستحق العبادة أو التوجه نحوه. إن ربنا تعالى جل ذكره هو الواحد الأحد الذي لا شريك له ولا ندّ، ولا والد له ولا ولد ولا صاحبة؛ وهو الغني المطلق والحي المطلق والقوي المطلق والعليم... وبعبارة جامعة هو الواجب الوجود الغني عن كل موجود...

« فإذا عرفتَ ذلك فأفعل كما ينبغي لمثلك أن يفعله في صِغر خَطَره، وقلّة مقدرته وكثرة عجزه، وعظيم حاجته إلى ربه في طلب طاعته والرهبة والخشيةِ من عقوبته والشَفَقة من سُخْطه، فإنه لم يأمُرك إلاّ بحَسَنٍ. ولم يَنْهَكَ إلاّ عن قبيحٍ ».

اللغة:

خطره: قدْرُه.

من طبيعة الانسان أنه إذا رأى نفسه في معرض الضرر أو الخطر حاول قدر استطاعته أن يدفع هذا الخطر والضرر، وخصوصاً إذا كان هذا الضرر والخطر صادراً عن شخص ذي شأنٍ كبير يستطيع أن يبطش وبيده القوة والمنعة. فإن المُواطن الاعتيادي يخاف الدولة ويحسب لها حسابها ويحاول في كل قضية أن يجد مبرراً قانونياً له إذا تصرف في أمرٍ أو أقدم على فعل. ويتصور ان مخالفته ستؤدي به الى العقاب من سجن أو تغريم أو قتل على حسب اختلاف الجرم الذي يرتكبه هذا ما نراه أمامنا ونعيشه في واقعنا ومع أنفسنا.

ولكن كيف نتعامل مع الله؟.! الله سبحانه وتعالى يملك كل شيء وبيده كل شيء، وقادر على كل شيء، وعالم بكل شيء، ولا يُعجزه شيء، يرفع من يشاء، ويخفض من يشاء، يُعز من يشاء ويذل من يشاء، يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، والإنسان، هذا المخلوق، الضعيف... الفقير، المسكين.. الجاهل، العاجز، لا يملك لنفسه حياة ولا موتاً.. ولا بعثاً ولا نشوراً، لا يملك أن يدفع عنها ضراً أو يجلب لها نفعاً.. فتراه قوياً يهدّ ويرعد ويقتل ويفتك، وإذا به لألم بسيط في جسده أو وجع قليل في بدنه، يرتمي أرضاً يصيح ويستغيث ويستنجد ويستصرخ.. مسكين ابن آدم تقتله الشرقة وتؤله البقة وتُنْتِنُه العَرْقة كما يقول أمير المؤمنين، وهذا الانسان لا يقاس بالله... فلا قوة له ولا حول

أمام قوة الله وحوله ولا يملك شيئاً اتجاه ملك الله وسلطانه، ولا وجود له الا بمقدار ما يسمح الله له بالوجود؛ ولا حياة له الا بما يسمح الله له من الحياة، ولا غنى إلا بما أغناه الله ولا عطاء إلا بما أعطاه الله، ولا شيء له إلا بما أذن به الله، إذا عرف الإنسان قدره وعرف منزلته ومستواه وعرف في المقابل ربه، وما هو فيه، وما يتمتع به من صفات، حق لهذا الانسان أن يتعامل معه بما هو أهله وبما هو حق له أن يُعامل. هذا المخلوق ذو الصفات الخالصة التي لم يوفّرها لنفسه ولم يحصل عليها بجهده كيف يتعامل مع ربه وخالقه؟ هل يتعامل معه معاملة الجاحد لربوبيته، المنكِر لفضله واحسانه، الذي يرفض الاعتراف به والايمان بوجوده، أم أنه يؤمن به ويصدق حُكمه ويعمل بأمره ونهيه. إن العاقل، بل العقلاء جميعاً يقفون أمام هذه القضية عند رأي واحد... الإيمان به والتصديق بوجوده والعمل بمقتضى أمره ونهيه. العقلاء يقفون أمام الله وقفة الصغير المطلق مقابل الكبير المطلق؛ وقفة المحتاج أمام الغني المطلق، وقفة الضعيف أمام القوي المطلق؛ وإن كل وقفة تقفها أمام ربك وبمقدار تصاغرك أمامه تزداد عزاً ورفعة أمام غيره من الطواغيت والفراعنة وأنصاف الآلهة...

الإنسان العاقل اذا عرف ربه وعرف صفاته، صفات ذاته أو صفات أفعاله، يجب أن يتعامل مع هذه المعرفة على حقيقتها وواقعها. إذا عرف ان الله قوي وهو ضعيف؛ يجب ان يتعامل على أساس هذه المعرفة، فلا يطغى في قوته ولا يتجاوز على الآخرين من منطلق قدرته وقوته. وإذا عرف ان الله هو الغني وان نفسه فقيرة يجب أن يتعامل مع غنى الله وفقر نفسه على حقيقته؛ يعترف ان الله هو الغني وبيده العطاء، وأن ما بيد هذا الانسان كلّه من الله ومن فيض عطائه؛ فلا يبخل بما أمر الله به من العطاء لعباده ولا يشحّ عليهم بما في يديه لأن ذلك من الله وهو قادر أن يسلبه في لحظة واحدة من لحظاته؛ يجب على الانسان أن يتعامل مع الله في اطاعته وامتثال أوامره وان لا يتراخى او يتهاون في هذا الأمر؛ فإن الله إذا أمر بفعل أو نهى عن آخر فانه لا يأمر إلا بحسن ولا ينهي إلا عن قبيح. ومن كانت أوامره ونواهيه بهذه الصفات حق

أن يُطاع في أمره أو نهيه؛ لأنه ومهما وصلت عقول الناس إلى بعض الأمور فلن تصل إلى درجة المواجهة بين رأي الله ورأي عبد ضعيف من عباده. وما قيمة رأي يخرج عن إنسان ممكن يعرض عليه الخطأ والنسيان في مقابل رأي الله الخالق المبدع الواجب الوجود الذي كله خير وكله علم وحلم وكله صفات كمال وجمال...

« يا بُنَيَّ إنّي قد أنبأْتُك عن الدنيا وحالِها وزوالها، وانتقالها، وأنبأتكَ عن الآخِرةِ وما أُعِدَّ لأهلِها فيها، وضربت لك فيها الأمثال لتعتبر بها وتحذُوَ عليها. إنّما مَثَلُ مَنْ خَبَر الدنيا كمثلِ قومٍ سَفْرٍ نبا بهم منزلٌ جديبٌ فأمُّوا منزلاً خصيباً وجناباً مَريعاً، فاحتملوا وعثاءَ الطريق وفراقَ الصديق وخشونة السَفَرِ وجُشُوبَةَ المطعمِ ليأتوا سَعَةَ دارِهِم ومنزِلَ قرارِهم، فليس يجدون لشيءٍ من ذلك ألماً، ولا يَرَوْنَ نَفَقَةً مغرَماً، ولا شيءَ أحبُّ إليهم ممّا قرّبهم من منزِلِهم وأدناهم من مَحَلَّتِهِمْ. وَمَثَلُ من اغتَرَّ بها كمثَلِ قومٍ كانوا بمنزلٍ خصيبٍ فنبا بهم إلى منزل جديبٍ فَلَيْس شيءٌ أكرهَ إليهم وَلا أفظعَ عندهم مِنْ مُفارَقَةِ ما كانوا فيه إلى يَهْجُمون عليه ويصيرونَ إليه ».

اللغة:

حذا عليه يحذو: اقتدى به.
قوم سفْر: بالتسكين أي مسافرون.
نبا المنزل بأهله: لم يوافقهم المقام فيه.
أمّوا: قصدوا.
المنزل الجديب: ضد المنزل الخصيب، المُقحط، لا خير فيه.
الجناب: الناحية
المريع: ذوا الكلأ والعشب.
وعثاء الطريق: مشقته.
الجشوبة: الغلظ.

الحديث عن الدنيا ذو شجون لا يكاد المرء يسد باباً إلا انفتحت له أبواب، ولا يكاد ينتهي من الكلام عن جهة إلا وتجدّد له الحديث عن جهات وجهات. ونحن هنا سنستعرض بعض ما ورد في ذمّها، كما سنستعرض بعض ما ورد فيها من المدح ولنخلُصَ في النتيجة إلى عملية الجمع بينهما وتحديد وجهة النظر الإسلامية التي يريدها الله ويطلبها منا..

ذم الدنيا:

ذم الله الدنيا ذماً شديداً ونفّر منها تنفيراً قوياً وحذّر منها أولياءه وضرب لهم الأمثال حتى لا تستعبدهم فتستذلّهم...

- قال تعالى:

﴿زُيّن للناس حب الشهوات[1] من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا﴾.

- قال تعالى:

﴿إنما الحياة الدنيا لعب[2] ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد﴾.

- قال تعالى:

﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها[3] نوفّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون، أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون﴾.

- قال تعالى:

﴿فأما من طغى[4] وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى﴾.

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٤.

(٢) سورة الحديد، آية: ٢٠.

(٣) سورة هود، آية: ١٥ - ١٦.

(٤) سورة النازعات، آية: ٤٠.

- قال تعالى:

﴿يا أيها الناس إن وعد الله حق[1] فلا تغرّنكم الحياة الدنيا ولا يغرّنكم بالله الغرور﴾.

- قال تعالى:

﴿واضرب لهم مَثَل الحياة الدنيا كماء[2] أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله كل شيء مقتدراً؛ المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخيراً أملاً﴾.

- قال تعالى:

﴿وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا[3] وزينتها وما عند الله خيرٌ وأبقى أفلا تعقلون. أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين﴾.

- قال رسول الله ﷺ: (لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء).

- قال رسول الله ﷺ: (من أصبح والدنيا أكبر همه فليس من الله في شيء والزم الله قلبه أربع خصال: هماً لا ينقطع أبداً، وشغلاً لا ينفرغ منه أبداً، وفقراً لا ينال منه أبداً، وأملاً لا يبلغ منتهاه أبداً).

- قال رسول الله ﷺ: (حب الدنيا رأس كل خطيئة).

- قال رسول الله ﷺ: (الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له وعليها يعادي من لا علم عنده وعليها يحسُدُ من لا فقه له ولها يسعى من لا يقين له).

---

(١) سورة فاطر، آية: ٥.

(٢) سورة الكهف، آية: ٤٥ - ٤٦.

(٣) سورة القصص، آية: ٦١.

- قال رسول الله ﷺ: (لتجيئنَّ أقوام يوم القيامة وأعمالهم كجبال تهامة فيؤمر بهم الى النار فقيل يا رسول الله! أمصلين؟ قال: نعم! كانوا يصومون ويصلون ويأخذون هنيئة من الليل فاذا عرض لهم من الدنيا شيء وثبوا عليه.

- قال أمير المؤمنين في نهجه:

«ألا وان هذه الدنيا التي أصبحتم تتمنونها وترغبون فيها وأصبحت تغضبكم وترضيكم ليست بداركم ولا منزلكم الذي خلقتم له ولا الذي دعيتم إليه. ألا وأنها ليست بباقية لكم ولا تبقون عليها، وهي وان غرتكم منها فقد حذرتكم شرها فدعوا غرورها لتحذيرها، وأطماعها لتخويفها، وسابقوا فيها إلى الدار التي دعيتم اليها وانصرفوا بقلوبكم عنها، ولا يَخُنَّنَّ أحدكم خنين الأَمَةِ على ما زوي عنه منها..)

- ويقول عليه السلام:

« ولقد كان رسول الله ﷺ كافٍ لك في الأسوة ودليل لك على ذم الدنيا وعيبها وكثرة مخازيها ومساويها اذا قُبضتْ عنه أطرافها ووطئت لغيره أكنافها وفطم عن رضاعها وزوي عن زخارفها.

- وقال عليه السلام:

«دار بالبلاء محفوفة، وبالغدر معروفة، لا تدوم أحوالها ولا يسلم نُزَّالُها ... »

- وقال عليه السلام:

« وأُحذِّركم الدنيا فإنها منزل قُلْعة وليست بدار نُجعة، قد تزيّنت بغُرورها وغرت بزينتها؛ دارها هانت على ربها فخلط حلالها بحرامها، وخيرها بشرها، وحياتها بموتها، وحلوها بمرّها. لم يُصْفِها الله تعالى لأوليائه ولم يضنَّ بها على أعدائه. خيرها زهيد وشرها عتيد، وجمعها ينفد، وملكها يُسلب وعامرها يخرب فما خيرُ دارٍ تُنقض نقضَ البناء »..

– وقال عليه السلام: «الدنيا دار ممر لا دار مقر والناس فيها رجلان؛ رجل باع فيها نفسه فأوبقها ورجل ابتاع نفسه فأعتقها».

– وقال الصادق عليه السلام: «مثل الدنيا كماء البحر كلما شرب منه العطشان ازداد عطشاً حتى يقتله»...

– قال لقمان لابنه: يا بني، بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً، ولا تبع آخرتك بدنياك تخسرهما جميعاً. وقال له: يا بُني ان الدنيا بحر عميق قد غرق فيها ناس كثير فلتكن سفينتك فيها تقوى الله عز وجل وحشوها الإيمان وشراعها التوكل على الله لعلك ناجٍ وما أراك ناجياً..

– رُوي أن عيسى عليه السلام كوشف بالدنيا فرآها في صورة عجوز شمطاء هتماء عليها من كل زينة.

– – فقال لها: كم تزوّجتِ؟

– قالت: لا أحصيهم.

– قال: فكلهم مات عنك أو كلهم طلقّك؟

– قالت: بل كلهم قتلتُ.

– فقال عيسى: بؤساً لأزواجك الباقين كيف لا يعتبرون بالماضين كيف تهلكينهم واحداً واحداً ولا يكونون منك على حذر.

هذه نبذة قليلة من الآيات والأخبار التي وردت في ذم الدنيا فقد جعلتها عدواً للانسان وحوّلتها إلى حية في جوفها السم الناقع تتحيّن الفرص للانقضاض على هذا الانسان والإجهاز عليه... الدنيا بما فيها من أشياء وما تحويه من جواهر وأعراض كلها تشكل ثقلاً على هذا الانسان وحملاً لا يستطيع القيام به أو النهوض بأعبائه...

وإننا نجد مقابل هذه الطائفة التي تتجه هذا الإتجاه طائفة أخرى تتجه باتجاه مغاير لها تماماً، إذ تحض على الدنيا وتدفع الناس إلى السعي في مناكبها والضرب في أرجائها وهذه هي عينات من تلك الآيات والأخبار والآثار...

- وقال تعالى: ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور﴾[1].

- قال تعالى: ﴿يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً﴾[2].

- وقال تعالى: ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾.[3]

- قال رسول الله ﷺ: (العبادة سبعون جزءاً أفضلها طلب الحلال).

- قال رسول الله ﷺ: (ملعون ملعون من ألقى كلّه على الناس).

- قال الصادق عليه السلام: «الكادّ على عياله كالمجاهد في سبيل الله».

- قال الصادق عليه السلام: (إن الله تبارك وتعالى ليحب الاغتراب في طلب الرزق)..

- قال الصادق عليه السلام: (ليس منا من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه).

- قال الصادق عليه السلام: (لما قيل له في رجل، قال: لأقعدنّ في بيتي ولأصمن ولأعبدّن ربي فأما رزقي فسيأتيني: قال أبو عبدالله عليه السلام: هذا أحد الثلاثة الذين لا يُستجاب لهم).

- وقال الامام علي عليه السلام: (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً)..

من هاتين الطائفتين، وللنظرة الأولى، قد يتَصَوَّرُ التنافي والتناقض؛ ومن هنا تمسك أهل الرفض للدنيا بالطائفة الأولى فنبذوا الدنيا وجاهم وطلقوا

---

(١) سورة الملك، آية: ١٥.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٦٨.

(٣) سورة الأعراف، آية: ٣٢.

حلالها فضلاً عن حرامها وباعوا كل غالٍ ونفيس في سبيل عتق أنفسهم منها... إنهم نظروا إليها من خلال أحاديث العداء لها وصوّروها لأنفسهم، «مثل الحية التي يلين مسها ويقتل سمها أو مثل ماء البحر كلما شرب منه العطشان ازداد عطشاً حتى يقتله، أو مثل دودة القز كلما ازدادت على نفسها لفاً كان أبعد لها من الخروج حتى تموت». ومن أجل هذه المحاذير التي تترتب على من تعلقت نفسه بالدنيا نرى قوماً هجروا النساء وآخرين حرموا الطيبات ونرى الدراويش ساحوا في البراري والقِفار وأنسوا بالوحوش والطيور، ونرى الصوفيين كيف لم يعد نظرهم يلتفت نحو الدنيا من قليل أو كثير، وهكذا سار قوم على هذا الخط وفي هذا الاتجاه..

بينما نجد قوماً آخرين بل الأغلبية الساحقة من البشر ومن المؤمنين قد اتخذوا الخط الآخر فأخذوا نصيبهم من الدنيا وتمتعوا بزينتها وزخرفها فأكلوا طيباتها وتزوجوا نساءها وعاشوا في قصورها وقالوا: إذا أقبلت الدنيا كان خيارها أولى بها من شرارها.

ونحن إزاء هذين الرأيين المتنافيين نجد الإسلام يبني نظرته على خلافها؛ إنه نظر بكلتا عيني الحقيقة، ولم ينظر بعين واحدة وأغمض الأخرى، إنه نظر الى الدنيا وإلى الآخرة معاً. وقال: إن الدنيا اذا طلبت من اجل الآخرة فهي الدنيا المحبوبة المرغوبة التي يريدها الله ويحبها لعباده؛ إذا حوّل الانسان دنياه كلها إلى طاعات لله واكتساب مرضاته، فهي ليست الدنيا المذمومة، وإنما هي الدنيا المطلوبة للاسلام والتي يحض أتباعه عليها... وفيها يقول الإمام الصادق لمن قال له: والله إنا لنحب الدنيا ونحب أن نؤتاها فيقول له: تحب أن تصنع بها ماذا؟ قال: أعود بها على نفسي وعيالي وأصل بها وأتصدق بها وأحج وأعتمر.

قال الصادق: (ليس هذا طلب الدنيا هذا طلب الآخرة).. في وهذا المجال يقول الصادق: (نعم العون على تقوى الله الغني)

فإذا كان الإنسان ينظر إلى الدنيا وما فيها على أنها وسيلة يكتسب بها

الآخرة وينال من خلالها الجنة، فهذه الدنيا مرغوب فيها مطلوبة من الانسان وبهذا نكون قد أحرزنا الدنيا والآخرة، فإن النتيجة الأخروية تتوقف على مقدار ما يكتسبه الانسان في الدنيا من الخيرات والحسنات والصدقات...

وتكون الدنيا المذمومة هي تلك الدنيا التي تستعبد الانسان وتستذله وتقطع نظره عن آخرته ولا يعود يفكر فيها؛ الدنيا التي تتحول عنده إلى إلّه يعبد من دون الله وتتحوّل إلى قدس من الأقداس يقاتل من أجل تحصيلها ويبذل نفسه في طلب حرامها؛ الدنيا التي تملك عليه رؤيته كلها وشعوره كله ونفسه كلها وفكره كله؛ والتي تقطع صلته بالله وباليوم الآخر ولا يكون لله منها نصيب هذه هي الدنيا التي يرفضها الإسلام ويذم أهلها.. ولا يرضاها للمؤمنين...

إن هذه الدنيا قد غرّت أجيالاً وأجيالاً وصرعت الملايين والملايين من بني آدم، لقد قضت على أجدادنا وآبائنا وهي قاضية علينا وسوف تقضي على من يأتي بعدنا. لقد تصورتُ هذه الأرض التي أمر عليها، وفكرت في الناس الذين مرّوا قبلي وداسوها كما أدوسها الآن، فكرت كم وكم من الأجيال قد مرّوا، إنهم عبروها وتركوها؛ كأن استقرارهم عليها لا يتجاوز طرفة عين من عمر الزمن، سفكوا الدماء عليها، لقد تمردوا على طاعة الله، وادّعى بعضهم الربوبية، تجبروا، تكبروا، تطاولوا، واعتدوا. مرت على أرضنا أقوام من البشر، قوم نوح ولوط وشعيب وإبراهيم وموسى وعيسى. لقد مر عليها أقوام طغوا وبغوا فكانت لهم وقائع فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر. كان يمر في مخيلتي ويجول في ذهني شريط طويل يمتد من آدم أبي البشر إلى يومنا هذا. شريطٌ مثقل بالمعاصي والآثام والانحراف والضلال، شريط مملوء بالمحن والكوارث والمصائب؛ سجل طافح بالجرائم والطغيان. كانت هذه كلها تمر في ذهني فأزهد.. وأنبذ الحياة وأنتبذ جانباً مفكراً في حالي ومالي وكيف أني سأتبع تلك القوافل التي تقدمتني ممن عاشوا قبلي على ثرى هذه الأرض وفوق هضابها. كنت أفكر في الطغاة والمتمردين على الله وكيف كانت عاقبتهم من

الله، كيف ضربهم وقضى عليهم. كيف انتهى أمرهم إلى شر إنتهاء.. كنت احتقر الدنيا، واستصغر نفسي فيها، كنت أقول انني حبة رمل في صحراء واسعة شاسعة، دودة صغيرة تدب دون أن يحسّ بها أحد من الناس؛ كنت أنظر إلى أهل الدنيا وإلى سعيهم فيها، وأنظر إلى مصيرهم الذي ينتظرهم؛ كنت أتخيّل أن تلك الوجوه المنعمة التي أفسدتها النعمة والتي يخاف عليها أصحابها من نسمة تحمل بعض الغبار، كيف يأكلها الدود وتطرح على التراب كيف يُفتتها الزمن وتحللها الأيام.

ولكن بعد كل هذا التطواف السريع في الدنيا من هذه الجهة كانت تخطر ببالي صور الأنبياء الذين شرّفوا الحياة واكسبوها معنىً جديداً ونكهة جديدة. كنت أتصور ذلك الرعيل المبارك من رسل الله.. وأتصوّر جهادهم الميمون ودعوتهم الصادقة المنقذة.. كنت أتصور الصالحين والمتقين الذين عاشوا على هذه الأرض وعمروها بالتقوى.. والإيمان، والحب، والاخلاص، الذين زرعوا على دروبها الوفاء.. وبنوا في مرابعها الصدق والطهـارة... كنت أتصور مع الأنبياء وعلى رأسهم سيدنا العظيم رسول الله محمد، كنت أقرأ في تعاليمهم.. وأسلك دروبهم فأحلّق في عالم علوي وارتفع إلى الشاهقات من القمم، كنت أحس أنني موصول بهم، قريب منهم، بل معهم، وبخدمتهم، كنت أشعر بالكبرياء تجذبني إلى رحابهم. فأحلم بالسعادة وأتذوق نعيمها وأرتشف من كأسها. كنت أشعر وأنا مع الأنبياء انني كبير ويمتد عمري من أول يوم خطت قدم الأنبياء على هذه الأرض وسأبقى طالما بقي لهم أثر عليها. وكنت أشعر أنني على خط الأنبياء فتكبر نفسي وترفرف روحي في سماء المجد والجهاد. وأقرر الاستمرار على خطاهم والدفاع عن ميراثهم والقتال من أجل دعوتهم. كنت أشعر بنشوة المجاهد الذي ظفر بعد تعب شديد بمناله ومطلوبه... وتلك أمنيتي التي أعض عليها بالنواجذ وأوصي بها أبنائي.. إنني أقول لأبنائي- علي وصادق وأخواتها- يا أبنائي كونوا مع الله وفي خطه... سيروا خلف الأنبياء.. وعلى خطاهم؛ إن جدّكم رسول الله فخر الكائنات، قد شق لكم

طريق السعادة وبيّنها لكم فما عليكم إلا سلوكها، لا تتكاسلوا، وتتهاونوا، ولا تسوّفوا، ولا تعصوا الله في ما بلّغه جدكم عنه، واعلموا يا أبنائي، إنْ أردتم عز الدنيا والآخرة، فعليكم بالدين، اعملوا بأوامره واجتنبوا نواهيه ولا تتمردوا على أحكامه وسلطانه. اعلموا يا أبنائي أن قرة عيني أن أراكم على طاعة الله وفي خدمة عباد الله تخففون آلام الناس وتأخذون بأيديهم إلى رضا الله، تهدونهم إلى شريعة جدكم فإن فيها الفلاح والفوز والنجاح. إن أحبَّ ما أبتغيه لولديّ- علي وصادق- أن يتفرغا لطلب العلم الديني فإن فيه متابعةً للأنبياء وإكمالاً لمسيرتهم المباركة الطاهرة، فإن العلماء ورثة الأنبياء وكيف لا أحب لفلذة كبدي هذا المقام الرفيع الذي يقصر عنه كل مقام آخر في الدنيا... فإنني يا أبنائي أشعر في قرارة نفسي، وكما هي قناعاتي- والله على ما أقول شهيد- أنَّ هذا المقام أجلّ مقام في نظري لأنه منصب الرسل والأنبياء، وهم المبلغون عن الله، والأمر بأيديهم، وكلٌّ من تقدم عليهم هلك كما أن كل من تابعهم سعد. يا أبنائي لا تغرّنكم الدنيا وما فيها من نعيم ولا تأخذكم زخارفها وزينتها، فإنها ستزول وتنقضي ولا يبقى الا العمل الصالح. فالدنيا إذا طلب بها الآخرة فهي دنيا محبوبة يطلبها الله ويرضاها لأنصاره فيجب أن تتحول كل دنيانا إلى الآخرة، حياتنا، أكلنا، شربنا، قيامنا، قعودنا، حركاتنا، سكناتنا، لذتنا، ألمنا، يجب أن يتحول كل شيء عندنا إلى الله، وقضية تحويله إلى الله قضية سهلة ميسورة وهي أن يُتوجّهَ إليه تعالى ويُنوى التقرّب منه ويُطلب بالعمل الدارُ الآخرة.. ليس المطلوب منك إلا أن تغيّر نيتك وتقصد به وجه الله وتؤدي ما وجب عليك منه وتحوّله إلى عمل نافع يخدم الانسان ويخفف آلامه ومصائبه...

وباعتبار أن الناس يتمسكون بالدنيا ويرضعون من أثدائها ويعيشون في كنفها وتحت ظلالها، باعتبار قربها منهم وانها تحت أيديهم، نجد تعلقهم بها وإخلادهم إليها، باعتبار تعلقهم الشديد بها وركونهم إليها نجد أحاديث الذم والتشبيهات القاسية لها كثيرة وشديدة. وإذا كانت ردة الفعل يجب أن تكون

بمقدار الفعل فيجب أن يكون التحذير منها ومن أفعالها بمقدار تعلّق الانسان بها.. ومن هنا شبهّه الامام من خبر الدنيا وجرّبها بقوم سافروا من منزل جديب إلى منزل خصيب فإنهم يتجاوزون كل ما يمر عليهم من عقبات في الطريق من أجل الوصول إلى الهدف... إن كل الصعوبات التي تعترض طريقهم يسهلها أملهم في الوصول إلى ذلك المرتع الخصيب وهذا هو حال من آمن بالآخرة وسعى لها سعيها في الدنيا، أمّا من كانت الدنيا همه وشغله فانه مثل الذين يسافرون من منزل خصيب الى منزل جديب فانه يتحوّل من الرخاء والنعيم إلى الشقاء والجحيم فجدير بمن يعرف نهايته ومستقره أن يختار الصالح له وما يحقق له سعادة المنقلب وحسن الخاتمة...

إن تشبيه الدنيا قد ورد على لسان الأنبياء والأئمة والصالحين ونحن سنستعرض بعض تلك التشبيهات كي يتفكر فيها القارىء الكريم ويحللها في ذهنه ويخلو فيها مع نفسه ليجد صحة ذلك ويأخذ العبرة والعظة منها..

ذكر صاحب كتاب جامع السعادات.

قد شبّه بعض الحكماء حال الانسان واغتراره بالدنيا وغفلته عن الموت وما بعده من الأهوال وانهماكه في اللذات العاجلة الفانية الممتزجة بالكدورات بشخص مُدلّى في بئر مشدودٍ وسطُه بحبلٍ وفي أسفل تلك البئر ثعبان عظيم متوجه إليه منتظر سقوطه فاتحٌ فاه لالتقامه، وفي أعلى تلك البئر جُرذَان أبيض وأسود لا يزالان يقرضان ذلك الحبل شيئاً فشيئاً ولا يفتران عن قرضه آناً من الآنات. وذلك الشخص، مع انه يرى ذلك الثعبان ويشاهد انقراض الحبل آناً فآناً. قد أقبل على قليل عسل قد لطخ به جدران تلك البئر وامتزج بترابه. واجتمعت عليه زنابير كثيرة وهو مشغول بلطعه، منهمك فيه، ملتذ بما أصاب منه، مخاصمٌ لتلك الزنابير عليه، قد صرف باله بأجمعه إلى ذلك غير ملتفت إلى ما فوقه وإلى ما تحته، فالبئر هي الدنيا والحبل هو العمر والثعبان الفاتح فاه هو الموت، والجرذان الليل والنهار القارضان للعمر، والعسل

المختلط بالتراب هو لذات الدنيا الممتزجة بالكدورات والآلام والزنابير هم أبناء الدنيا المتزاحمون عليها...

ورُوي أنه يؤتى بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شمطاء زرقاء أنيابها بادية مشوّه خَلْقُها، فتشرف على الخلائق ويقال لهم: تعرفون هذه؟

فيقولون: نعوذ بالله من معرفة هذه فيقال: هذه الدنيا التي تفاخرتم عليها، وبها تقاطعتم الأرحام وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم ثم يقذف بها في جهنم فتنادي: أي رب! أين أتباعي وأشياعي؟ فيقول الله عز وجل: ألحقوا بها أتباعها وأشياعها. إن هذه الدنيا لم يجعلها الله من حظ أنبيائه ولم يجعلها أجر جهادهم وأتعابهم، ويكفي هذا ذماً لها، وأن لا يتخذها الانسان هدفاً له في حياته...

« يا بُنيَّ اجْعَلْ نَفْسَكَ ميزاناً فيما بينكَ وبين غيرِكَ، فأحْبِبْ لغيرك ما تُحِبُّ لنفسِكَ وَاكْره له ما تكرَه لها، ولا تظلِمْ كمَا لا تحبُّ ان تُظْلَمَ، وأحسِنْ كما تحبُّ أنْ يُحْسَنَ إليكَ؛ واستقْبِحْ من نفسك ما تستقبِحُهُ من غيرك، وَأرْضَ من الناس بما ترضاه لهم من نفسك، ولا تقُلْ ما لا تعلمُ، وإنْ قَلَّ ما تعلَمُ، ولا تقُلْ ما لا تُحِبُّ أن يُقالَ لكَ ».

هذه قاعدة تربوية يجب أن يضعها كل إنسان في لوحةٍ مكتوبة بماء الذهب ويبقي يُديم النظر اليها ويكرره في كل يوم حتى يتعمق مدلُولها في داخله وينطلق منها في سلوكه وعمله..

إن علاقة الإنسان بأخيه الانسان يشوبها الكثير من الأضطراب وتتعرض في أكثر الأحيان إلى هزات عنيفة قد تأتي على صلات القربى فتفصلها، وعلى روابط المحبة فتفكك عُراها؛ وهكذا يتحول الأحباب إلى أعداء والأقرباء الى بُعداء، ويفسُدُ حبل الود والوئام..

إن كثيراً من المشاكل والأحداث تكون نتيجة لعدم انصاف الناس وتجاوزهم عمّا رُسِمَ لهم، حيث يطلبون من غيرهم ما لا يؤدّونه اليهم. إن عدم الانصاف في القول وفي العلم يثير الغبار بين الاخوة فيحجب الرؤى الصحيحة السليمة التي يجب ان يكون عليها كل إنسان اتجاه الآخرين.

إنك تطلب من الناس ان يحترموك ويقدروك ويقدموا لك فروض الولاء والطاعة، ولكنك لا تكلف نفسك أن تعاملهم بالمثل. إنك تصرخ في وجوههم لأدنى بادرة سيئة منهم أو خطأ، ولكن تفرض عليهم أن يتقبلوا منك كل خطأ بل كل معصية؛ إنك لا تتبرع بقضاء حوائجهم بل لا تحاول قضاءها إذا طلبوها منك، غير أنك تفرض عليهم أن يتبرعوا بقضاء حوائجك دون طلب منك أو استدعاء...

إذا طلب أحد منك عارية أو ديناً، منعتَ وبخلتَ، ولكن لو أنت طلبت ذلك وجب عليهم أن يلبوا طلبك بسرعة ودون إبطاء.

وهكذا دواليك إنك كما يقال: ترى القشة في عين غيرك وتنسى الجذع في عينك...

ومن هذا المنطلق السيء من كونك تطلب من الناس أكثر مما تؤدّي إليهم، وتريد أن تأخذ منهم اكثر مما تعطيهم، تنشأ المشاكل وتمتلىء القلوب بالأحقاد.. إنك لم تُنْصِفْهم من نفسك ولم تحب لهم ما تحب لنفسك، ولم تَرضَ لهم بما ترضى لنفسك.. فلو إنك عرضت الأمر على نفسك فإن قبلْته فاعرضه على الآخرين، وإلاّ فارفض عرضه عليهم كما رفضتَه لنفسك. إكره لهم ما تكرهه لنفسك وأحسن إليهم كما تحب أن يحسنوا إليك. وهكذا سائر الأفراد تندرج تحت قاعدة واحدة أصلية وهي أن يجعل نفسه ميزاناً يوزن به الأمور كلها. فكل ما ترتضيه نفسه وتقبله يجوز له أن يعرضه على الآخرين ويقبله لهم..فإذا أحب الظلم لنفسه - وهو لا يحبه قطعاً - فليظلم غيره؛ وإذا كان يستقبح من نفسه أمراً فليستقبحه من الآخرين وإذا كان يرتضيه لنفسه فليرتضيه للآخرين... إنها قاعدة توفر على الناس كثيراً من المشقات والأتعاب وتجعلهم يعيشون الدعة والهدوء والحب والاخلاص. إنها قاعدة وردت الأحاديث الكثيرة في الحث عليها والعيش تحت ظلالها وهذه باقة من تلك الروائع في هذا الصدد...

١- جاء أعرابي إلى النبي ﷺ وهو يريد بعض غزواته فأخذ بغَرْزِ[1] راحلته فقال: يا رسول الله علّمني عملاً أدخل به الجنة.

فقال: ما أحببتَ أن يأتيه الناس اليك فأتِه اليهم وما كرهت ان يأتيه الناس اليك فلا تأتِه اليهم؛ خل سبيلَ الراحلة.

٢- عن أبي عبدالله (ع) قال: أوحى الله عز وجل إلى آدم (ع) إني سأجمع لك الكلام في أربع كلمات.

---

(١) الغرز بفتح وسكون الركاب من الجد.

قال: يا ربِّ وما هنّ؟

قال: واحدة لي وواحدة لك وواحدة فيا بيني وبينك وواحدة فيا بينك وبين الناس...

قال: بيّنهنّ لي حتى أعلَمْهنّ؟

قال: أما التي لي فتعبدني، ولا تشرك بي شيئاً، وأما التي لك فأجزيك بعملك أحْوج ما تكون إليه، وأما التي بيني وبينك فعليك الدعاء وعليّ الاجابة، واما التي بينك وبين الناس فترضى للناس ما ترضى لنفسك وتكره لهم ما تكره لنفسك.

٣- قال رسول الله ﷺ: ثلاثة خصال من كنّ فيه أو واحدة منهنّ كان في ظل عرش الله يوم لا ظل إلا ظله، رجل أعطى الناس من نفسه ما هو سائلهم، ورجل لم يقدم رجْلاً ولم يؤخر رجْلاً حتى يعلم أن ذلك لله رضى؛ ورجل لم يَعبْ أخاه المسلم بعيب حتى ينفي ذلك العيب عن نفسه، فانه لا ينفي منها عيباً إلا بدا له عيب. وكفى المرء شغلاً بنفسه عن الناس.

«وَأعلَمْ أنَّ الإعجاب ضِدُّ الصواب، وآفَةُ الألباب. فاسْعَ في كدحك ولا تكُنْ خازناً لغيرك. وإذا أنت هُديتَ لقصدك فكن أخشعَ ما تكونُ لربك».

اللغة:

الإعجاب: استحسان ما يصدر عن النفس مطلقاً.

آفة: علّة.

الكدح: أشد السعي.

الإسلام أشد وأقوى طبيب نفساني يعالج الأمراض المستعصية والمزمنة في النفس الإنسانية... إنه يمارس مع الفرد أسلوباً رائعاً إذا أخذ به كما هو وعلى حقيقته... والإعجاب مرض خطير يتحرك في داخل النفس فيفسدها ويخرجها عن طبيعتها... إن هذه النفس إذا أُعْجِبَتْ بعملها زهت كالطاووس، وأخذ هذا الزهو والتيه يزداد ويزداد حتى يأتي إلى مسخ كل الأعمال الصالحة عند غيره ولا يعود يرى أمامه إلا عمله. بل إذا ارتفعت درجات هذا الإعجاب قد يصل به الأمر إلى أن يمنّ على ربه ويُدِلَّ بعمله، ويرى نفسه فوق التقصير وأكبر من أن يسأل عن عبادة ربه وطاعته. وهذا الموقف منه يحجب القلب عن الرب ويمنع رؤية كرمه ونعمه وآلائه وفضله... وفي ذلك إفساد للقلب والنفس أيّما إفساد وإضلال... وقد رأى الإسلام أن العبد مع التقصير إذا شعر بتقصيره وحاول الإرتفاع عنه أحسن حالاً وأقرب إلى الله من الإنسان المعجب بنفسه المدّل على ربه. وقد وردت الأحاديث في ذلك وكفى بذلك أن يكون ضد الصواب وخلافه...

١- عن علي بن سويد عن أبي الحسن عليه السلام قال: سألته عن العُجْب الذي يُفسد العمل؟ فقال:

العجب درجات منها أن يزيّن للعبد سوء عمله فيراه حسناً فيعجبه ويحسب أنه يحسن صنعاً. ومنها أن يؤمن العبد بربه فيمنّ على الله عز وجل ولله عليه فيه المنّ.

-٢- عن أبي عبد الله (ع) قال: أتى عالم عابداً فقال له: كيف صلاتك؟ فقال: مثلي يُسأل عن صلاته؟! وأنا أعبد الله منذ كذا وكذا. قال: فكيف بكاؤك؟ قال: أبكي حتى تجري دموعي فقال له العالم: فإن ضحكك وأنت خائف أفضل من بكائك وأنت مدل؛ إن المُدِلّ لا يصعد من عمله شيء.

-٣- عن عبدالرحمن بن الحجاج قال: قلت لأبي عبدالله (ع): الرجل يعمل العمل وهو خائف مشفق ثم يعمل شيئاً من البر فيدخله شبه العجب به؟، فقال: هو في حاله الأولى وهو خائف أحسن حالاً منه في حال عجبه. وهكذا تأتي الأحاديث لتكشف عن أخطار العُجْب ومبغوضيته لله...

ثم إنّ الإمام يكمل وصيته إلى ولده بالسعي في كدحه. وقد فسر الكدح تارةً بالمال وأن ينفقه في سبيل الله، وأخرى بالمعنى الأعم وهو أن يسعى في كسب الطاعات. وعلى كل حال قد يكون المعنى الأول أقرب لوجود القرينة المتصلة في الكلام وهي قوله ولا تكن خازناً لغيرك؛ فإن الخازن لا يستفيد إلا التعب والنصب، وأما الذين ينالون اللذة منه والفائدة فأولئك الذين يأخذونه دون تعب ولا كدح، بل يصل إليهم بدون مشقة؛ يتلذذون به ويتنعمون بصرفه في وجوهٍ قد تكون محللة وقد تكون محرمة... لمن يوصي به؟!.. إنه يوصي به إلى أحد رجلين: رجلٍ فاجرٍ يصرفه في معصية الله فيكون قد أعانه بماله على الانحراف والمعصية: أو إلى رجل برٍّ تقي يزداد فيه خيراً فيكون قد حُرم هو من أجره وأكسب غيره ذلك الأجر. والعاقل يسعى من أجل نفسه وخلاصها ونجاتها من النار، أولاً بالذات...

والعاقل هو الذي لا يدع الوراث يتحكمون بأمواله وأرزاقه، وكذلك لا يدع للأيام أن تفتك بها أو تصرفها عنه إلى غيره..، بل هو الذي يحدد وجه الصرف والنفقة في حياته قبل وفاته وقبل أن يقع في أيدي غيره.

ومما يثير العجب ذهاب بعض الناس إلى تجميد ما لديهم من أموال وخيرات يحبسون أنفسهم عن تناولها ويمنعون الفقراء حقهم منها ثم يقومون بالوصية ببعض المصاريف والميراث، أو يوصون بإخراج الحقوق منها وما وجب عليهم... وهل هناك أشقى من إنسانٍ يستطيع أن ينفّذ في حياته كل ما يريد فيعدل عنه إلى الإيصاء به.

إن الإيصاء بالمال بعد المات طريق الفقراء في عقولهم وخطة الضعفاء في تفكيرهم... ورحم الله الشريف الرضي حيث يقول:

يـا آمِن الأقـدار بـادر صرفَها ... واَعْلَمْ بـأن الطالبـين حِثـاثُ
خـذ من تراثك ما استطعت فإنما ... شركـاؤك الأيـام والوُرّاثُ
لم يقـضِ حـق المالِ إلا معشرٌ ... وجـدوا الزمانَ يعيث فيه فعاثوا

« وَاعْلَمْ أَنَّ أمامك طريقاً ذا مسافةٍ بعيدة ومشقةٍ شديدةٍ وأنَّه لا غِنى لَكَ فيه عن حُسْنِ الارتيادِ. وقَدِّرْ بلاغَك من الزاد مع خِفّة الظهر، فلا تحملَنَّ على ظهرك فوق طاقتك، فيكونَ ثِقْلُ ذلك وبالاً عليك. وإذا وجدتَ من أهل الفاقة مَنْ يحملُ لك زادك إلى يوم القيامة فيوافيك به غداً حيث تحتاج إليه فاغتنمْه وحمّله إيّاه واكثِرْ من تزويده وأنت قادر عليه، فلعلك تطلبُه فلا تجدُه.

وَاغْتَنِمْ مَنِ اسْتقرضَك في حال غِناك ليجعلَ قضاءهُ لك في يومِ عُسْرَتِك ».

اللغة:

الإرتياد: الطلب. الفاقة: الفقر.

بلاغك: كفايتك. الوبال: الهلاك.

الطريق إلى الجنة بعيدة وشاقة. وهل هناك أبعد من الجنة؟! إنها بعيدة.. وبعيدة جداً لمن يعصي الله في نظره وفي سمعه وفي حركته وفي سكونه، وفي منطقه وفي يده... إنه لا يكاد يرتفع عن معصية حتى يقع في أخرى، ولا يكاد يخلص من إثم حتى يرتكب غيره. إنه الإنسان الذي يعرف من يعصي ويعرف من يخالف ويعاند ولكنه مع ذلك دائم الاصرار على الذنب وباستمرار يقترفه...

إن هذا الطريق فيه الكثير من المشقات والأتعاب وكما يقول أمير المؤمنين ﴿حُفّت الجنة بالمكاره وحُفّت النار بالشهوات﴾. فالطريق إلى الجنة يحتوي الكثير من المزالق التي قد تزل فيها الاقدام وتضل العقول.. فهناك هذه النفس التي تمني الإنسان وتدفعه إلى ما تشتهيه وان كان مخالفاً لأمر الله ونهيه.

فهي قد تُلحّ عليه بشدة وقوة، وقد يصل فيه الأمر إلى أن يصبح عبداً لها تتحكم فيه كما تشاء، توجهه إلى الضلال والإنحراف وإلى الميوعة والفساد... قد تزيّن له القبيح بعد أن تُلبسه ثوب الحُسن والجمال. إنها تخلق له الأعذار وتصطنع له المبررات وتدفعه إلى اقتحام الحرام.. إن هذه النفس إذا لم تروّض على الطاعة ولم تؤخذ بالتربية الصالحة والرياضة الروحية المستقيمة، إذا لم يحاسبها الإنسان ويوقفها عند كل فعل ويعوّدها على قبول الحق مهما كان صعباً وشاقاً، فلا محالة تقتحم به إقتحام الفرس الجموح التي فقد راكبها زمامها فأضحت تجري به كما يشاء. إن هذه النفس إذا فسدت استسهلت المعصية واستهانت بالمقدسات. إنها تفقد الحياء فتخرج عارية داعرة دون خجل. وما تلك الصور المتحركة في عالمنا إلا نموذج حيٌ لهذا القول. أدِرْ طرفك في المنزل فترى المحرمات منتشرة؛ وعرّج به إلى الشارع، وأبصرِ العُريَ بين النساء، فلا خوف من الله، ولا استعداد لحسابه... وهكذا في جميع الزوايا تجد المنكرات منتشرة والفساد لا تخلو منه بقعة. وان المؤمن في هذا الجو الموبوء والمضطرب وفي هذه الأزمنة الداعرة والفاسدة يجد نفسه في ضيق لا مثيل له؛ وتصدق أعلام النبوّة الكريمة القائلة (يأتي زمان على أمتي القابض فيه على دينه كالقابض على الجمر)؛ فإن المؤمن في زماننا إذا استمسك بدينه وأبى التنازل عنه ولو في حكم واحد أخذته التهم من كل جانب، ولاكته الألسن من كل طرف. فإذا رفض التعامل مع الظالمين قالوا فيه إنه لا يلاحظ مصلحة المسلمين؛ وإذا لم يتعاون مع المنحرفين والمفسدين قالوا لا علم له بالسياسة؛ وإذا لم يكذب ويُماري قالوا إنه لا يعرف كيف يُداري الناس ويستفيد منهم، وإذا عبس في وجه الفسقة والعصاة قالوا إنه جلف قاسٍ. وهكذا تتوالى عليه التهم وتتدفق الشتائم وعندها يأتي الزلزال الشديد لهذه النفس البشرية ويأتي الإمتحان القاسي. فإن كان الإيمان ثابتاً بقي مستمراً في شوطه دون أن تأخذ هذه التهم والشتائم منه شيئاً، بل يزداد تمسكاً بموقفه وإصراراً على رأيه حتى يلقى الله فيوفيه أجر الصابرين. واما إذا كان الإيمان ضعيفاً فتراه يتهاوى

أمام هذه التهم؛ تراه يخور ويتراخى ويتراجع عن كثير من معتقداته ومواقفه؛ يستسلم للواقع بدلاً من الوقوف في وجهه ومحاولة تغييره.

وكثيرون هم الذين يمثلون الموقف الثاني حتى من أصحاب الشعارات والدعايات. وقد رأينا هذا النموذج في حياتنا بكثرة ورأينا التراجعات والتنازلات عن كثير من المواقف والقضايا أمام تحديات الباطل وزهوه.. وإنحرافه ودجله...

إذن فالطريق إلى الجنة شاقة تتطلب الحزم والعزم والقوة والثبات، تتطلب الكلمة الجريئة والموقف الصلب والإيمان الراسخ والأعصاب المتينة...

الطريق إلى الجنة تتطلب منك المثابرة على صلاتك مهما استهزأ بك المستهزئون، ويتطلب منك الدوام في صيامك مهما قال عنك الجاهلون، والإستمرار في الحفاظ على ستر المرأة وعفافها مهما قال السماسرة وتجار الباطل في ذلك. يجب أن تكون أيها المسلم والمسلمة أصلب من الجبال وأقوى من الحديد والنار، تقف بكل شموخ واعتزاز رافعاً رايتك الإسلامية دون خجل أو حياء؛ وهذا هو زادك الذي لا بد لك من أن تأخذه معك في رحلتك هذه، رحلة الجنة تتطلب منك أن تتزوّد بكل الخيرات والأعمال الصالحة، وتخفف عن ظهرك من الذنوب والخطايا مهما أمكن فإن الجنة غالية لا تخطب إلا على المحسنين والعاملين في سبيل الله وسبيل الإنسان.. الجنة عروس تتربع في آخر شوط الحياة لا يصل إليها إلا الخيّرون والطيبون الذين يصبرون على مشقة هذا الطريق وأتعابه، ويحملون أنفسهم على العمل بطاعة الله واجتناب معاصيه. إن هؤلاء فقط يصلون إليها ويتنعمون بها؛ أما أصحاب الخطايا الذين يحملون على ظهورهم حملاً ثقيلاً يرهق كاهلهم، هؤلاء ليسوا من أهلها ولا هي أهل لهم، بل هناك، في آخر رحلتهم، تنتظرهم نار مؤصدة لا يقوى عليها بشر...

إن الإمام ينبهه- بل ينبهنا- إلى طريق نستطيع أن نحفظ بها ودائعنا ونجمّد بها أرصدتنا ليوم فقرنا وحاجتنا. إنه يرشدنا إلى أمين يحمل لنا زادنا

ومؤونة نحتاجها يوم نغدو إلى ربنا... إنه يدلنا على هؤلاء الفقراء أن نمدّ أيدينا إليهم بالصدقة والإحسان وقضاء الحاجة وادخال السرور عليهم؛ أن نتواضع لهم ونفعل لهم الخير ونهتم بشؤونهم؛ أن ننصحهم ونصلح بينهم ونسعى في تفريج كربهم... فإن كل ما نفعله ونسديه لهم يرجع أجره لنا وثوابه علينا... (فمن أدخل سروراً على مؤمن كان كمن أدخله على الأئمة[1] والنبي ومن قضى حاجة مؤمن ناداه الله تبارك وتعالى: ﴿عليّ ثوابك ولا أرضى لك بدون الجنة﴾. ومن نفّس عن مؤمن كربة نفّس الله عنه كرب الآخرة... ومن أطعم مؤمناً من جوع أطعمه الله من ثمار الجنة ومن سقى مؤمناً سقاه الله من الرحيق المختوم، ومن كسا مؤمناً ثوباً من عرى كساه الله من استبرق الجنة، ومن كسا مؤمناً ثوباً من غنى لم يزل في ستر من الله ما بقي من الثوب خرقة. ومن أخذ من وجه أخيه المؤمن قذاةً كتب الله له عشر حسنات، ومن تبسم في وجه أخيه كانت له حسنة.. ومن زار أخاه في الله قال الله عز وجل: إيايَ زرت وثوابك عليّ ولست أرضى لك ثواباً دون الجنة...).

فإن هذا النموذج الطيب من الأحاديث يكشف عن أن كل فعل يقوم به الإنسان يعود صالحهُ له وثوابه عليه كما يقول تبارك وتعالى ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها﴾. والعاقل هو ذلك الرجل الذي يتزوّد من الدنيا ويحمّل غيره الثواب والأجر كي يلاقيه به في تلك الكرب العظام يوم القيامة...

العاقل هو الذي لا يتأخر عن فعل الإحسان مع الناس عند أول قدرته بل يغتنم الفرص كي يسدي المعروف إلى أهله لأنهم السبب في عود الخير عليه ودّر المنفعة لجانبه، فلعله يطلبهم في يوم ما فلا يجدهم ويبحث عنهم فيفقدهم... فيكون قد خسر ربحاً وضيّع ما هو بحاجةٍ إليه...

---

(١) هذه متون الأحاديث في كتاب الكافي.

« وَاعْلَمْ أن أمامك عقبةً كؤوداً، المُخِفُّ فيها أحسنُ حالاً من المُثْقِلِ والمُبْطِيءُ عليها أقبحُ حالاً من المُسرِعِ ، وأنَّ مَهْبَطِك بها لا محالةَ إمّا على جنةٍ أو على نارٍ. فارْتَدْ لنفسكَ قبل نزولِكَ، وَوَطّيءِ المنزِلَ قبل حلولِك، فليس بعد الموت مُسْتَعْتَبٌ، ولا إلى الدنيا مُنْصَرَفٌ ».

اللغة:

كؤوداً: صعبة المرتقى.

ارتد: أبعث رائداً من الأعمال الصالحة قبل نزولك في الدار الآخرة.

الاستعتاب: الاسترضاء.

نعم إنها عقبة صعبة المرتقى، عقبة مرتفعة شاهقة يتعثر الإنسان بما فيها من منعرجات ومنعطفات، وما فيها من عِثار ومشاكل. عقبة ولا عقبات الدنيا التي يستطيع المرء أن يقتحمها ويجتازها... إنها عقبة كؤود مخيفة يجتازها الإنسان وسط الأهوال المرعبة والمنعطفات المضلّة... إنها عقبة لا يجتازها إلاّ من استعدّ لها وهيّأ نفسه، إلاّ من نظر إليها وعرف حقيقتها. وكيف أن عقبات الدنيا يكون المخف أيسر إجتيازاً لها من المثقل، فكذلك عقبات الآخرة من كان أقل وزراً وأخف حملاً، من لم يرتكب حراماً ولم يفعل إثماً، من لم يعتدِ ولم يتجاوز المرسوم له. يكُن أسرع في اجتيازها وأشد قوة في اقتحامها. من كان خفيف الحمل من أوزار الدنيا وآثامها أصبح يسيراً عليه عبورها، وهذا عكس المثقل. عكس من حمل على ظهره وبيده وكان بديناً فإنه سيسقط في منتصف الطريق! سيهوي إلى الأرض ويصعب عليه أن يقف بعدها. ولربما استطاع أن يترك حمله ويتخفف في الدنيا لإجتيازها ولكن كيف يتخفف في الآخرة من الأوزار والآثام وهي لازمة له لا تتركه ولن يستطيع التخلي عنها

لأنها كسب يديه وجوارحه التي لن تفارقه بل سيحاسب عليها ويعاقب على فعلها . . .

وإن هذه العقبة كانت أمام أنظار الأتقياء، وفي رأس القائمة التي كانوا يحسبون لها ألف حساب وحساب. كانوا إذا تذكروها جرت مدامعهم وتحركت عواطفهم وجاشت أنفسهم وخافوا من ذنوبهم فبكوا، وتأسفوا وتحسروا، وندموا على ما مضى من أعمارهم. إن هذه العقبة قد نظر إليها أناس بعين البصيرة فرسموا لها طريق الخلاص فكانوا والجنة كمن هم فيها فهم فيها منعّمون وهم والنارَ كمن هم فيها فهم فيها معذّبون... كانوا يعدّون العدّة لاجتيازها بكل يسرٍ وسهولة.. كانوا يعرفون أن الأوزار والآثام وأفعال الحرام والإعتداء على الناس والظلم والتجاوز على العباد كلها أثقال تبطىء الإنسان عن إجتيازها؛ فلذا لم يفعلوا حراماً ولم يكسبوا مأثماً، بل ان الأئمة كانوا في مواقفهم أمام الله يحسبون له الحساب ويستعدون ليوم اللقاء وهم المعصومون المنزهون الذين لم يقترفوا ذنباً ولم يفعلوا حراماً. فاسمعوا إلى الإمام زين العابدين في حديث طاووس اليماني.. يقول طاووس: رأيته علي بن الحسين يطوف من العِشاء إلى سحر ويتعبّد فلمّا لم يرَ أحداً رمق السماء بطرفه وقال: إلهي غارت نجوم سماواتك وهجعت عيون أنامك وأبوابك مفتحات للسائلين، جئتك لتغفر لي وترحمني وتريني وجه جدّي محمد في عرصات القيامة ثم بكى وقال: وعزتك وجلالك ما أردتُ بمعصيتي مخالفتك وما عصيتك إذ عصيتك وأنا بك شاكٌّ ولا بنكالك جاهل ولا لعقوبتك متعرّض ولكن سوّلت لي نفسي وأعانني على ذلك سترك المرخى به عليّ فأنا الآن من عذابك مَنْ يستنقذني وبحبل من أعتصم إن قطعت حبلك عني فواسوأتاه غداً من الوقوف بين يديك إذا قيل للمخفين جوزوا وللمثقلين حطوا، أمع المخفين أجوز أم مع المثقلين أحط. ويلي كلما طال عمري كثرت خطاياي ولم أتب، أما آن لي أن استحي من ربي؟ ثم بكى وقال:

أتحرقني بالنار يا غاية المنى ... فأين رجائي ثم أين محبتي

أتيـــتُ بأعمالٍ قبـــاحٍ رديّـــةٍ ... ومـــا في الورى جنٍ كجنايتي

ثم بكى وقال: سبحانك تُعصى كأنك لا ترى وتحلم كأنك لم تُعصَ، تتودد إلى خلقك بحسن الصنيع كأن بك الحاجة إليهم وأنت يا سيدي الغني عنهم. ثم خرّ إلى الأرض ساجداً فدنوت منه وشلت رأسه ووضعته على ركبتي وبكيت حتى جرت دموعي على خده فاستوى جالساً وقال: من ذا الذي شغلني عن ذكر ربي فقلت: أنا طاووس يا ابن رسول الله، ما هذا الجزع والفزع؟ ونحن يلزمنا أن نفعل مثل هذا ونحن عاصون جافون، أبوك الحسين بن علي وأمك فاطمة الزهراء وجدك رسول الله.

قال: فالتفت إليّ وقال: هيهات، هيهات يا طاووس دع عني حديث أبي وأمي وجدي، خلق الله الجنة لمن أطاعه ولو كان حبشياً، وخلق النار لمن عصاه ولو كان سيداً قرشياً، أما سمعت قوله تعالى ﴿فإذا نفخ في الصور فلا أنسابَ بينهم يومئذ...﴾ والله لا ينفعك غداً إلا تقدمة تقدمها من عمل صالح...

ففي هذه الحادثة الرائعة نقف أمام نموذج من أرقى النماذج البشرية على الإطلاق وندرك السر العميق في تقدم أهل البيت صلوات الله عليهم على جميع العالمين. إنهم عرفوا الحقيقة ووقفوا عليها وعاشوا معها وتفاعلوا مع إرادتها فكانوا من أخلص الناس لله وأشدهم تعبداً له ورهبة منه. كانوا يعدّون العدّة لذلك الموقف الرهيب ويستعدون للإجابة عن كل حركة قاموا بها أو يقومون. إنهم لم يعصوا الله ما أمرهم ومع ذلك كانت هذه سيرتهم... كانوا يرسمون لنا الطريق ويضعون لنا المعالم البارزة التي تقودنا إلى مرضاة الله وجنانه... فإن هذه العقبة لا بد وأن توصل إلى أحد موضعين، في أحدهما يجد الإنسان النعيم والسرور والكرامة والعزة وفي الآخر يجد الذل والهوان والخزي والعار؛ في الأول يدرك رضا الله ويفوز بجنة عرضها السماوات والأرض وفي الآخر يهوي إلى النار وغضب الجبار، ويا بئس المنزل والمكان.

إن هذه النتيجة التي تنتظر الإنسان بعد العقبة يستطيع أن يقررها بيده. وأي عاقل يتنازل عن الجنة وما فيها؟ وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا

خطر على قلب بشر ، ولكن هذا المقصد والهدف يتطلب منك أن تقدم أمامك وأنت في دار الدنيا ، أن تقدم ما يؤهلك للوصول إلى مرادك. وما يؤهلك لذلك إنما هو العمل الصالح والإحسان للناس ومعونتهم وتخفيف آلامهم والقيام بأوامر الله كلها والإجتناب عن معاصيه كلها ، فإذا الجنة بين يديك وإذا أنت في رياضها ونعيمها... واما إذا وفدت بدون أعمال صالحة فليس لك عودة إلى الدنيا كي تحسّن أعمالك وتقوم بالواجب عليك وتدرك الجنة من جديد. إنه إمتحان واحد من استعدّ له ونجح فاز ومن أهمل وضيّع سقط ولم يُفلح ولم يستطع تدارك ما فات...

«وأعلَمْ أنَّ الذي بيده خزائنُ السماواتِ والأرض قد أذِنَ لك في الدعاء وتَكَفَّلَ لك بالإجابةِ، وأمرك أن تسألَه ليُعطيَكَ وتسترحمَه ليرحمَكَ ولم يجعَلْ بينك وبينه مَنْ يحجُبُكَ عنه، ولمْ يُلجئْك إلى من يشفعُ لك إليه ولم يمنَعْك إنْ أسأت من التوبةِ، ولم يُعاجِلْك بالنّقمة، ولم يُعيّرك بالانابة، ولم يفضحْك حيثُ الفضيحةُ بك أولى، ولم يُشدّدْ عليك في قبول الأنابةِ، ولمْ يناقِشْك بالجريمة ولم يُؤيسْكَ من الرحمة، بَلْ جعل نزوعَك عن الذنب حسنةً وحَسَبَ سيئتك واحدة، وحَسَبَ حسنتك عَشْراً، وفتح لك باب المثابِ وبابَ الأستِعْتَابِ..».

اللغة:

الانابة: الرجوع.

النقمة: المصيبة والعقوبة.

النزوع: الرجوع.

في هذا الفصل الشريف من الوصية العلوّية يطرح الإمام أمامنا مسألتين وهما من صلب الإيمان ومن أهم الواجبات في الإسلام (الدعاء، والتوبة) ونحن نريد أن نقف أمام كل موضوع وقفة قصيرة.

الدعاء: تعبير عن لقاء بين هذا الإنسان وبين الله، فالعبد يتوجه إليه بخشوع وضراعة وهو تعالى يُقبل عليه ويستجيب له فيلتقي الدعاء مع الإجابة للتدليل على أن الله الخالق البارىء المصور الذي خلق هذا الكون وصوّره ونفخ في هذا الإنسان فأحياه لم يتخلّ عنه ولم يتركه وشأنه في متاهات الحياة ومساربها بل هو قريب منه يسمع شكواه وتضرّعه، بل أكثر من ذلك هو

الذي يأمر هذا العبد ويدفعه إلى الدعاء والسؤال كي يتوجه هذا العبد بإخلاص وصفاء ونزاهة نحوه يَنْشُدُه وينقطع إليه فيحقق العبودية الكاملة باللجوء إليه والاستغناء به عن من سواه..

الدعاء والقرآن:

أكد القرآن على التزام الدعاء والتعبدّ به والحث عليه والإعتناء به وهذه نماذج قليلة مما ورد فيه.

- قال تعالى: ﴿وإذا سألك عبادي عني فاني[1] قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعاني فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾.

- قال تعالى: ﴿وقال ربكم ادعوني[2] استجب لكم ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾.

- قال تعالى: ﴿فادعوا الله[3] مخلصين له الدين﴾.

- قال تعالى: ﴿قل ما يعبأ[4] بكم ربي لولا دعاؤكم﴾.

الدعاء والسنة:

- قال رسول الله ﷺ: الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ونور السماوات والأرض.

- قال رسول الله ﷺ: ما من شيء أكرم على الله تعالى من الدعاء.

- عن حنان بن سدير عن أبيه قال: قلت للباقر عليه السلام: أي العبادة أفضل؟ فقال: ما من شيء أحب إلى الله من أن يُسألَ ويُطلب ما عنده وما

---

(١) البقرة، آية: ١٨٦.

(٢) سورة المؤمن، آية: ٦٠.

(٣) سورة المؤمن، آية: ٢٤.

(٤) سورة الفرقان، آية: ٧٧.

أحد أبغض إلى الله عز وجل ممن يستكبر عن عبادته ولا يَسأل ما عنده.

- عن الصادق عليه السلام: عليكم بالدعاء فإنكم لا تقربون إلى الله بمثله ولا تتركوا صغيرةً لصغرها أن تدْعوا بها فإن صاحب الصغار هو صاحب الكبار.

- عن علي عليه السلام قال: أحبّ الأعمال إلى الله سبحانه في الأرض الدعاء وأفضل العبادة العفاف.

تساؤل:

إذا كان الله تعالى يحب الدعاء ويحث عليه ويَعِدُ الإنسان بالإستجابة له فما معنى عدم الإستجابة لكثير من الداعين والمتوجهين إليه؟! إننا ندعوه كثيراً ونتوسل إليه كثيراً ونضرع إليه كثيراً ومع ذلك لم نجد الإستجابة إلا في بعض الأحيان فما هو السر في ذلك؟! إن السر في ذلك هو عدم إجتماع شرائط الدعاء فكما أن التجربة لا تعطي نتيجتها المطلوبة إلا إذا اكتملت كل عناصرها كذلك الدعاء لا يكون مستجاباً إلا إذا اجتمعت فيه كل الشرائط ونحن نذكرها باختصار.

الأول: الإخلاص في الدعاء بأن يخرج الدعاء من القلب، من العمق الداخلي للإنسان، بأن يستشعر عظمة الله ويستحضر حاله بين يديه، ويناجيه بصدقٍ ويقين فيشعر عند دعائه أنه أمام الله من حيث ان الله يرى المقام ويسمع الكلام ويخاطبه بتضرّع وخشوع وتوجّه وانقطاع. وهذا ما عبّرت عنه الآية الكريمة ﴿وادعوه مخلصين له الدين..﴾. وهكذا في تعبير الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول: إن الله لا يستجيب دعاء بظهر قلب ساه فإذا دعوت فاقبل بقلبك ثم استيقن الإجابة.

الثاني: تقوى الداعي بأن يكون المسلم ملتزماً جانب السماء لا ينحرف يميناً ولا شمالاً ولا يترك واجباً أو يرتكب محرماً بل يكون مستقيماً في سلوكه سائراً على الجادة الواضحة التي رسمها الله تعالى فإنما يتقبل الله من المتقين الذين خافوا من الله وحسبوا له حسابه في أيام رخائهم كما حسبوا حسابه في أيام

شدتهم... أمّا من كان يمجّ بالمعاصي ويتقلب بالحرام ويسبح في بحار الرذيلة فهذا بعيد عن الإستجابة.

- عن الإمام جعفر بن محمد عليهما السلام قال: إذا أراد أحدكم أن يستجاب له فليطب كسبه وليخرج من مظالم الناس وان الله لا يُرفع إليه دعاء عبدٍ وفي بطنه حرام أو عنده مظلّمة لأحد من خلقه.

- عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من عذر ظالماً بظلمه سلّط الله عليه من يظلمه وان دعا لم يستجب له ولم يؤجرْه الله على ظلامته.

- عن بعض أصحاب الإمام الصادق قال: قلت له: آيتان في كتاب الله لا أدري ما تأويلهما؟ فقال: وما هما؟ قال: قلت: قوله تعالى: ادعوني استجب لكم ثم أدعو فلا أرى الإجابة. قال: فقال لي: أفترى الله تعالى أخلف وعده؟ قال: قلت: لا... إلى أن قال: لكني أخبرك إن شاء الله تعالى: اما أنكم لو أطعتموه في ما أمركم به ثم دعوتموه لأجابكم ولكن تخالفونه وتعصونه فلا يجيبكم..

الثالث: المصلحة في المطلوب- والتعجيل:

الإنسان باعتباره يجهل الكثير من المصالح فربما دعا بما فيه الضرر له والله سبحانه نظر إلى ذلك حينما قال ﴿ويدعو الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولاً﴾ فإذا دعا بما فيه ضرر عليه فالله لن يستجيب له إذ ربما رغبتَ الزواج بامرأة كانت في نظرك صالحة مطيعة ذات أخلاق حسنة فتدعو الله أن يوفقك للزواج منها ولكن الله باعتباره الخالق والعالم بالحقيقة والواقع بما أنه يعلم واقعها وانها على خلاف ذلك فلا يستجيب لمصلحة راجعة لك فنظرك كان سطحياً وعلى أساسه رغبت فيها جاهلاً ما سوف يقع من مشاكل وأحداث إذا تمّ الزواج. وهذا ما عبّر عنه الإمام بدعائه: ولعل الذي أبطأ في الإجابة عني هو خير لي لعلمه بعاقبة الأمور. هذا في المصلحة الشخصية وقد تكون المصلحة العامة هي المطلوبة كما لو دعوت الله أن ينزل الغيث لمصلحتك الشخصية مع أن نزوله فيه ضرر عام...

وكذلك قد يستجيب الله الدعاء ولكن يؤخذ التنفيذ إلى الوقت المناسب لمصلحة يعلمها هو ونجهلها نحن.

عن أبي عبد الله (ع) قال: إن العبد ليدعو فيقول الله عز وجل للملكيْن قد استجبت له ولكن احبسوه بحاجته فاني أحب أن أسمع صوته..

عن أبي عبدالله قال: كان بين قول الله عز وجل (قد أجيب دعوتكما) وبين أخذ فرعون أربعون عاماً.

آداب الدعاء:

ذكرت كتب الأدعية آداباً ينبغي أن يكون[1] عليها الداعي منها:

١- ما يتقدم الدعاء: وهو الطهارة وشم الطيب والرواح إلى المسجد والصدقة واستقبال القبلة، وحسن الظن بالله في تعجيل إجابته وإقباله بقلبه وأن لا يسأل محرماً وتنظيف البطن من الحرام بالصوم وتجديد التوبة.

٢- ما يقارن الدعاء وهو ترك العجلة فيه والاسرار به والتعميم وتسمية الحاجة والخشوع والبكاء والاعتراف بالذنب وتقديم الاخوان ورفع اليدين به والدعاء بما كان متضمناً بالأسم الأعظم والمدحة لله والثناء عليه تعالى وأيسر ذلك قراءة سورة التوحيد وتلاوة الأسماء الحسنى.

٣- ما يتأخر عن الدعاء وهو معاودة الدعاء مع الاجابة وعدمها وان يختم دعاءه بالصلاة على محمد وآل محمد وقول ما شاء الله لا قوة إلا بالله.

٤- أن يتحيَّن الأوقات الشريفة.

من لا تستجاب دعوته:

هناك روايات تعرضت لأسباب عدم إجابة الدعاء ولعل أهمها أن لا يكون الانسان متواكلاً متخاذلاً كسولاً خمولاً يعتمد على الدعاء فحسب دون

(١) عن البحار.

الأخذ بالأسباب والمقدمات التي أمر الله بها. فإن العبد إذا توجّه إلى الله وترك الأخذ بالأسباب التي جعلها الله لا يكون دعاؤه ناجحاً لأنه لم يستكمل شروطه التي من جملتها تهيئة الأسباب، فإن الله وان كنا نعتقد ونعلم أنه القادر- أنه يخرق الأسباب وتحصل المعجزة بكلمة (كن) فيكون، هو سبحانه الذي جعل قبول الدعاء مشروطاً بتهيئة المقدمات من الانسان فمن مرض وجب عليه ان يذهب إلى الطبيب ويستعمل الأدوية، ومع ذلك يتوجه إلى الله بالدعاء، فيكون قد فعل ما أمره الله به، ومن أراد أن ينتصر في معركته على الأعداء هيأ أسباب النصر من العدّة والعدد والقوة ثم يدعو الله فيستجيب الله دعاءه. فالرجوع إلى الأسباب ترجع إلى الله الذي جعلها وفرض علينا القيام بها؛ وما ذلك إلا لكي نرفض الخمول والكسل والتواني وهذه نماذج لمن لا يستجيب الله دعاءه:

- عن الصادق عليه السلام: أربعة لا يستجاب لهم دعاء؛ رجل جلس في بيته يقول: يارب ارزقني، فيقول له: ألم آمرك بالطلب؟ ورجل كانت له امرأة فدعا عليها فيقول: ألم أجعل أمرها بيدك؟ ورجل كان له مال فأفسده فيقول: يا رب ارزقني، فيقول له: ألم آمرك بالإصلاح ثم قرأ: ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتّروا وكان بين ذلك قواما﴾، ورجل كان له مال فأدانه بغير بيّنة فيقول: ألم آمرك بالشهادة...

ففي هذا الحديث الشريف نقف على أهمية السبب ودوره في إستجابة الدعاء وإن من تركه لا تقبل دعوته.

الدعاء في أيام الرخاء:

كثيرون هم الذين لا يعرفون الله إلا في أوقات الشدة والألم وفي أوقات المصيبة والنكبة، وأما إذا انكشفت عنهم تلك الغيوم السوداء نسوا الله ولم يتعرفوا عليه... إذا كانوا في رخاء وسعة وفي صحة وأمن لم يعرفوا الله ولم يحسبوا حسابه ولم يتوجهوا اليه بالدعاء والضراعة، وهذا ما عبّر الله تعالى

عنه بقوله: ﴿وإذا مسّ الانسان ضرٌّ دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضرّه مرّ كأن لم يدعنا إلى ضرٍ مسه كذلك زُيّن للمسرفين ما كانوا يعملون﴾. وقال تعالى: ﴿وإذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض﴾. فهذه الآية القرآنية تكشف حقيقة يعيشها الكثيرون منا إن لم نكن كلنا نعيشها.. وهي تذّم هؤلاء القوم وتريد من الانسان أن يكون مع الله في سرائه، كما هو في ضرّائه وفي ضيقه كما هو في سعته، يجب أن يبقى هذا الإنسان مع الله في كل أحواله بل الأحاديث الشريفة تؤكد على أن المؤمن يجب أن يكون أقرب إلى الله في حال الرخاء من أيام البأساء والضراء..

- عن النبي ﷺ: (تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة فإذا سألتَ فاسأل الله وإذا استعنتَ فاستعنْ بالله..).

- قال الامام الصادق عليه السلام: «أوحى الله تبارك وتعالى إلى داود عليه السلام: اذكرني في سرائك استجب لك في ضرائك.»

لمن ندعو:

وردت الأحاديث في الحث على أن يدعو المؤمن لأخيه المؤمن بظهر الغيب أكثر مما يدعو لنفسه، وهذه النظرة الاسلامية تعكس صورة التعاون بين أفراد المجتمع الاسلامي فيشعر الأخ أن معه الناس كلهم فانهم اذا لم يستطيعوا أن يقدموا له معونة أو يرفدوه بما هو بحاجة إليه، أو ينقذوه من المحنة التي ألّمت به فإنّهم معه في شعورهم وعواطفهم وأفكارهم يعيشون معه ألمه ومشاكله وكما يقول الشاعر:

لا خيلَ عندك تهديها ولا مالُ   فليسعد النطق إن لم تُسعِد الحالُ

فلئن عز الحل واستعصت المشكلة لقصرٍ في اليد أو لعدم الحيلة لوجه المطلوب، فليكن الدعاء هو الوسيلة التعبيرية عن الرصيد الداخلي لهذا الانسان اتجاه أخيه الانسان...

وإن هذه الأحاديث الكريمة تعكس مدى فيض الله وجوده ومقدار كرمه وعطائه، وكيف يعطي الداعي لأخيه ضعف بل أضعاف ما طلبه لأخيه وتلك فيوضات الله وعطاءاته السخية الكريمة.

- يقول الصادق عليه السلام: من دعا لأخيه بظهر الغيب وكّل الله به ملكاً يقول: ولك مثلاه فأردت أن أكون إنما أدعو لإخواني ويكون الملك يدعو لي لأني في شك من دعائي لنفسي ولست في شك من دعاء الملك لي.

- عن عبدالله بن سنان قال: مررت بعبدالله بن جندب فرأيته قائما على الصفا وكان شيخاً كبيراً فرأيته يدعو ويقول في دعائه: اللهم فلان بن فلان، اللهم فلان بن فلان، اللهم فلان بن فلان ما لم أحصهم كثرة. فلمّا سلّم قلت له: يا عبد الله لم أرَ موقفاً قط أحسن من موقفك إلا أني نقمت عليك خلة واحدة.

فقال لي: وما الذي نقمت عليّ.

فقلت له: تدعو للكثير من اخوانك ولم أسمعك تدعو لنفسك شيئاً. فقال لي: يا عبدالله سمعت مولانا الصادق عليه السلام يقول: من دعا لأخيه المؤمن بظهر الغيب نودي من أعنان السماء: لك يا هذا مثل ما سألت في أخيك ولك مئة الف ضعف مثله، فلم أحب أن أترك مئة ألف ضعف مضمونة بواحدة لا أدري تُستجاب أم لا..

وانظر إلى هذه الحادثة لبعض الصالحين التي تدلّل على أن المؤمن يجب أن يتفاعل مع إخوانه ولا يقتصر على ألفاظ الدعاء فحسب، بل يجب عليه أن يمد إليهم يده بكل ما يستطيع ويوفر لهم أسباب النجاح لكل غاية يأملونها ولكل مشكلة يريدون حلّها. يقال إنَّ بعض الصالحين كان في المسجد يدعو لإخوانه بعدما فرغ من صلاته، فلما خرج من المسجد وافى أباه قد مات، فلما فرغ من جهازه أخذ يقسّم تركته على إخوانه الذين كان يدعو لهم فقيل له في ذلك. فقال: كنت في المسجد أدعو لهم في الجنة وأبخل عليهم بالفاني...

مدرسة أهل البيت في الدعاء:

تمتاز مدرسة أهل البيت بمنهاج خاص في الدعاء. تجد على كل فقرة من الفقرات الثابتة عنهم روح العترة الطاهرة وأنفاس أهل بيت النبوّة، إنها تمتاز بقوة السبك وعمق المعنى تشدّ الفرد إليها قهراً عنه وتطهره من كل خبث وزيف وتجعل منه إنساناً صالحاً تنعكس على نفسه كل معالم الخير والرحمة والتعاون والتآلف...

إن هذه الأدعية تمثل خلاصة الاسلام في تعاليمه ومفاهيمه عن الله وعن الإنسان، عن الكون وعن الحياة، عن الموت وما بعد الموت، وتُعد الفرد إعداداً فذاً لمواجهة المجتمع ومشاكله وأحداثه وشؤونه، وتدخل إلى نفس هذا الإنسان لتصفيها من جميع الشوائب والمشاكل وتطهّرها من جميع النقائص والرذائل وتحملها على جناح الفضائل إلى رحاب الله ورحمته.

فانظر إلى دعاء كميل المروي عن أمير المؤمنين تجد صحة ما نقول، وعرّج على دعاء الصباح أيضاً وكرر النظر فتجد التعليم والارشاد والنصيحة والموعظة وتجد العظمة والسمو...

وهكذا أرم ببصرك نحو الصحيفة السجادية (زبور آل محمد) فاقرأها وتمعّن بها وفكر في فقراتها، وأحكم كما شئت ولا أراك إلا أن تحكم بأنها تشكل الحلقة المفقودة عند سائر المذاهب الإسلامية الأخرى. إنها حلقة تربط القرآن بالسنّة بمفاهيم الإسلام وتعاليمه وأنعم بها من حلقة ترفع الرأس ويعلو بها الجبين.

هذا الحديث كله كان بالنسبة إلى الدعاء قدّمناه بصوره موجزة وكنّا قد وعدنا بالحديث عن التوبة، وقد جاء دورها...

التوبة:

المعصية تمرُّدٌ على الله وطغيان على أحكامه؛ إنها تشكل الوقوف في وجهه والتحدّي له في بعض صورها، وتشكل في بعضها الآخر ضعفاً في الإيمان وخفةً في اليقين، يتغلّب فيها جانب النفس والشهوة على جانب الأوامر الآلهية

والأحكام الشرعية. المعصية عملية اجتياز للقانون ومخالفة له؛ وبمقدار احترام المشرّع ونفوذ كلمته لديك وقيمته عندك تحاول أن تمتنع عن مخالفة أحكامه، بل تسعى بكل طاقاتك أن تقترب منه باظهار الطاعة والمودّة وحصول أكبر مقدار من الامتثال لكل أمنياته فضلاً عن أوامره وأحكامه. وإذا كانت المعصية تشكل التمرّد والطغيان فإن التوبة إليه تشكل الرجوع والانابة، وتشكل الندم والاعتذار وتشكل التصميم على السير وفق نهجه الذي رسمه والخطة التي يرتئيها. إنها تتمثل بلوعةٍ في القلب وبحرقة اثم المعصية السابق ودمعة في العين يسكبها التائب في جوف الليل، وتصميم على عمل البر والخير فيما بقي من أيام عمره. التوبة عودة إلى رحاب الله الواسعة، إلى الطاعات والأعمال الصالحة.. إلى كنف جبّار السماوات والأرض، إلى القوة المطلقة المهيمنة على الكون والوجود، إلى مصدر النعم ومفيضها على الكائنات بأسرها...

بين التوبة الاسلامية والاعتراف المسيحي:

بين التوبة والاعتراف المسيحي فارق جوهري، ففي حين أن التوبة رجوع إلى الله واستغفار منه، وهو الذي عُصي نجد أن الرجل في المسيحية يقف امام القس ليعترف بكل جرائمه والحرافاته ظناً منه أن هذا الاعتراف يمحو عنه السيئات ويكفّر الخطيئات، والاسلام يرى حرمة الحديث أمام الناس في المعصية التي اقترفها الفرد، لأنه يعترف لأنسان خطّاء مثله يحتاج هو إلى الاعتراف، مضافاً إلى أن هذا الشخص المعترف أمامه من هو الذي وكّله عن الله حتى يُعترف أمامه!؟ وقد يكون أسوأ حالاً من صاحب الاعتراف.

ففي حين يقف المسلم أمام الله الذي عصاه وقفة عودة إليه ورجوع الى رحابه، يناجيه بلسانه ويتوجه إليه بقلبه دون واسطة ولا شفيع، يقف المسيحي أمام إنسانٍ مثله ليفضح نفسه ويهتك ستره ويظهر معايبه دون أن يملك الوسيط حق الشفاعة أو المغفرة. الاعتراف في المسيحية مبني على الطبقية وان

هناك طبقة الكهنة تمتلك حق المغفرة للذنب وبيدها الحل والعقد دون سائر الناس. وهذا خلاف النظرة الإسلامية التي ترفض مصطلح رجال الدين، كما ترفض احتكار إقامة الشعائر الدينية ضمن طبقة معيّنة تمتاز عن غيرها؛ إذ يرى الإسلام إن المسلمين كلهم مكلفون بمعرفة دينهم يؤمّهم في صلاتهم العدل منهم ويعقد لهم عقد النكاح أيّ إنسان يعرف أداء صيغته كما يُحُلُّ هذا العقد بالطلاق كل من كان عدلاً وقد توفرت شروط الطلاق، وهكذا سائر التكاليف يشترك فيها المسلمون كلهم دون ميزة لأحد منهم على الآخرين إلا بالعلم والتقوى..

الاعتراف في المسيحية تكريس لسلطة رجال الدين الذين مارسوا الظلم خلال العصور المظلمة من التاريخ حيث تحالفوا مع الملك الظالم والإقطاعي الفاسد في قهر الشعب الأعزل واستعباده. وقد كان لقضية صكوك الغفران والنكتة التي يعبّر عنها شراؤها أسوأ الأثر على الدين والله، وألحق الضرر بكل الأديان ورسالات السماء. ولولا هذه الطبقية لرجال الدين المسيحي والممارسات الحمقاء التي استغلوا فيها الدين من أجل صيد الدنيا لما كان للشيوعية أثر أو خبر، ولكن ردة الفعل على تجاوزات رجال الدين المسيحي جاءت ماركسية تحارب الدين وتعاديه وتنبذه بكل عيب وضلال.

فما أجل وأروع الوقفة أمام الله الذي يملك الحكم والأمر والنهي، وما أقبح الوقفة أمام إنسانٍ مثلك لا يملك من أمره فضلاً عن أمرك شيئاً.

الوقفة أمام الله وقفة عز وشموخ ورجوع إلى مالك السماوات والأرض والوقفة أمام الانسان وقفة مضحكة ومسرحية صنعتها أيدي التجار من رجال الدين.

التوبة في القرآن:

أكد القرآن على وجوب التوبة والرجوع إلى الله في أكثر من آية من آياته.

- قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً﴾.[1]

- قال تعالى: ﴿ألم يعلموا ان الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وان الله هو التواب الرحيم﴾.[2]

- قال تعالى: ﴿... وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾[3].

- قال تعالى: ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون﴾[4].

- قال تعالى: ﴿... إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾...[5]

التوبة في السنة:

وقد وردت أيضاً الأحاديث الشريفة عن المعصومين تؤكد وجوب التوبة وتحث عليها وتبين شروطها وأهميتها ونحن سنكتفي بنقل عيّنات من تلك الأحاديث الكريمة...

١- قال رسول الله ﷺ : التائب حبيب الله، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

٢- قال الإمام الباقر عليه السلام: إن الله تعالى أشد فرحاً بتوبة عبده من رجل أضل راحلته وزاده في ليلة ظلماء فوجدها؛ فالله أشد فرحاً بتوبة عبده من ذلك الرجل براحلته حين وجدها..

٣- عن الإمام الباقر عليه السلام: التائب من الذنب كمن لا ذنب له والمقيم على الذنب وهو مستغفر منه كالمستهزىء.

---

(١) سورة التحريم، آية ٨.
(٢) سورة التوبة، آية ١٠٤.
(٣) سورة النور، آية: ٣١.
(٤) سورة الشورى، آية: ٢٥.
(٥) سورة البقرة، آية ٢٢٢.

التوبة الصحيحة:

قد يظن البعض أن كل من قال استغفر الله وأتوب اليه أو من ندم على فعل القبيح وتركه قد تحققت توبته وقبل اعتذاره، ولكن الصحيح أنه يجب مع ترك المعصية نهائياً والندم عليها والاستغفار منها أن يقوم بما يليه عليه الله من الاصلاح والتدارك لما فات، فان هناك اموراً يجب أن تتدارك بإقامتها أو ردّها إلى أهلها او الاستحلال منهم او الاستغفار لهم وغير ذلك.

- فمن ترك الواجبات كالصلاة والصيام والحج والزكاة والخمس وجب عليه كي تتحقق التوبة الصحيحة أن يقوم بقضائها كلها.

من ارتكب المحرمات كالزنى وشرب الخمر والسحاق وغيرها ان يندم على فعلها وينوي عدم العودة اليها أبداً.

- ومن ارتكب أمراً بينه وبين العباد كالسرقة منهم والغصب وجب عليه أن يرد المسروق والمغصوب وكذا وجب أن يرد كل ما أخذه من الربا، فإن كان صاحبها موجوداً وهو غني أوصلها إليه وإلاّ وجب الاستحلال والمسامحة منه، وإما إذا كان غائبا ولا يعرف مكانه استغفر الله له وطلب المغفرة والرحمة.. وتصدّق به عنه..

- وان كانت المعصية قتل نفس خطأ أوصل الدية إلى أهله وان كانت عمداً اعترف أمامهم وخيّرهم بمقتضى الشرع بين الأمور المذكورة في كتب الفقه وهكذا دواليك في سائر الأمور. فليس التوبة مجرد لقلقلة لسان وإنما هي حرقة في الجَنان، وكما قال أمير المؤمنين عليه السلام لمن قال بحضرته: استغفر الله: ثكلتك أمك. أتدري الاستغفار؟ إن الإستغفار درجة العليين وهو اسم واقع على ستة معانٍ:

أولها: الندم على ما مضى.

والثاني: العزم على ترك العود إليه أبداً.

والثالث: أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة.

والرابع: أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيعتها تؤدي حقها.

والخامس: أن تعمد الى اللحم الذي نبت على السحت فتُذيبه بالأحزان حتى يلصق الجلد بالعظم وينشأ منها لحم جديد.

السادس: أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية، فعند ذلك تقول استغفر الله...

وهذا الحديث الشريف من الامام يكشف لنا حقيقة التوبة وجوهرها وما يتبعها من الواجبات التي يجب أن تتوفر فيها كي تقع صحيحة...

كل ذنب قابل للتوبة:

أريد أن ألفت النظر هنا إلى أن كل ذنب يقبل التوبة، وليس في المقام ذنب لا يغفر، بل ان الذنوب كلها قابلة للتوبة صغيرها وكبيرها مهما تصور الانسان كبر الذنب وشدته ومهما عظم في عينه وتضخم عنده؛ فعند الله ليس كبيراً ولا جليلاً إذا تداركته التوبة الصحيحة والرجوع إلى الله رجوعاً سليماً، فإن قدرة الله لا يعجزها ذنب خاطىء أو انحراف منحرفٍ إذا عاد اليه واستغفره وتاب...

قال تعالى: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم﴾[1] فهذه الآية الكريمة تفصح ان الله يغفر الذنوب جميعاً فليس عند العصاة من ذنب مهما عظم إلاّ وهو قابل للتوبة والله يقبلها اذا استكملت شروطها..

وإن العصاة مهما كانت جرائمهم يجب أن يضعوا في تصوّرهم أن الله يغفرها إذا صدقوا في توبتهم ولا يَظُنُّنَّ أن جرمهم أكبر من عفوه فظنهم ذاك أكبر من

(١) سورة الزمر، آية: ٥٣.

خطيئتهم لأن هذا الظن فيه تحديد لصلاحية الله وقدرته من جهة وفيه تكذيب لصريح هذه الآية الكريمة التي تنطق بكل صراحة بقبول كل الذنوب للمغفرة...

إن القنوط من رحمة الله واليأس من مغفرته أكبر من الذنب وأشد، وهذا التصور يجب أن يضعه الانسان أمامه ويتحرك على أساسه ولذا نهى الله عن القنوط من رحمته كما نهى عن اليأس منها كما قال: ﴿ولا تيأسوا من روح الله انه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾[1].

ونحن من هذا البيان لأهمية الدعاء ودوره في صقل روح المؤمن ونفسه، ولأهمية التوبة ودورها وأهميتها، نرى الامام في فقراته العلوية يشدد على التوجه نحو الله بالدعاء ويقول: (واعلم ان الذي بيده خزائن السماوات والأرض قد أذن لك في الدعاء وتكفّل لك بالإجابة)- أدعوني استجب لكم- (وأمرك أن تسأله ليعطيك وتسترحمه ليرحمك ولم يجعل بينك وبينه من يحجبك عنه ولم يلجئك إلى من يشفع لك إليه..) بل يستطيع كل فرد أن يلتقي بالله في دعائه ويتوجه اليه في آناء الليل وأطراف النهار، فليس هناك أوقات محظور فيها اللقاء وليس هناك موانع بل كل الأبواب مشرعة في كل الاوقات والأزمان.

وكذلك يشدد الامام على التوبة فيقول: (ولم يمنعك إن أسأت من التوبة ولم يعاجلك بالنقمة)، وكما في الدعاء وانما يعجل من يخاف الفوت- (ولم يعيرك بالإنابة) كسائر الناس الذين إن أسأت معهم عيّروك باعتذارك ورجوعك اليهم.. (ولم يفضحك حيث الفضيحة بك أولى ولم يشدد عليك في قبول الإنابة ولم يناقشك بالجريمة)، بل إذا صحّت توبتك ستر عليك ذنبك ومحاسبتك وسدل الستار عليها وكأن لم تكن.. (ولم يُؤيِسْك من الرحمة بل جعل نزوعك عن الذنب حسنة، وحسب سيئتك واحدة وحسب حسنتك عشراً) كما في التنزيل

---

(1) سورة يوسف، آية: ٨٧.

حيث قال تعالى: ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزي إلا مثلها وهم لا يظلمون﴾.[1]

(١) سورة الأنعام، آية: ١٦٠.

« فإذا ناديتَه سمع نداءك، وإذا ناجيتَه عَلِمَ نجواك، فأفضيْتَ إليه بحاجتِك، وأبْثثتَه ذاتَ نفسِك، وشكوتَ اليه همومَك واستكشفتَه كروبَك، واستعنته على أمورك، وسألتَه من خزائن رحمته ما لا يقدر على إعطائِهِ غيرُهُ من زيادة الاعمار وصحةِ الأبدان، وسعَة الأرزاق. ثم جعل في يديك مفاتيح خزائنه، بما أذِنَ لك فيه مِن مسألتِه، فمتى شئتَ استفتحتَ بالدعاء أبوابَ نعمته، واستمطَرْتَ شآبيبَ رحمته، فلا يُقَنِّطَنَّكَ إبطاء إجابته فإنّ العطيةَ على قدْر النيَّة. وربما أُخِّرَتْ عنك الإجابةُ ليكونَ ذلك أعظَمَ لأجْرِ السائلِ وأجزل لعطاء الآمِلِ ».

اللغة:

النجوى: السر بين إثنين.

أفضيت: ألقيت.

الكروب: الحزن والمشقة.

الشآبيب: الدفعات من المطر.

(فإذا ناديته سمع نداءك) وهو أقرب إلينا من حبل الوريد، وكيف لا يسمع عبده الذي توجه اليه بقلبه وضميره وهو قد أخذ على نفسه أن يستجيب الدعاء ويقبل النداء (واذا ناجيته علم نجواك) وهو الذي يعلم السر وأخفى ويعلم ما تخفي الصدور ولا يخفى على الله خافية (فإذا أفضت اليه بحاجتك وأبثثته ذات نفسك وشكوت اليه همومك واستكشفته كروبك واستعنته على أمورك وسألته من خزائن رحمته ما لا يقدر على اعطائه غيره). فإن الانسان إذا أخلص في الدعاء وأيقن الاستجابة كان الله عند حسن ظنه ويقينه.

وينبغي للمؤمن أن يسأل ربه في أموره كلها ولكن أهمها وأحسنها الزيادة في العمر فانه رأس المال ولكن هذا العمر يكون له جدواه وفائدته إذا كان عامراً بطاعة الله وتقواه وفي خدمة عباده ومصالحهم؛ وكما يقول مضمون بعض الأحاديث: ليس الحياة إلا لأحد رجلين: رجل أخطأ فيتدارك خطأه بالتوبة، ورجل يزداد من طاعة الله..

وإلا فالعمر يكون وبالاً عليه ومصيبة؛ فإن عمراً يُصرف في الملاهي والمجون والخيانة والدعارة ويُلقي صاحبه في جهنم إنه لعمر سيء مشؤوم. وما أكثر الذين تمتد بهم الأعمار ويعمرون في هذه الديار، ولكن أعمارهم كلها قضيت في التفاهات وفي إيذاء الناس واهاناتهم.

مثل هذه الأعمار تعود على أصحابها بالخسران وعذاب الله العزيز الجبار.. فينبغي للمؤمن أن يستغل عمره كله في طاعة الله ومرضاته....

ثم ان من الأمور المهمة والتي تحتاج إلى الدعاء كي تستمر وتدوم (صحة الأبدان)، فإنها النعمة التي لا يعرف السليم قيمتها ولا يدرك أبعادها إلا بعد أن يقع فريسة المرض وعندها فقط يدرك أهمية الصحة وقيمتها وكما قيل: نعمتان مجهولتان الصحة والأمان.. فإن الصحة تجعل من الانسان حركة دائمة ومسيرة مستمرة. بصحة البدن يؤدي المرء حق الله من صلاة وصيام وحج وغيرها، كما يؤدي حق العباد في إعانتهم ومساعدتهم ومدّ يد العون إليهم. بالصحة يحقق الحركة التي تتطلبها الحياة العزيزة الكريمة.. ويحق عمارة البلاد وازدهارها، وأما المرض فانه يُقعد الأسد الهصور والشجاع الغيور، وكم رأينا من الناس العظام الذين ألمّ بهم المرض فأقعدهم عن نشاطهم وشل حركتهم وأوقف مسيرتهم. إن هذا البدن من أشد الأجهزة تعقيداً ومن أدقها حكمة وصنعة فتبارك الله أحسن الخالقين الذي نظم حركة هذا الجسد ورتبها ترتيباً معجزاً في كل شيء. فلو أخذنا العين هذه العدسة اللاقطة للصور تُرى كم فيها من ألياف وأعصاب، وكم فيها من الأمور الدقيقة والجليلة بحيث لو تلف

بعضها لفقد الانسان الرؤية، وكذلك سائر أعضاء البدن تجدها من الدقة والحكمة في منتهى الاعجاز...

إن هذا الجسد العامر القوي الذي كان يتحدى الأبطال والفرسان، إذا نزل به المرض وخصوصاً إذا كان بدرجة قوية فتراه يتراخى ويتهاوى ويطلب النجدة والإسعاف...

وكما يقول أمير المؤمنين (ع): مسكين ابن آدم تقتلة الشرقة وتنتنه العرقة وتؤلمة البقة...

وإزاء هذه الحالات الطارئة على الإنسان والذي لا يعرف متى تحدث وبمّ تحدث، وقد تحدث صباحاً أو ظهراً أو مساءً، قد تحدث من أكلة يتناولها أو شربةٍ يرتوي منها، أو حادثة مزعجة تفقده أعصابه أو غير ذلك مما يمر علينا في الحياة. إزاء هذا الأمر المتوقع في كل لحظة وفي كل أمر يجب علينا أن نغتنم الفرص، فرص الصحة والعافية، يجب أن نغتنم أوقات الصحة لكي نؤدي حق الله وحق العباد لكي نؤدي الواجبات علينا، ونزداد من النوافل والمستحبات...

وكما يقول النبي ﷺ: اغتنم خمساً قبل خمس وعدّ منها (.. صحتك قبل سقمك)، فإن الجسد إذا كان صحيحاً وتهاون الإنسان بالقيام بواجباته أو في ازدياد الخيرات والأعمال الصالحة سيندم وتأكل نفسه الحسرات؛ سيندم عندما يمرض ويرى بأم عينه عجزه عن ممارسة ما يريد وعن القيام بما يتمنى...

ثم يذكر الإمام من الامور التي لا يجب ان ينساها الانسان في دعائه (سعة الأرزاق) فإن الانسان إذا وسّع الله عليه في رزقه وجبَ أن يتحول هذا الرزق إلى طاعة الله؛ ويجب أن يمد به الفقراء والمساكين ويساعد المعوزين والمحتاجين؛ يجب ان يتحول هذا المال إلى طاعة الله المتمثلة في إشباع الجياع وإكساء العراة وبناء البيوت للضعفاء.

إن سعة الرزق تمنع الانسان أن يمد يديه إلى ما عند أخيه، فيمتنع عن

سرقة أموال الناس كما تجعل يده هي العليا واليد العليا التي تعطي أفضل من اليد السفلى التي تأخذ؛ كما أن سعة الرزق يكون بها التوسعة على العيال وفي ذلك راحة واطمئنان..

المال يجب أن يتحول إلى أداة تستخدم في إنعاش المجتمع وفي الترفيه عن الناس يجب أن تتداوله الأيدي بالتجارة تارةً والقرض أخرى والهبة ثالثة والصدقة رابعة والبر والإحسان خامسة وهكذا دواليك... يجب أن يتحول إلى نفع الناس وما فيه خيرهم ولا يجوز أن يتحول إلى غاية وهدف. لا يجوز أن يتحول إلى صنم يتجه إليه الانسان فلا يفكر إلا في اقتناصه وتحصيله وكيفية اختزانه ومنعه عن أهله. لا يجوز أن يتحول المال إلى أداة إفساد ورعب؛ لا يجوز أن يُجْعَلَ رشوة أو وسيلة لقطع الأرحام ومحاربة الأولياء والأتقياء.. يجب أن ينفق في سبيل الله ولا يجوز اختزانه وكنزه كما قال تعالى في كتابه: ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾[1]. إن سعة الرزق نعمة يجب أن يزداد المرء بها من تقوى الله، وحباً له وطاعة لأوامره وشكراً له على إحسانه وكرمه. إن سعة الرزق تستحق أن يقف الانسان عندها وقفة اعتراف بالكرم الإلٓهي فيؤدي شكرها، ولكن للأسف الشديد فبدل ذلك سار أصحاب الأرزاق في الضلال والاسراف والبغي والعناد، لقد حوّلوا هذه السعة في الرزق إلى أداة زرع الفساد ونشر الضلال؛ ولقد رأينا بأعيننا كيف تحوّلت بعض الأموال والأرزاق من نعمة إلى نقمة، ومن منحة إلى محنة، فعندما كان فقيراً كان يتقي الله ويطيعه ولكن عندما مدّ الله له في الرزق والعطاء بغى وطغى فشرب الخمر وأكل الحرام وفتح باب السكر والانحراف وراح يسعى في إضلال الناس وإغوائهم ويساعد على انحراف المجتمع وإفساده. لقد تحول إلى عنصر مخرّب يضرم نار الفساد في كل ما تطاله يده.

---

(١) سورة التوبة، آية ٣٥.

ثم إن الإمام رغبّنا في أن القضية بأيدينا ومفتاح ذلك معنا نستطيع ان نستعمله متى أردنا ولذا قال: (ثم جعل في يديك مفاتيح خزائنه بما أذن لك من مسألته فمتى شئت استفتحت بالدعاء أبواب نعمته واستمطرت شآبيب رحمته.. فلا يقنطنك إبطاء اجابته فإن العطية على قدر النيّة وربما أخرت عنك الإجابة ليكون ذلك أعظم لأجر السائل وأجزل لعطاء الآمل.
وقد تقدم منا في مبحث الدعاء ما ينير لنا الدرب في شرح هذه الفقرات العلوية المباركة...

«وربما سألتَ الشيء فلا تُؤْتَاهُ وأُوتيتَ خيراً منه عاجلاً أو آجلاً، أو صُرِفَ عنك لما هو خيرٌ لك. فلرُبَّ أمرٍ قد طلبتَه فيه هلاكُ دينِك لو أُوتِيتَه. فَلْتكُنْ مسألتك فيما يبقى لك جمالُه ويُنفى عنك وَبَالُه، فالمال لا يبقى لك ولا تبقى له».

نعم ربما طلب الإنسان أمراً فلا يؤتاه ويظن عندها الظنون والخواطر والأوهام ولكن قد يكون بطلبه ذاك ضياع دينه وخسران سعادته (فعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم)، فإن الانسان لقصوره قد يتصوّر أن سعادته تتحقق في هذا الأمر المطلوب ولكنه يجهل أن شقاءه قد يكون فيه.

ثم إن الإمام يوجّه هذا الانسان إلى أن يطلب معالي الأمور وكبارها ويهتم بالعظيم والجليل مما يحقق له سعادة الدارين ويكسبه رضا الله ولا يجعل كل همه في طلب المال الذي لن يبقى لهذا الانسان ولا هذا الانسان يبقى له.

« واعلَمْ يا بُنَيّ أَنك إنّما خُلِقْتَ للآخرةِ لا للدنيا وللفَناء لا للبقاء، وللموتِ لا للحياة، وإنك في منزلِ قُلْعَةٍ ودار بُلْغَةٍ وطريقٍ إلى الآخرة، وأنك طريدُ المَوت الذي لا ينجو منه هاربُه، ولا يَفوتُهُ طالِبُه، ولا بد أنه مُدركهُ. فكُنْ منه على حذر أنْ يُدركَك وأنت على حالٍ سيئةٍ قد كنتَ تُحدّثُ نفسك منها بالتوبة فيَحُول بينك وبين ذلك، فإذا أنت قد أهلكت نفْسك ».

اللغة:

منزل قلعة: أي يقلع عنه ولا يدوم فيه.

البلغة: الكفاية وما يتبلغ به من العيش.

الطريد: ما يطرده السبع ويدركه.

و(اعلم يا بني): أن هناك علة خُلقت من أجلها فيجب أن تكون محط نظرك وجهاد عملك ولا يجوز لك أن تتوانى في تحصيلها أو تتكاسل في طلبها فمن توانى أو تكاسل لم يدرك مطلوبه ولم يحصل على غايته، ومن سوّف في تحصيلها رجع خاسراً خاسئاً يندم في وقتٍ لا ينفع فيه الندم، وان هذه الغاية هي الآخرة التي يجب أن يبذل كل طاقاته من أجل ضمانها وإدراكها. وهذا لا يكون إلا اذا استطاع أن يقوم بمهامه الواجبة عليه واستطاع أن يخترق كل الموانع والعقبات التي قد تعترض طريقه أو تحجز مسيرته.. (إنك إنما خلقت للآخرة لا للدنيا)، وكيف يخلق للدنيا من تنقضي دنياه وهل يخلق لشيء يمر عليه دون استقرار وكيف يخلق لأمر لا دوام له ولا بقاء، مع ما في هذه الدنيا من المتاعب والمصاعب ومع ما فيها من الأحداث والمشاكل. لا لم يخلق الانسان للدنيا كما انه لم يخلق ليبقى فيها. وكما يعبّر الامام إنها منزل (قلعة) يعني يقتلع منها الانسان ولا يبقى فيها بل يتحرك عنها ليحل محله آخرون يقومون فيها بما

رُسم لهم من عمل وما وجب عليهم من حق كما انها دار يتبلّغ بها الانسان إلى الآخرة ويتزود فيها لأجل ان يعبرها نحو الآخرة.

ثم إن الامام ينبّه الأنظار إلى أن الإنسان في هذه الدنيا طريد الموت، فالموت يطارده ولا بد وانه مدركه ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت[1] ولو كنتم في بروج مشيّدة..﴾.

قد تطول بعض الأعمار وقد يقصر البعض الآخر ولكن في النهاية لا بد من هذا الكأس الذي سيشربه كل إنسان. وإذا كان الإنسان ينتظر هذا الزائر القابض فلا بد وان يكون دائم الاستعداد للرحيل، مُوطَّنَ النفس على قبوله. يجب أن يبقى في خط الله وضمن حدوده التي رسمها له.. ولا يجوز له أن يتجاوزها أو يتخطى عنها. لا يجوز له إذا كان عاقلاً رشيداً عالماً، والموت يطلبه وقد يفاجئه في كل لحظة وفي كل ثانية، لا يجوز له أن ينحرف أو يضل ولا يجوز له أن يعصي الله أو يخالفه اذ ربما أتاه الموت وهو على تلك الحالة السيئة التي لم يتداركها بالتوبة فيهلك نفسه ويوبق آخرته. إنها ميتة السوء تلك التي تأتي الانسان وهو على معصية من معاصي الله.. وما أشأمها من ميتة وما أقبحه من مصير.. أدركه الموت وهو متلبّس بالجريمة والمخالفة.. لقد قبض عليه بالجرم المشهود.. قبض عليه وكلتا يديه في دم الضحية سابحة.. وما أصعب الاجابة عندها.. وما أقبح الاعتذار؟! هل يستطيع أن يقف أمام المحكمة العادلة التي لا تطلب شهوداً غير جوارحه وأعضائه..؟ فتبادر اليد لتشهد عليه بما جنى واقترف وتشهد العين عليه بالنظرة الحرام والمشهد الباطل، وتشهد الرجل عليه لأي حرام سار وفي أي طريق سلك. يشهد عليه جلده وسمعه وقلبه وفؤاده. تشهد عليه كل جوارحه يومئذ. ﴿ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون حتى إذا ما جاؤها شهد عليهم سمعهم

---

(١) سورة النساء، آية: ٧٨.

وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون. وقالوا لجلودهم لمَ شهدتم علينا. قالوا: أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة واليه تُرجَعون. وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون﴾[1].

إن المعصية جرية فإذا مات الإنسان على معصية الله يكون كما يقول أمير المؤمنين قد أهلك نفسه، قال عليه السلام: فكن منه على حذر أن يدركك وأنت على حال سيئة قد كنت تحدث نفسك منها بالتوبة فيحول بينك وبين ذلك فاذا انت قد أهلكت نفسك.

---

(١) سورة فصلت، الآيات: ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢.

«يا بُنَيَّ أكْثِرْ مِنْ ذِكْر الموتِ وذكْرِ ما تَهجُمُ عليه وتُفْضِي بعدَ الموتِ إليه، حتى يأتيْك وقد أخذتَ منه حِذْرِكَ، وشددت له أزْرك ولا يأتيَك بغتةً فَيَبْهَرَك وإيّاك أنْ تغترَّ بما تَرى منه إخلاد أهلِ الدنيا إليها وتكالُبهم عليها؛ فقد نبّأ الله عنها ونَعَتْ لك نَفْسَها. وتكشّفت لك عن مساويها؛ فإنما أهلُها كلابٌ عاويةٌ وسباع ضارية يَهِرُّ بعضُها ويأكل عزيزُها ذليلَها، ويقهر كبيرُها صغيرَها. نَعَمٌ مُعَقَّلةٌ وأخرى مهمَلة قد أضلَّت عقولها وركِبَتْ مجهولها، سروحُ عاهةٍ بوادٍ وَعْثٍ، ليس لها راعٍ يقيمها ولا مُسِيمٌ يُسِيمُها؛ سلكت بهم الدنيا طريق العَمَى وأخذَتْ بأبصارهم عن مَنار الهُدى فتاهوا في حَيْرتها وغرِقوا في نِعْمتها واتخذوها رباً فلعبَتْ بهم ولَعِبُوا بها ونَسُوا ما وراءَها. رويداً يُسفِرُ الظلامُ كأنْ قد وردتِ الأظعانُ، يُوشِكُ مَنْ اسرَعَ أن يَلحقَ..»

اللغة:

الحذر: الاحتراس.

يبهره: يغلبه.

أخلد إلى كذا: سكن اليه.

التكالب: التواثب

المساوي: المعايب

ضارية: مولعة بالافتراس.

يهرّ: يعوي وينبح

النعم: الابل

المعقلة: المقيّدة.

مجهولها: طريقها المجهول لها.
السروح: المال السارح.
العاهة: الآفة.
وادٍ وعث: لا يثبت الحافر والخف فيه.
مسيم يسيمها: راعٍ يرعاها.
الأظعان؛ جمع ضعينة الهودج تركب فيه المرأة.

.... • ....

تأكد الحثُّ من الإمام على ذكر الموت والاعتبار بالاموات وما يعقب الموت من منزل الوحشة ودار الغربة، وما في تلك الحفرة الضيقة الصغيرة المعتمة وما ينتاب ذلك الجسد المدلل في دار الدنيا من البلى والتلف، وما يعرض عليه من التحلل والتآكل، فانه سيصبح طعمةً للدود والحشرات، وسيتحول ذلك اللحم الذي نما على الحرام إلى ترابٍ تدوسه الناس بعد مئات السنين. وستصبح تلك العظام القوية إلى رميم، تتفتت إلى ذرّات صغيرة لا يعلمها إلا الله... هذا كله ما نراه بالعين المجردة عند مرورنا على المقابر القديمة أو عندما تفتح بعض القبور الدارسة.. ولكن هذا يجب أن لا ينسينا الموقف الأهم الذي يتعرض له هذا الانسان خلال فترة البرزخ وحساب الملكيْن له، وما أعده الله للمطيعين والعاصين، ويوم الحشر والنشر والعرض والحساب هذه الأمور، وإن كانت غائبة عن حواسنا ولسنا ندركها بعين البصر، فقد أدركناها من منطق الايمان ووقفنا على الكثير من التفصيلات عن طريق أهل بيت العصمة والنبوة حيث زوّدنا الرسول الكريم وأهل بيته بما سوف يتعرض له الانسان وما يمر عليه من المشاهد والمواقف، إنها مشاهد مروعة عندما يعيشها الانسان وهو في دار الدنيا، عندما يقرأها تأخذ بمجامع قلبه وتهزه من الداخل ويشعر أنه يعيش تلك اللحظات القاسية التي يقف فيها أمام الملكيْن ويمر فيها على الصراط وكذلك خروج الناس من الاجداث حفاة عراة، كل انسان قد شغله حاله واهمته نفسه.

ونحن سنذكر طرفاً مما نُقل في هذا المجال كي يقف كل واحد منا على بعض المشاهد فيستعد لها ويعدّ العدّة لذلك اليوم الذي لا بد أن يأتي.. إننا نذكر بعض تلك المشاهد لا لمجرّد العرض بل لكي نستعد لها ونهيّء أنفسنا لاجتيازها بنجاحٍ ونصر.

ونحن سنذكر طرفاً مما نُقل في هذا المجال كي يقف كي يقف كل واحد منا على بعض المشاهد فيستعد لها ويعدّ العدّة لذلك اليوم الذي لا بد أن يأتي.. إننا نذكر بعض تلك المشاهد لا لمجرّد العرض، بل لكي نستعدّ لها ونهيّيء أنفسنا لاجتيازها بنجاحٍ ونصر.

ففي الكافي كما ينقل صاحب المحجة البيضاء باسناده عن امير المؤمنين عليه السلام انه قال: إن ابن آدم إذا كان في آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة مثّل له ماله وولده وعمله فيلتفت إلى ماله فيقول: والله أني كنت عليك حريصاً شحيحاً فما لي عندك؟ فيقول: خذ مني كفنك. قال: فيلتفت إلى ولده فيقول: والله أني كنت لكم محباً وأني كنت لكم محامياً فما لي عندكم؟ فيقولون: نؤديك إلى حفرتك فنواريك فيها، قال: فيلتفت إلى عمله فيقول: والله إني كنت فيك لزاهداً وإنك كنت عليّ لثقيلاً فماذا عندك؟ فيقول: أنا قرينك في قبرك ويوم نشرك حتى أُعرض أنا وأنت على ربك، قال: فان كان لله ولياً أتاه أطيب الناس ريحاً وأحسنهم منظراً وأحسنهم رياشاً، فقال: أبشر بروح وريحان وجنة ونعيم، ومقدمك خير مقدم فيقول له: من أنت؟ فيقول: أنا عملك الصالح المرتحل من الدنيا إلى الجنة. وانه ليعرف غاسله ويناشد حامله أن يعجّله، فإذا أدخل قبره أتاه ملكا القبر يجرّان أشعارهما ويخدان الأرض بأقدامهما، أصواتهما كالرعد القاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف فيقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول: الله ربي وديني الإسلام ونبيي محمد. فيقولان له: ثبتك الله فيما تحب وترضى وهو قول الله عز وجل: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾، ثم يفسحان له في قبره مدّ بصره ثم يفتحان له باباً إلى الجنة ثم يقولان له: نم قرير

العين نوم الشاب الناعم. فإن الله يقول: ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً﴾. قال: واذا كان لربه عدواً فانه يأتيه أقبح من خلق الله زياً ورؤياً وأنتنه ريحاً فيقول له: أبشر بنُزل من حميم وتصليه جحيم وانه ليعرف غاسله ويناشد حملته ان يحبسوه فاذا أدخل القبر أتاه ممتحنا القبر فألقيا عنه أكفانه ثم يقولان له من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول: لا أدري فيقولان: لا دريت ولا هديت فيضربان يافوخه بمرزبه- عصاة كبيرة من حديد- معهما ضربة ما خلق الله من دابة إلا وتذعر لها ما خلا الثقلين ثم يفتحان له باباً إلى النار يقولان له: نَم بشّر حال؛ فيه من الضيق مثل ما فيه القنا من الزجّ حتى أن دماغه ليخرج من بين ظفره ولحمه، ويسلّط الله عليه حيّات الأرض وعقاربها وهوامها فتنهشه حتى يبعثه الله من قبره..

وروى الصدوق في المرور على الصراط عن الصادق عليه السلام قال: الناس يمرون على الصراط طبقات، والصراط أدق من الشعر وأحدّ من السيف فمنهم من يمر مثل البرق، ومنهم من يمر مثل عدو الفرس، ومنهم من يمر حبواً، ومنهم من يمر مشياً، ومنهم من يمر متعلقاً قد تأخذ النار منه شيئاً وتترك شيئاً.

وفي الكافي عن بشير الدهان عن الصادق عليه السلام قال: إن للقبر كلاماً في كل يوم، يقول: أنا بيت الغربة، أنا بيت الوحشة، أنا بيت الدود، أنا القبر، أنا روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار. قال الشيخ الصدوق في رسالة الاعتقاد: اعتقادنا في ذلك- في العقبات التي على طريق المحشر- إن هذه العقبات اسم كل عقبة منها اسم على حدة اسم فرض أو أمر أو نهي، فمتى انتهى الانسان إلى عقبة اسمها الفرض، وكان قد قصّر في ذلك الفرض حُبس عندها وطولب بحق الله فيها، فإن خرج منه بعمل صالح قدّمه وبرحمة تداركُه، نجا منها إلى عقبة عقبة أخرى فلا يزال يُدفع من عقبةٍ إلى عقبة ويُحبس عند كل عقبة فيُسأل عمّا قصّر فيه من معنى اسمها فإن سلم من جميعها انتهى إلى دار البقاء فيحيى حياةً لا يموت فيها أبداً ويسعد سعادةً لا شقاوة

معها، وسكن في جوار الله مع أنبيائه وحججه والصديقين والشهداء والصالحين من عباده، وإنْ حبس على عقبةٍ فطولب بحقٍ قصّر فيه فلم ينجه عمل صالح قدمه ولا أدركته من الله تعالى رحمة زلّت به قدمه عن العقبة فهوى في نار جهنم...)

هذه بعض اللقطات اكتفي بها عن ذكر غيرها ومن أراد الزيادة فعليه براجعة الكتب المتعرضة[1] لذلك وهذه الصور يجب أن يستعد المسلم لمقدماتها فيحسّن أعماله ولا يتهاون فيا فرض الله عليه وأوْجب، بل يبادر إلى إحقاق الحق وإزهاق الباطل وإلى الجهاد والعمل الصالح ويبادر إلى تصحيح مساره وسلوكه كي تتوافق كلها مع أوامر الله ونواهيه وتأتي منطبقة تماماً مع مرادات الله وأحكامه.

إن على المسلم أن يكون دائم الاستعداد للرحيل من هذه الدنيا فيجب أن يقطع تعلّقه بما فيها من بهارج ومن مال وعقار ويكون في شوقٍ مستمر إلى لقاء ربه وخالقه. وهذا الفرد المتطلّع إلى ذلك اليوم الكريم والمنتظر له، إنما هو الصالح من الناس الذي حسن عمله وزكّى تصرفه وأطاع ربه.. إن على المرء أن يكون على الدوام مستعداً للرحيل حتى إذا فاجأه الموت كان على وضع يرضاه الله ويقبله، أمّا إذا فاجأه الموت وهو على خلاف ذلك فانها الخسارة والاهانة ولذا قال الامام (يا بني أكثر من ذكر الموت وذكر ما تهجم عليه وتفضي بعد الموت اليه حتى يأتيك وقد أخذت منه حذرك وشددت له أزرك ولا يأتيك بغتةً فيبهرك)..

ثم إن الإمام ينهاه بل ينهانا عن الاغترار بإخلاد أهل الدنيا إليها وتكالبهم عليها. وما أروع هذا النهي وأجلّه، انه لا يرضى أن نخلد إلى الدنيا خلود أهلها إليها، فإن من أخلد إلى الدنيا وسكن إليها وإطمأنّ بها قطع الأرحام من أجلها وقتل النفوس من أجل تحصيلها وباع الأوطان في سبيلها.

---

(١) مثل كتاب البحار، والحجة البيضاء، وحق اليقين.

من أخلد إلى الدنيا لم يعد يفكر إلا في الحصول عليها والوصول اليها ، ولو كان ذلك على حساب الدين والضمير والمبادىء والقيم. إن كل شيء يتبخّر أمام حفنة من المال يجمعها ، أو لذة يقتنصها ، أو شهرة يرتفع بها أو كرسي يعلو عليها. إن من انقطع الى الدنيا وذاب في أشيائها وملذاتها ابتعد عن الحق وسار في طريق الباطل وغامر بكل ما يستطيع في سبيل تحصيلها. وما نجده أمامنا من الصور المأساوية من أدلّ الأمور على ذلك حيث نجد أهل الدنيا لا ينظرون إلى الفقراء ونجد الطغاة يتحكمون في رقاب الضعفاء ونجد الأقوياء يسيرون في عمليات البطش والدمار. إن حب الدنيا يُعمي ويصمّ فتتقطع به الأرحام فلا الوالد يعطف على ولده ولا الولد يحترم أباه وهكذا دواليك. إن الدنيا إذا تحولّت إلى هدف بذاتها أفسدت الطبيعة البشرية وأضلت العقول السليمة ، وراح كل إنسان يسابق الآخرين من أجل تحصيلها وتحصيل ما فيها .. فيستبيح الغش والخيانة كما يستبيح الربا والسرقة ويستبيح جميع المحرمات من أجل أن يكسب الدنيا ويجمع ثرواتها. ومن هنا شبهها الامام وشبّه أهلها بهذه التشابيه العادلة...

شبّه أهلها بالكلاب العاوية والسباع الضارية فكل واحد يصيح في وجه الآخرين ويشن عليهم حملة مسعورة من أجل مغنم يريده أو مكسب يبتغيه ، وهم كالسباع الضارية الكاسرة ، القوي يأكل الضعيف ، والكبير يقهر الصغير. بعضهم لا يستطيع الحركة فهو كالناقة المعقلة التي رُبطت رجلها فامتنعت عن التصرف كما تشاء بل هي خاضعة لهذا العقال؛ ومنهم مرسلة مهملة تسرح كما تشاء وتتصرف كما تشاء وتعمل ما تشاء فليس لها رادع من دين أو مانع من ضمير فأفسدت وقتلت وسلبت وركبت رأسها وسعت في إضلال غيرها ولكن كل ذلك سيكشف أمام الملك العلاّم فينجو المؤمنون السائرون على خطى الله ويسقط المتهاونون والمبتعدون عن ساحته ورضاه..

« واعْلَمْ يا بُنَيَّ أنَّ من كانت مَطيتهُ الليلَ والنهارَ فإنه يُسارُ بِهِ وإن كان واقفاً، ويقطعُ المسافةَ وإنْ كان مُقيماً وادعاً.

واعلم يقيناً أنك لن تبلُغُ امَلك، ولن تَعْدُوَ أجَلَك، وأنك في سبيلِ مَنْ كان قبلك.. ».

اللغة:

المطيّة: ج مطايا ومطيّ، الدابة التي تُركب ويستوي فيها المذكر والمؤنث.

الوادع: الساكن المستريح.

شبّه الليل والنهار بالمطيّة التي يركبها الانسان ليقطع بها إلى مراده. ولئن كانت المطيّة قد تتعب الراكب وتضنيه اذا استغرقت الرحلة مدة طويلة ويشعر معها بالملل والتعب فان الليل والنهار يسيران بالانسان دون أن يشعر بها أو يحس بوجودها وذلك لأنها يتكرران باستمرار، ومتى تكرر الشيء بطل الاحساس به والتفكير بأبعاده، لأنه يصبح أمراً مألوفاً كجزء منك..

ثم إن الامام ينبّه هذا الانسان إلى أنه لن يدرك أمله ويعني بالأمل ليس أملاً معيناً فلربما أدركه ولكن ما إن يحقق الفرد أملاً إلا وبدت له آمال، وانفتح أمامه الكثير من الآمال. وهكذا دواليك فيأتي الموت والآمال تتراءى أمام الانسان ولا يدركها؛ وهذا شيء مدرك بالوجدان يمر على كل واحد منا، كنا صغاراً وكانت آمالنا لا تعدو آمال اقراننا من أكلة نحصل عليها أو لذة نستوفيها، أو مقدار من المال نكتسبه؛ وعندما تقدمت بنا السن إلى الشباب تبدلت آمالنا فغدت زوجةً وداراً وسيارة ومالاً. ولمّا تحققت هذه الأمور ارتفعت الآمال بارتفاع الهمم والرؤى، فغدت نظرة مستقبلية تتضمن تحقيق الحق وازهاق الباطل وتحرير الأوطان والانسان.. بعد أن تقدمت بنا السن غدت آمالنا تحقيق ارادة الله ونشر الاسلام ورفع راية التوحيد. غدت فكراً

إسلامياً يشع على الكون وشرعة ربانية تحكم الانسان والمجتمع.. إنه الأمل الذي يتجدد في كل مرة ويسير في عدة اتجاهات. والآمال التي تتخذ طابع النظرة الى الله والدار الآخرة آمال ممدوحة لا تخالف أوامر الله ومرضاته بل هي من صميم الاسلام ومقتضيات الايمان ولذا يتقدم الشهداء إلى ساحة المعركة أملاً بالنصر؛ فإن ماتوا قبل تحقيقه فقد يتحقق على أيدي المجاهدين بعدهم، ومن زرع ليأكل هو ان استمر على قيد الحياة أو يأكل غيره إن مات فهو أمل مقبول.. أما الأمل المبغّض هو الذي يُنسي الآخرة ويمنع عن رؤية الحق.. فيسترسل وراء أمله دون نظر إلى عواقب الأمور ونتائجها...

«فَخفِّضْ في الطلَبَ وأَجْمِلْ في المُكْتَسَب فإنّه رُبَّ طَلَبٍ قد جرَّ إلى حَرَبٍ فليس كلُ طالب بمرزوقٍ ولا كل مُجْمِلٍ بمحروم، وأكرِمْ نفسك عن كل دنيّةٍ وإن ساقتك إلى الرغائب، فإنك لن تعتاض بما تبذُل من نفسك عِوَضاً. ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حُراً. وما خيرُ خيرٍ لا يُنال إلا بشرّ، ويُسرٍ لا يُنال إلا بعُسر. وإياك أن توجفَ بك مطايا الطمع فتورّدك مناهل الهلكة، وإنْ استطعت ألاّ يكون بينك وبين الله ذو نعمةٍ فافعلْ فإنك مدركٌ قِسْمَك، وآخذٌ سهمَك. وإنّ اليسيرَ من الله أعظمُ وأكرمَ من الكثير مِن خلقه وإن كان كلٌ منه».

اللغة:

خفض: ارفق.

الحرب: بالتحريك سلب المال.

الدنيّة: الشيء الحقير.

أوجفت: أسرعت.

لقد أُمرنا بالطلب والسعي وراء الرزق وان الجالس في بيته المكتفي بدعاء (اللهم ارزقني) أحد الثلاثة الذين لا تستجاب دعوتهم لأنه قد طلب الرزق بغير أسبابه المشروعة التي وضعها الله وسنّها لتحصيل ذلك. ولكن هذا الطلب والسعي يجب أن لا يكون إلى درجة النهم والجشع بل يجب ان يخفض الانسان فيه ويرفق لئلاّ يحصل على عكس المطلوب فإن بعض أبناء الدنيا تراه ساعياً ليلاً نهاراً في سفره وحضره مجتمعاً مع الناس أو منفرداً بنفسه، حتى في صلاته وعبادته يفكر في الحصول على الدنيا ويبحث في عوامل اكتسابها وربحها. إنك

تراه في هم دائم وحركة مستمرة وسعي متواصل لا ينام إلا في آخر الأوقات وتراه أول الناس قياماً، لا يأكل مع عائلته لقمةً واحدة ولا يراهم إلا في قليل من الأوقات. تراه يشتاق إلى رؤية ابنائه لأنه لا يعود اليهم إلا في آخر وقته عندما يكونون قد رقدوا إلى فراشهم، ويغادرهم قبل أن يستيقظوا. تراه تارةً يركب البحر وأخرى يمتطي الجو وثالثة يقطع المفاوز والجبال. حياة كلها شقاء وتعب وعرق ونصب، حياة مملوءة بالمخاطر والمهالك. يطلب الثراء الفاحش والغنى الكثير، يريد ان يفاخر الأغنياء ويعيش مع الكبار من الطغاة وقوارنة المال. يريد أن يصبح من كبار أثرياء العالم.. ولكن وللأسف ربَّ طلب قد جرّ إلى حَرَبٍ، كما يقول الإمام: فرب إنسان كانت تجارته صغيرة ذات رأس مال قليل تفي بحاجته ومصاريفه وهو بعد في حياة سعيدة فإذا به يحب أن يوسعها ويغامر بما عنده فإذا به يخسر كل ما عنده ويعلن إفلاسه أمام الناس، ورُبَّ مهاجر مغامر قد جنى على نفسه. فليس كل طالب بمرزوق كما ان من اجمل بطلبه فليس بمحروم إذ ربما أتت النعمة ونزل الرزق على انسان يجمل في الطلب ولا يكدح كدح المستميت.. وهذا ما نراه بأم أعيننا...

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقاً

ثم أنه عليه السلام أمرنا أن نكرم أنفسنا عن كل دنيّة مهما كانت عاقبتها. فالسرقة عمل دنيء وسافل وان كان في ذلك تحصيل للمال واكتساب محرم له.. والكذب عمل شائن ومهين وان كان فيه جلب للمنفعة أو دفع للمفسدة. والخيانة جريمة ودناءة وان كان فيها ربح ومال. فإن كل هذا وما يشبهه وان عادت على الفاعل بشيء من الفائدة والربح، ولكنها لن تعدل ما بذله من حق نفسه وماء مُحَيَّاه. لأنه اذا انكشف أمره فسيسقط من أعين الناس ويحتقره المجتمع واذا بقي جرمه بينه وبين نفسه وخيانته لم تتعدّه، فإن كان ذا دين وضمير فانه يعيش الألم والمعصية لشعوره بمخالفة دينه وضميره، وفي ذلك عذاب كبير ومهما كانت النتائج كبيرة تعدّ صغيرة إذا ما قيست بهذه المخالفة الإلهية والضميرية. هذا كله اذا كانت الدنيّة تتضمن مخالفة شرعية محرمة وقد

تقتضي غير ذلك كما هي الحال في دنيّة السؤال والطلب، ومدّ اليد إلى الأغنياء والاستجداء من أصحاب الثراء، فإن هذه الدنيّة فيها بذل ماء الوجه ولا يعادل ذلك مال الدنيا،-فيها يد سفلى تمتد إلى يدٍ فوقها وفي ذلك منتهى الضعة والهوان؛ فإن الكرامة والعزة لا تقابل بالمال مهما كان كثيراً.. لأنه يأتي ويذهب وتتداوله الأيدي ولا يستقر، ولكن الكرامة والعزة اذا أهدرت لا تعوّض وإذا ذهبت لا تعود..

ثم إنه ينهانا أن نتحول عبيداً لغير الله وقد جعلنا الله أحراراً.. جعلنا أحراراً نمتلك حرية الإرادة والرأي فلا يجوز أن نتحول إلى أدوات تحركنا من خلفنا آراء الآخرين وتسيّرنا كما تحب وتشتهي. كما أننا أحرار في عقائدنا وأفكارنا فلا يجوز أن تُملى علينا عقائد مستوردة وأفكار دخيلة غريبة، بل يجب أن نستقل في تفكيرنا وعقيدتنا كما نستقل في إرادتنا ومرادنا..

كذلك يجب أن نبقى أحراراً في تصرّفنا وحركتنا فلا يجوز لأنسان يمنّ علينا بقبضة من المال أن يشل حركتنا ويمنع مسيرتنا... وكما أن الفرد يجب أن يستقل في إرادته وحركته كذلك الدول يجب أن تستقل بطريقة أولى، بل يجب ان تمتلك وحدها حرية رأيها وإرادتها وحركتها، يجب أن تملك قرارها.. قرار حربها وسلمها وقرار سكونها وحركتها، وقرار رأيها وعقيدتها؛ يجب على الدولة أن تستقل في كل شيء ولا تبقى تدور في فلك غيرها، وتنفذ ما يقوله الغير فحسب. وللأسف الشديد قد صار الأشخاص تابعين في أفكارهم وآرائهم لما تمليه عليهم شخصيات لم يؤمنوا بها ولم يروا صحة رأيها ولكن المنفعة دفعتهم إلى قبول آرائهم وكذلك الدول أضحت تدور كلها في فلك الاستكبار العالمي الذي يقود زعامته- أمريكا وروسيا- وأصبحت الدول كلها لا تمتلك حرية رأيها وارادتها بل أضحت خاضعةً لآراء القوتين الطاغوتيين: أمريكا وروسيا- لقد تحوّلت الدول الأخرى إلى مستعمرات عليها تنفيذ القرار الصادر من أولياء أمورها حتى وصل الأمر إلى أن صعود حاكم ونزول آخر عن كرسي الحكم أضحى بقرار دولي تصدره احدى هاتين الدولتين المستكبرتين. وأضحى كل حاكم صغير وبلد

صغير يحتمي خلف واحدة منها عبداً مطيعاً ورقيقاً خالصاً لا يملك من أمره شيئاً . وإذا أراد أحد أن تسوّل له نفسه الإنفكاك من هذه التبعية والاستقلال في الرأي والحركة فإنها ستعلن عليه الحرب الباردة وتوجّه نحوه كل ما تملك من عملاء في الداخل والخارج كي يمنعوه تحقيق قراره وتنفيذ مراده.؛

إن الدول الصغرى قد اكتفت باسم الاستقلال وعاشت على هذا الاسم تحلم به وتظن أنها على شيء من الاستقلالية ، وهي في الحقيقة على خلاف ذلك؛ إنها أقل شأناً من المستعمرات التي تحكمها تلك الدول مباشرة. فالإنسان ، كما الشعوب والدول يجب ان تكون حرة كما أراد الله وأحبّ لا كما أرادت – أمريكا وروسيا – يجب أن ينبع قرارها من ذاتها مهما كانت العواقب فإن ذلك لمصلحة الفرد والمجتمع والدولة. وهذا ما حصل فعلاً في إيران الإسلام عندما حطمت عرش الطاووس ورفضت التبعية لأمريكا أو روسيا وأخذت على نفسها أن يخرج قرارها من إسلامها وعقيدتها ومن دينها وتراثها؛ عندما رفضت التبعية والدوران في فلك غيرها ، قام العملاء في الداخل والخارج لمحاربتها بتوجيه من أسيادهم في واشنطن وموسكو؛ ولكن هذه الأمة ستنتصر مهما كانت التضحيات جسيمة والبذل والعطاء كبيراً لأن من أراد أن يعيش عزيزاً حراً وسيداً مستقلاً عليه أن يوطّن نفسه لكل التبعات التي تنتج من وراء ذلك القرار الثوري الرباني..

ثم انه عليه السلام ينبهنا إلى سوء الطمع وعاقبته القبيحة إذ ربما قاده الطمع في أمر إلى ارتكاب حرام من أجل الحصول عليه وربما دفعه طمعه إلى قطيعة رحم أو هجر خليل او الإساءة إلى صديق ، فيكون الطمع مسيئاً له مذلاً لنفسه؛ ولذا ورد في الروايات عن الامام الباقر (ع) قال: بئس العبد عبد له طمع يقوده، وبئس العبد عبد له رغبة تذله..

ويقول الامام علي بن الحسين عليهما السلام: رأيت الخير كله قد اجتمع في قطع الطمع عمّا في أيدي الناس.

ويقول النبي الكريم ﷺ: «إياك والطمع فانه الفقر الحاضر».

وقال أمير المؤمنين (ع): (استغنِ عمّن شئتَ تكن نظيره وارغب إلى من شئتَ تكن أسيره وأحسن إلى من شئتَ تكن أميره)..

وبعد هذا يوجّهنا الإمام إلى الإنقطاع إلى الله والتخلّي عن كل ما نعتبره واسطة إلينا في إيصال الخير، فإن هذه الواسطة سيكون لها المنّة والفضل علينا ونجد من أنفسنا خضوعاً لها وتذللاً ويكفي ذلك سبباً لرفض كل واسطة والرجوع إلى الله خالق الأسباب ومسبّبها..

«وتَلاَفيك مَا فَرَطَ من صَمْتِكَ أَيْسَرُ من إدراكِك ما فاتَ مِنْ مَنْطِقِكَ، وحِفْظُ ما في الوعاء بِشدّ الوكاء وحفظُ ما في يديْك أحبُّ إليّ من طلبِ ما في يَدَيْ غيرك ومرارة اليأس خيرٌ من الطلبِ إلى الناس».

اللغة:

التلافي: التدارك لما فات.

ما فرط: ما قصر.

الوكاء: الرباط.

.... • ....

منطق المسلم يتصف بالرزانة والعفة والعدل والصدق، لا يتكلم إلا بما يرضي الله وينفع الناس فلا لغو ولا هذر ولا استطالة ولا غيبة ولا بهتان ولا سباب ولا شتائم، يفكر في الكلمة قبل أن تخرج ويدرس مفعولها قبل أن تنطلق ويعلم آثارها قبل أن تقع الكلمة في قاموسه يجب أن تكون طيبة، لأنها تكون ثابتة الجذور متينة القرار شامخة الفروع والآثار (مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء).

الكلمة في الاسلام لها مفعولها الذي قد يخلق جيلاً صالحاً يحمل أهداف الأنبياء والرسل كما أن لها آثارها التي تهدم البيوت وتخرب الأفكار وتقضي على كل الحضارات التي بنتها الانسانية خلال عمرها الطويل. الكلمة التي تنطلق من هذا اللسان قد تهدي إنساناً إلى الرشد وتردّه عن الضلال، قد توحّد المتفرقات وتجمع الشتات، كما أنها قد ينعكس أثرها وتأتي بخلاف ذلك. والمسلم هو الذي يملك لسانه فلا يتطاول على كرامات الناس وأعراضهم. كما لا يتفكه في مجالسه بغيبتهم وازدرائهم...

وهناك الثرثارون المصابون بكثرة الكلام والحديث، انهم مرضى الكلام

فتجد أحدهم يحدثك ساعةً كاملة لا تستفيد منها ولو بكلمة واحدة.. يتحدث في مجلسك وحده دون غيره؛ انه يبدأ بالحديث ويستمر يستطرد تارة ويعيد أخرى، ويصعد الى السماء مرة ويهبط الى الأرض ثانية وهكذا دواليك لا يكاد ينتهي من حديث حتى يدخل في حادثة قد تطول وتتأخر وتجعل عندك مللاً وسأماً وتتمنى ساعة فراقه ورحيله.. هؤلاء المرضى لا تخلو مجالسهم من الهفوات والهنات والخطل والشطط، يكثر عِثارهم واعتذارهم وتوبتهم ورجوعهم.. تكثر خطاياهم ومعاصيهم.. وإن بعض العثرات لا تقال وبعض الاعذار لا تنفع.. وقد ورد عن أهل البيت من الوصايا والتعاليم في حفظ اللسان ما يجعلنا نقف عندها قليلاً كي ندرسها ونفكر بها ونعمل بمضمونها فان السعيد من اعتبر وتدبّر..

قال النبي ﷺ: (من كفَّ لسانه ستر الله عورته).

قال النبي ﷺ: رحم الله عبداً تكلم خيراً فغنم أو سكت عن سوء فسلم).

قال النبي ﷺ: (إن لسان المؤمن وراء قلبه فإذا أراد أن يتكلم بشيء تدبّره بقلبه، ثم أمضاه بلسانه وإن لسان المنافق أمام قلبه فاذا همّ بشيء أمضاه بلسانه ولم يتدبّره بقلبه)...

قال أمير المؤمنين في نهجه: «واجعلوا اللسان واحداً وليخزن الرجل لسانه فإن هذا اللسان جموح بصاحبه. والله ما أرى عبداً يتقي تقوى تنفعه حتى يخزن لسانه؛ وان لسان المؤمن من وراء قلبه وان قلب المنافق من وراء لسانه، لأن المؤمن إذا أراد أن يتكلم بكلام تدبّره في نفسه فان كان خيراً أبداه وان كان شراً واراه؛ وان المنافق يتكلم بما أتى على لسانه لا يدري ماذا له وماذا عليه ولقد قال رسول الله ﷺ: (لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه)..

وقال الصادق عليه السلام: «لا يزال العبد المؤمن يُكتَبُ محسناً ما دام ساكتاً فاذا تكلم كتب محسناً أو مسيئاً»..

وقد وردت الأحاديث أيضاً بمدح الصمت منها ما عن الامام الرضا: من علامات الفقه: الحلم والعلم والصمت، إن الصمت باب من أبواب الحكمة، إن الصمت يكسب المحبة، انه دليل على كل خير.

وقال النبي ﷺ: (من صمت نجا)، وقال النبي ﷺ: (ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن: الصمت وحسن الخلق)..

وهذا المدح للسكوت وكف اللسان يكون له فائدته وثمرته اذا خاف الانسان أن يقع في الحرام وإلاّ فإن السكوت يُعد جريمة إذا استطاع أن ينطق الانسان بكلمة الحق ثم يسكت؛ كما أن بالمنطق والبيان يُعلم الجاهل ويرشد الضال ويهتدي الحيران، فيجب على الانسان أن يعرف متى يتكلم ليكون مثاباً على كلامه، ويجب أن يعرف متى يسكت ويصمت حتى يُثاب على صمته وسكوته، وإلا إذا خالف ذلك عصى وتردّى..

والإمام يسن لنا قاعدة عقلائية تعارف الناس عليها وهي أن خطأ اللسان يصعب تداركه والاعتذار منه، فمن هفا في منطقه امام جمع من الناس حفظوا عليه خطأه وذكروه به متى نسي، وصعب عليه الاعتذار منه، لأن ما وقع لا يمكن رده والناس عنيده في محفوظاتها لا تسقطها بيسر وسهولة، أما اذا عابه الناس لعدم حديثه أو لقلته فانه يمكن تداركه بالنزول إلى ساحة الكلام ويسدل الستار عمّا قصّر أو قلل..

ثم انه عليه السلام حبّب إليه أن يحفظ ما في يديه على أن يبذله ويطلب مثله من الناس والمقصود من حفظه أن يعمل فيه بما أمر الله فلا إسراف ولا تبذير، ولا ما يجعله عالة على الناس بحيث يضطر إلى مدّ يده استجداءً وصدقة، فإن العاقل يحافظ على ما عنده فينفق على الوجه الصحيح ويقدم على الوجه اللائق ويتصرف طبق الموازين الشرعية التي تحقق العدالة وترفع الحيف وتقضي على الفقر والفاقة.

ثم انه عليه السلام يضع بين أيدينا مقولة مثالية يريد منا أن ننتهجها في

حياتنا ولحرك خطانا نحوها ونعمل بمضمونها وهي أن نيأس مما في أيدي الناس، وهذا اليأس مهما كان مراً فهو كالشهد بالنسبة إلى الطلب من الناس ومد اليد اليهم والظهور أمامهم بمظهر الحاجة والمسكنة... نعم ان الظهور أمام الأغنياء بمظهر الغنى أشرف بألف مرة من الظهور بمظهر الفقر والحاجة لأنهم أناس فقدوا الموازين الصحيحة السليمة التي توزن بها الأمور وتقاس بها الحقائق وأخذوا يقيسون الرجال بما عندهم من الأموال والأثاث والأرصدة والسندات.. لقد انطمست المعالم التي تقودهم الى الرؤيا الصحيحة وانغمسوا في الماديات بحيث تحوّل عندهم كل شيء إلى مادة ومال؛ منه يأخذون الكرامة... ومنه يأخذون العزة، ومنه يأخذون الفخر، وعلى قدره يكبر قدرهم وجاههم وكرامتهم واحترامهم. وقد سار بعض العلماء الذين غرّتهم الدنيا خلف هذه المقاييس الباطلة فأخذوا يكرمون بعض الناس مع فسقهم والحرافهم لأنهم أغنياء يبشون لهم ويضحكون في وجوههم وينشرحون أمامهم ويقبلون عليهم، واما إذا جاءهم مؤمن فقير فلا يلتفتون اليه إلا شذراً بوجه عبوس وحواجب مقطبة وغضب شديد ناسين أو متناسين موازين الإسلام وأحكامه...

«والحرفةُ مع العفّةِ خيرٌ من الغنى مع الفُجور؛ والمرءُ أحفظُ لسرّه؛ وَرُبَّ ساعٍ فيما يضرُّه، مَنْ أكثر أهْجَرَ وَمن تفكّـر أبصرَ. قارِنْ اهلَ الخيرِ تكُنْ منهم وبايِنْ أهلَ الشرِ تبِنْ عنهم».

اللغة:

الحرفة: نقص الحظ من المال ورجل محارف يعني منحرف عنه رزقه.

الهُجر: الهذيان في الكلام والفحش فيه.

في هذا الفصل من الوصية أمور خمسة:

الأول: يكشف الإمام عن حقيقة لا يقبلها الكثير من الناس، بل يعملون خلافها وضدها؛ ففي حين يذهب علي عليه السلام مع الشرفاء وأصحاب المبادىء الرفيعة إلى أن العفة والصبر على الحرمان أفضل من اكتساب المال والغني مع الفجور والانحلال يذهب غيره من أبناء الدنيا وأصحاب الأهواء والشهوات إلى عكس ذلك حيث يستحلون كل حرام ويدخلون في كل باطل ويبيعون كل ضمير وكرامة من أجل المال والغنى. إن عصرنا الذي نقيم فيه من أقبح عصور التاريخ وأسوأها على الإطلاق من هذه الناحية، إنك ترى بيوت الدعارة شاهرة راياتها من أجل المال؛ إنك ترى حانات الخمر واللهو في كل شارع من أجل المال؛ إنك ترى الرشوة والكذب من أجل المال كيف نظرت وأنّى اتجهت رأيت السعي في سبيل المال دون أن يلحظ الطريق الذي يؤمّنه ولا الوسيلة التي يوفّرها... وهكذا الدول والأمم تستعبد العباد وتستبد بالبلاد وتستعمر وتفتك وتقتل من أجل أن تنهب خيرات العالم. أي عصرٍ هذا الذي نعيش؟ انه عصر المادة، عصر المال، عصر الثراء عصر الفحش والانحلال، لا يُسأل الفرد من أين اكتسب ماله ولا من أين جناه بل يسأل عن مقداره وكميته.

الثاني: ثم يقول عليه السلام: والمرء أحفظ لسره تدليلاً على أن من أراد أن

يبقى سره محفوظاً يجب أن يبقى عنده فقط ولا يجوز أن يعطيه لأحد أو يسرّ به إلى غيره، وكما قيل: (كل سرٍ جاوز الاثنين شاع) الذي قد يُراد به أن كل سر تجاوز الشفتين وخرج من بينهما سوف يشيع وينتشر، وأي إنسان ليس عنده أسرار؟ وأهم الأسرار وأفظعها تلك التي يناط بها أمن البلاد والعباد والتي تكون أثناء الحرب والجهاد، إذ أن هناك خططاً حربية يجب كتمها وإخفاؤها لئلا يظهر عليها العدو فيفشلها ويقضي عليها، وهناك أسرار تأتي بدرجة أدنى بحسب أهميتها وآثارها...

قال النبي ﷺ: (استعينوا على الحوائج بالكتمان فان كل ذي نعمةٍ محسود.)

وقالوا: من ارتاد لسره موضعاً فقد أذاعه.

وقيل لأعرابي: كيف كتمانك للسر؟ قال: (ما قلبي إلا قبر).

وقيل لرجل: كيف كتمانك للسر؟ قال: أجحد المخبر واحلف للمستخبر.

وقيل: ما كنت كاتمة من عدوك فلا تظهر عليه صديقك.

قال الشاعر مفتخراً بكتمانه للسر:

لا تسألي القومَ ما مالي وما حسبي ... وسائلي القومَ ما حزمي وما خُلقي
القوم أعـــــلم أني من سَراتهمُ ... إذا تطيش يد الرعديدة الفَرِقِ
أعطي السنان غداة الرَّوْع حصته ... وعامل الرمح أرويه من العلقِ
قد أركب الهول مسدولاً عساكره ... وأكتم السر فيه ضربة العنقِ

وقال آخر:

أواخي رجالاً لست أطلع بعضَهم ... على سر بعضٍ غير أني جماعُها
يظلون شتى في البـــلاد وسرّهم ... إلى صخرةٍ أعيا الرجال انصداعُها

وقال آخر:

إذا أنت لم تحفظ لنفسك سرّها ... فسرك عند الناس أفشى وأضيع

الثالث: ثم قال عليه السلام: رب ساعٍ في ما يضرّه.

بعض الأمور يرغب فيها الانسان ويحبها ويندفع في سبيل تحقيقها، إنه يريدها بأسرع ما يكون... فإذا أحب سلعةً أراد تحقيق المعاملة بدون سؤال عن الثمن وإذا أراد رحلةً هيأ مقدماتها وركب على جناح السرعة لقطع المسافة والوصول إلى الهدف وإذا أراد فتاةً سعى لخطوبتها متخطياً العقبات المادية وعقبات المعارضة من الأهل والأقارب وعقبات العيوب التي فيها حيث يعكسها محاسن ومناقب. وهكذا دواليك.. يقوم بتذليل كل ما يعترض طريقه أو يقف في وجه أمنيته، مع العلم أن بعض الأمور تحتاج إلى موضوعية في التقييم وإلى حياد في الحكم وإلى تنظيم وثيق للمقدمات... إن هذه التجاوزات لكل الحقائق والغض من الاعتناء بها، وعدم التحقيق فيها لتكوين رؤيا صحيحة وسليمة تؤدّي في كثير من الأحيان إلى الوقوع في الضرر والمفسدة... ولو أن كل فرد، قبل إقدامه على أي موضوع وقضية، يدرسه دراسةً جيدة، وينظر إلى مقدماته وخلفياته، ثم يتوكل بعد ذلك على الله لقلّ الخطأ وندر... ولكن لعدم الوقوف على حقائق الأمور وعدم استيعابها نقع في المشاكل والأحداث ونقع في الفساد والضرر. والإمام هنا يريد أن ينبهنا إلى هذه القضيّة وهي أن الإنسان قد يسعى في شيء ويعود ذلك عليه بالضرر والمفسدة لأنه لم يتقنه جيداً ولم يعرف أبعاده بشكل مفصّل ودقيق فينبغي أن لا يذوب في ما يسعى اليه ولا يجعله المفيد الذي لا فساد فيه..

الرابع: قوله عليه السلام: من أكثر أهجر، ومن تفكر أبصر.

ولهذا نجد الحكماء يقولون: (من كثر كلامه كثر سقطه)، وهذه قضية حقيقية فإن المهذار الثرثار في الكلام تضيع أمامه الموازين فتراه تارةً يختلق ما لم يوجد، وأخرى يزيد على ما وُجد، ومنْ طبيعة الكثرة في الكلام، إنك تجد الاختلاف والتهافت فيه. وفي مقابل ذلك وخلافه؛ الانسان الذي فكر في كل كلمة يقولها وكل موقف يتخذه وكل قضية يريد وجه الحق فيها. من تفكر أبصر... من تفكر وأعطى كل مسألة حقها من الاهتمام والعناية قلّ خطأه وندرت أغلاطه... واستطاع أن يقدّم اعتذاره في ما ذهب اليه وارتأى...

وأما الذي يرتجل المواقف ويقذف بالكلمة كما يقذف بالطلقة دون نظر لآثارها ومخلفاتها فهذا إنسان لا يستحق المعاشرة فضلاً عن الأهم من ذلك والأرقى..

- وقد أمر الله بالتفكر وأثنى على المتفكرين...

- قال تعالى: ﴿الذين يذكرون الله (١) قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً..﴾

- قال تعالى: ﴿كذلك نفصل الآيات لقومٍ يتفكرون- وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون... وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾... إلى كثير من الآيات الآمرة بالتفكر والتدبّر..

- قال الإمام أمير المؤمنين (ع): «نبّه بالتفكر قلبك وجافِ عن الليل جنبك واتّق الله ربك».

- عن الإمام الرضا عليه السلام: (ليس العبادة كثرة الصلاة والصوم، وإنما العبادة التفكر في أمر الله عز وجل).

- قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إن التفكر يدعو إلى البر والعمل به».

- وقال الصادق (ع): (أفضل العبادة إدمان الفتكر في الله وفي قدرته).

- وروي أن الحواريين قالوا لعيسى بن مريم عليه السلام: هل على الأرض اليوم مثلك؟.

فقال: نعم من كان منطقه ذِكراً وصَمْته فكراً ونظره عِبرةً فإنه مثلي...

فما أجدرنا أن نعمل بهذه الآيات والأحاديث، ونتفكر في مخلوقات الله سماواته وأرضه، بره وبحره، إنسانه وحيوانه، الحياة والموت، الصنع والتدبير. التفكر في كل ما تقع العين عليه وما تتحرك فيه وحوله... يفكر ليأخذ العبرة... ويعمل بمقتضاها ويحيا بها...

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٩١.

الخامس: قوله عليه السلام: قارن أهل الخير تكن منهم وباين أهل الشر تبْن عنهم.

وهذه قضية ظاهرة للعيان وآثارها بيِّنة لكل إنسان فإن الفرد يأخذ من عادات صديقة ويتأثر به إلى درجة بعيدة فإن كان مع أهل الخير تراه ينعكس سلوكهم عليه ويتأثر بهم وبعاداتهم فيصبح كأحدهم، وإن عاشر أهل الشر والفتنة تراه يأخذ عنهم شرورهم وفتنتهم ولذا قيل: (قل لي مَن تعاشر أقلْ لك من أنت). وقيل أيضاً: (ان الطيور على أشكالها تقع). وقيل: (كلٌ إلى شكلهِ ألف). فالأخيار لا يألفون إلا الأخيار والأشرار لا يروق لهم إلا عشرة الأشرار..

وقد حدد الأئمة من نعاشر، وأعطوا صفات القرين والرفيق، وقد اشترطوا صحبة العاقل وترك الأحمق ويُنسب إلى الامام علي قوله:

فلا تصحب أخَ الجهل وإياك وإياهُ ... فكم من جاهل أردى حكيماً حين آخاهُ
يقاس المرء بالمرء إذا ما هو ماشاه ... وللشيء على الشيء مقاييس وأشباهُ

وقد نهي عن مقارنة الأحمق لما فيها من الضرر، قال الشاعر:

إني لآمن من عــــدوٍ عاقـــل ... وأخـــاف خـــلاً يعتريــه جنون
فالعقـــل فنٌ واحـــد وطريقـــه ... أدرى وأرصـــــد والجنون فنون

وعن الإمام الكاظم قال: (قال عيسى عليه السلام: إن صاحب الشر يُعدي وقرين السوء يُردي فانظر من تقارن).

وفي الحديث الصحيح عن الصادق قال: لا تصحبوا أهل البدع ولا تجالسوهم فتصيروا عند الناس كواحد منهم، قال: قال رسول الله ﷺ: المرء على دين خليله وقرينه.

«بئسَ الطعامُ الحرامُ، وظُلْمُ الضعيفِ أفحشُ الظلم، إذا كان الرِّفْقُ خُرقاً كان الخرق رفقاً، ربما كان الدواءُ داءً والداءُ دواءً، ربما نصح غَيْرُ الناصِحِ، وغشّ المُسْتَنْصَحُ».

اللغة:

الخُرق: العنف.

المستنصح: المطلوب منه النصح.

---

(١) في هذا الفصل من الوصية خمسة أمور مهمة يجب التعرّض لكل منها:

- الأول: (قوله عليه السلام بئسَ الطعام الحرام):

بئس الطعام الحرام... وهل حرّم الله شيئاً إلاّ لضرره وفساده؟! وإذا كان الحرام مرفوضاً في الاسلام إذا وقع على الغير فهو اذا وقع على النفس يكون أشد سوءاً أو أقوى ضرراً. ويتأكد هذا الضرر في ما يعود إلى غذاء هذا الإنسان وما يقوّي بدنه ويشد لحمه وعظمه... الحرام في الإسلام يعد جريمة وخروجاً عن دائرة العبودية وتمرّداً على إرادته وحكمه..: وأكل هذا الحرام أشد حرمةً وأقوى فساداً وضرراً.. بدون فرق بين أن يسرق اللقمة الحرام ويأكلها أو يظلم الناس أموالهم ويأكل بها.. وقد أكد القرآن والسنة على ذلك..

قال تعالى: ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾.

وقال تعالى: ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً﴾..

وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الرِبَوا إن كنتم مؤمنين﴾.

وقال رسول الله ﷺ كما في الكافي: (العبادة سبعون جزءاً أفضلها طلب الحلال).

وقال أبو عبدالله عليه السلام: أقرئُوا مَن لقيتم من أصحابكم السلام وقولوا لهم: فلان ابن فلان يقرئكم السلام، وقولوا لهم: عليكم بتقوى الله عز وجل وما يُنال به ما عند الله، وإني والله ما آمركم إلاّ بما نأمر به أنفسنا، فعليكم بالجد والاجتهاد واذا صليتم الصبح وانصرفتم فبكروا في طلب الرزق واطلبوا الحلال فإن الله عز وجل سيرزقكم ويعينكم عليه...

وعن أبي الحسن عليه السلام: إن الحرام لا ينمي وإن نما لم يباركْ فيه وما أنفقه لم يُؤجَر عليه وما خلّفه كان زادهُ إلى النار.

وعن أبي عبدالله (كسب الحرام يبين في الذرية).

ثم إن الحرام قد بينته كتب الفقه... ففي كتاب الأطعمة والأشربة تفصيل لما يحرم منها.. نذكر منها بشكل موجز... أما من حيوان البحر، فان لدينا قاعدة أو شبه قاعدة تقول: (كل حيوان بحري حرام إلا السمك وكل سمك حرام إلا ما له فلس).

فالحيوانات البحرية طبقاً لهذه القاعدة محرمة كلها إلا السمك الذي له فلس، فالسلحفاة والسرطان والضفادع وغيرها كلها حرام...

ويحرم من حيوانات البر: الكلب والخنزير والسنور والاسد والنمر والفهد والثعلب والأرنب والضبع وابن آوى والضبُّ، والحشرات: كالحيات والفأرة والعقرب والخنافس والبراغيث والقنفذ والسنجاب.

ويحرم من الطير كل ما له مخلاب كالبازي والعُقاب والصقر والشاهين والرخم والبغاث والغراب، وكل ما كان صَفيفُه أكثر من دفيفه وكذلك يحرم ما ليس له قانصة ولا حوّصلة ولا صيصة.

وتحرم الميتة وهي التي لم تذبح على الطريقة الشرعية، وهناك محرمات في الذبيحة نفسها إذا كان ذبحها على الوجه الشرعي وهي:

الدم، الطحال، القضيب، البيضتان، الفرث، المثانة، المرارة، المشيمة، الفرج، العلباء (وهما عصبتان عريضتان ممدوتان من الرقبة إلى عجب الذنب

والنخاع (الخيط الأبيض الموجود في وسط فقرات الظهر) الغدد وخرزة الدماغ.

وكذلك يحرم الخمر والبيرة والنبيذ وكل مسكرٍ، وكل نجس أو متنجس، هذا كله في الأكل والشرب... وكذلك تحرم المعاملة على كثير من هذه المحرمات وكذلك كل عقد إذا وقع فاسداً لا يجوز للانسان أن يأخذ الثمن وبالتالي يكون حراماً لا يجوز له التصرف فيه إستعمالاً أو أكلاً، فإذا اشترى به شيئاً حرم أكله واستعماله له كما كان الثمن نفسه حراماً، وهكذا دواليك..

وإنّ تأكدُ الكراهة في المطعم الحرام فلأن هذا الانسان يتكون عندها بدنه من الحرام، فهو يتقلب في الحرام ويتحرك في الحرام وقد يضع نطفته التي تكونت من الحرام في رحم امرأة تلد له ولداً حراماً، وهكذا... ومن هنا جاءت بعض الأحاديث لتقول لمن تغذى على الحرام وأراد أن يتوب جاءت لتقول له: صُمْ وأذِبْ هذا الجسد الذي نما من الحرام حتى يلتصق الجلد بالعظم وينمو من جديد على الحلال...

الثاني: قوله عليه السلام: (أفحش الظلم ظلم الضعيف).

الظلم والعدل من الأضداد، وبمقدار حب الاسلام للعدل أبْغَضَ الظلم. لئن كان العدل أحلى من الشهد فالظلم أمرّ من العلقم، ولئن كان العدل وضع الشيء موضعه فالظلم وضع الشيء في غير موضعه. والأديان بصورة عامة والاسلام منها بصورة خاصة حارب الظلم والظالمين وشنّ عليهم حملته الشديدة، ليس في الكلام وحسب، بل بالسيف والقوة وبكل طاقاته وقدراته. لم يتوان الاسلام في ضرب الظالمين والقضاء عليهم وعلى ظلمهم وجورهم... وقد شهد تاريخ هذا الدين منذ يومه الأول كيف دافع النبي عن الضعفاء المظلومين وكيف ندّد بالظالمين وضرب على أيديهم بالحديد والنار وبكل الوسائل الممكنة والتي يستطيع أن يردعهم بها. الظلم هو تجاوز الحدود المرسومة لهذا الانسان والتعدّي على حرمات الناس وحرياتهم وكرامتهم.. إنه التجاوز بالحديث الظالم واليد الظالمة والممارسة الظالمة. والظلم تشهد بقبحه العقول وتتسالم على هذا القبح كل

العقلاء، وان لم يكن لهم دين أو إرتباط بخالق السماوات والأرض.. وهو يعدّ من المستقلات العقلية لدى بني الانسان، فلذا نرى الظالمين أنفسهم ينكرون هذه الوصمة ويتنكرون لها ويتبرأون منها. إنهم يظلمون ويفعلون القبيح ولكنهم لا يرضون أن يقال لهم ظلمة فليس هناك أدلّ على قبحه من ذلك.

والظلم إذا كان معناه التجاوز والخروج عن العدل فقد يكون تجاوزاً من الانسان على أخيه الانسان، وقد يكون تجاوزاً من هذا الانسان على نفسه بأن يظلمها بالخروج عن طاعة الله أو يظلمها بالإلقاء إلى التهلكة أو يظلمها بسبب آخر...

والظلم كما يكون فردياً قد يكون ظلماً إجتماعياً، فتتكوّن الطبقية في المجتمع وتصنّف الناس إلى فئة فرعونية حاكمة ظالمة تمارس الإرهاب والكبت والضغط وفئة مستضعفة فقيرة بائسة لا تملك حولاً ولا قوة.

وفي جميع هذه الصور يتمثل الظلم شيئاً قبيحاً ورذيلة مرفوضة ممقوتة. والإسلام قد أمرنا أن نمارس العدل حتى على أعدائنا، حتى على خصمائنا، ومن نَكُنُّ لهم البغض، فالبغض موضعه القلب والعدل موضعه الممارسة والعمل.. أنت لا تريد أن تحب إنساناً، أو ليس باستطاعتك أن تحبه فهذا يرجع إلى قلبك، ولكن هذا البغض لا يجوز أن يكون عاملاً من عوامل ظلمه والتعدّي عليه، فلذا نرى القرآن قد نهى عن ذلك وقال: ﴿ولا يجرّمنك شنآن «بغض»[1] قوم على ألاّ تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾...

والحرب التي يخوضها الاسلام ويدفع بالمسلمين إلى أحضانها إنما هي حرب ضد الظالمين والمستكبرين.. ضد الذين يتألهون على الناس ويمارسون عليهم الظلم والقهر والغلبة... فلم تكن حروبه من أجل البلاد أو إستعباد العباد.. إنما كانت حروبه من أجل تحرير هذا الانسان من ظلم الفراعنة الذين ساموه

---

(١) سورة المائدة، آية: ٨.

الخسف والهوان وأذاقوه المرارة والعذاب... حتى الشعوب غير المسلمة يحارب الاسلام من أجلها إذا كانت مظلومة ومقهورة...

والإسلام لا يرضى من المظلومين أن يستمروا في مظلوميتهم ولا يقبل منهم البقاء تحت سياط الجلادين وسيوف الظالمين بل يلقي أمامهم الأضواء ويفتح أمامهم الطريق للثورة والتمرّد على الظلم... إنه يقول لهم تحركوا في سبيل رفع الظلم عنكم؛ جريمة منكم أن تساعدوا الظالم بسكوتكم عنه... بل افضحوه... ثوروا عليه؛ حطموا عروشه؛ أرفضوا كل أوامره؛ إعصُوا كل نواهيه، أعلنوها ثورة بركانية تنفجر حمماً وصواعق على رؤوس الظالمين... إنه يقول للشعب المظلوم لا تقبل قول السلطة الظالمة؛ خالفها؛ تمردْ عليها، حاربها في مصالحها وفي اقتصادها، في سياستها، في توجهها، في كل حركاتها أسقطها من حسابك وتصرّفْ وكأنها لم تكن.. إضرب عليها، إحتجَّ، تظاهرْ ما أروعك أيها الإسلام العظيم، وما أسمى تعاليمك، أنت الثورة على الجهل والتخلّف، وأنت الثورة على الميوعة والتهتك وأنت الثورة على الفقر والمرض، وأنت الثورة على الاستغلال والاستعباد، وأنت الثورة على الكذب والحقد وأنت الثورة على الخيانة والقتل... أنت الثورة على هذا وعلى كل انحراف لأنها كلها تمثل الظلم...

والإسلام قد أكد على حرمة الظلم وحرّم معونة الظالمين بل منع من الركون اليهم والسكوت عنهم، وقد بيّن ذلك ووضحه كتاب الله وسُنّة المعصومين. وهذه نفحة عطرة من تلك الآيات والأحاديث الكريمة..

قال تعالى: ﴿والله لا يحب الظالمين﴾.

وقال تعالى: ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾.

قال تعالى: ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار﴾.

قال تعالى: ﴿هؤلاء الذين كذبوا على ربهم الا لعنة الله على الظالمين﴾.

قال تعالى: ﴿ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار﴾.

قال تعالى: ﴿فأوحى اليهم ربهم لنهلكنّ الظالمين﴾.
قال تعالى: ﴿إنا اعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها﴾.
قال تعالى: ﴿واعتدنا للظالمين عذاباً أليماً﴾.

قال الإمام ابو جعفر الباقر (ع): لما حضرتْ علي بن الحسين عليهما السلام الوفاة ضمني إلى صدره ثم قال: يا بنيّ أوصيك بما أوصاني به أبي عليه السلام حين حضرته الوفاة، وبما ذكر أن أباه أوصاه به، فقال: يا بنيّ إياك وظلم من لا يجد عليك ناصراً إلا الله.

- قال أمير المؤمنين عليه السلام (بئس الزاد إلى المعاد العدوانُ على العباد).

- قال أمير المؤمنين عليه السلام: (ألا وإن الظلم ثلاثة، فظلم لا يُغفر وظلم لا يترك، وظلم مغفور لا يطلب، فأما الظلم الذي لا يغفر فالشرك بالله، قال الله تعالى: ﴿ان الله لا يغفر أن يشرك به﴾.

وأما الظلم الذي يُغفر فظلم العبد نفسه عند بعض الهنات.
وأما الظلم الذي لا يترك فظلم العباد بعضهم بعضاً).

- عن الصادق عن آبائه (ع) قال: «كان علي عليه السلام يقول: العامل بالظلم والمعين عليه والراضي به شركاء ثلاثة).

- قال رسول الله ﷺ: (أفضل الجهاد من أصبح لا يهم بظلم أحد).
- قال رسول الله ﷺ: (إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ أي الظلمة وأعوانهم؟ من لاق لهم دواة أو ربط لهم كيساً أو مدّ لهم قلم فاحشروهم معهم).

الثالث: قوله عليه السلام: (اذا كان الرفق خرقاً كان الخرق رفقاً).

وضعُ الشيء في غير موضعه يكون مضراً؛ فالقاتل عمداً وعن سبق تصوّر وإصرار إذا عفوت عنه دون أن تتقدّم منه التوبة يكون هذا العفو مضراً له وللمجتمع، مشجعاً له على معاودة الجريمة وزهق الانفس الطيبة الشريفة؛ إنه يتمادى، ويتجرأ، ويروح في الأرض فساداً وقتلاً لأنه أمِنَ العقوبة واطمأنّ إلى

يسر المعاملة وسلامة يده التي تقتل وتفتك. وكذلك من يسرق أو يزني أو ينحرف ولا يجد جزاء عمله ولا القصاص الرادع له. فالرفق في هذه المواطن يعد مفسدة، وإنما يجب ان يستعمل مع الجاني عمداً القصاص في النفس حتى لا يعود إلى عمله أبداً من جهة، ويكون عبرةً لغيره وعظة. من جهة أخرى فان الله تعالى يقول: ﴿ولكم في القصاص الحياة﴾ ففي القصاص الحياة لمن تسوّل له نفسه الإجرام لأنه يتصوّر مقدار العقوبة فيرتدع؛ وكذلك إذا نزلت به العقوبة يكون تأدباً لغيره وفي هذا القصاص فائدة لا يعد لها فائدة الرفق واللين؛ لأن الرفق واللين يدفع بمن في نفوسهم مرض أن تتحرك تلك النفوس لتنشر الرعب في المجتمع وتفسد في الأرض بغير الحق ولذا قيل: (من أَمِنَ العقوبة أساء الأدب).

وقال الشاعر:

ووضع الندى في موضع السيف بالعُلا مُضرٌ كوضع السيف في موضع النَدَىَ

كما أن القضية تنعكس؛ فلو كان الرفق خرقاً كان الخرق رفقاً، فإذا استعملت القسوة مع ولدك لعصيانه وسوء أدبه وهززت له العصا وان احتاج الأمر ضربته تأديباً، كان ذلك أحسن من الحنّو عليه والرفق به، لأنه يفسده ويطمعه في المعصية والتمرّد ومخالفة الأدب. فالعنف هنا هو الذي يؤدّي ويقود هذا الانسان إلى الرفق والسيرة الحسنة والطريقة المثلى.. هذه القساوة هي التي تخلق رجلاً عدلاً مستقيا يحمل نفسه على الحق وان كان كريهاً، ويسير على الهدى وان كان على النفس ثقيلا؛ يجانب الأشرار والمفسدين ويسير على هدى الصالحين والمخلصين. فالخرق هنا هو الذي يفيد ويعطي الآثار والنتائج الطيبة..

الرابع: قوله عليه السلام: (ربما كان الدواء داء والداء دواء).

نعم ربما تحوّل الدواء إلى داء قاتل فاتك؛ الدواء سواء كان عقاقير وأدوية أو مواعظ وحِكَماً أو كانت نُظُماً وتشريعات، فكما أن الدواء اذا كان قد أكله

الزمن وأتلفه لا يجوز استعماله لأنه يفقد مفعوله وخواصه وربما تحوّل إلى ضرر يودي بحياة المريض ويتلف أعصابه وعصارة وجوده كذلك إذا كانت الموعظة لم تخرج من طبيب متفاعل مع المريض ولم يشخّص مرضه فإنها تفقد معناها ويقف المريض أمام الواعظ السخيف ليقول له مع الشاعر:

يا واعظ الناس قد أصبحت متهماً إن كنتَ تأتي أموراً أنت تنهاها

وكذلك إذا كانت النصيحة والموعظة على أسلوب وطريقة قديمة لم تتمّش مع الزمن ولم تأخذ بعين الاعتبار التطور البشري والحياتي لهذا الإنسان فإن هذه الموعظة التي تلبس ثوب القديم دون أن تقدم بثوب جديد وأسلوب جديد يتمشّى وروح العصر تفقد الموعظة مادتها وروحها مثل هذه الموعظة لا تجد أذناً صاغية كما لا تجد روحاً متأثرة متعظة..

وكذلك في عالم النُظُم فإنّ مَنْ أنكر الرأسمالية الظالمة التي استبدّ من خلالها الغني بالفقير وصاحب النفوذ والامتياز بفاقدها، وتقدم الاستعمار يزحف على العباد والبلاد يحتل ويستعمر ويفتك ويقتل ويستعبد، إن من يرى جرائم الاستكبار الغربي بما فيه من انحراف فكري والتصاق بالمادة وانكار وتنكر لكل حق وعدل وصدق وتجاهل لكل حقوق الضعفاء... من يرى ذلك لا يجوز له أن يعالج هذا الداء بدواء الشيوعية الحمراء، فإنها وباء أيضاً، ولا يجوز الفرار من الرمضاء إلى النار ولا من الخطر إلى الأخطر.. فإن هذا المسكين الصغير، الضعيف العقل والجسم تخيّل أن شفاءه لا يكون إلا بالشيوعية؛ لقد تخيّل أنها الدواء الذي يقضي على مخاطر الرأسمالية ويجتث أصولها من الأعماق، ولكنه وقع في داء أشد وأصعب، وقع في إستعمار متطوّر ومهذب يأتي بثوب الناصح الشفوق، إنه يأتي مع شعارات براقة ترتاح لها النفس وتتشوّق إلى لقياها القلوب، ولكنها كالحية ملمسها ناعم وتخفي في جوفها السم الناقع.. إن العدول من الرأسمالية إلى الشيوعية عدول من خطر الى خطر إن لم نقل انه إلى الأخطر...

إن الدواء يجب أن يتلاءم مع المرض كما يجب أن لا يترك وراءه من الخلفيات والآثار ما يضر ويفتك بالجسم. من جهة أخرى فيكون دواء لهذا المرض ولكنه يترك داءً خبيثاً أصعب من الأول من جهة أخرى.. نعم ربما كان الدواء داء وكذلك قد تنعكس القضية ويتحول الداء إلى دواء فرب مرض مستحكم فيك قد أخذ منك مأخذه وامتدت جذوره حتى زلزلت استقرارك وراحتك فاذا بمرضٍ آخر لا يؤذيك أذىً شديداً فتحاول علاج الخفيف فيكون شفاء للقوي والشديد، فالداء البسيط كان دواء للمرض القوي الشديد، ورب خطيئةٍ أدبتَ عليها حفظت حياتك وصححت مسارك على امتداد الحياة... فالطفل اذا حكت أصابعه لو سرق، كان هذا دواءً لشيء أخطر بكثير مما لو كبر وسرق وأدّى ذلك إلى قطع يده.. ورب موعظة لخطأ ارتكبته أدخلتك في رحاب الله وحولّتك الى عنصر صالح تحب الخير وتعمل به وتجاهد من أجل إعلاء كلمته، فهذا المرض قد حوّل جسمك إلى جسم صحيح سليم تستطيع أن تقاوم به عوامل الزمن ومشاكل الحياة..

الخامس: قوله عليه السلام: (وربما نصح غير الناصح وغش المستنصح).

النصيحة واجبة لكل مسلم ومن استنصحك أولاك فضلاً كبيراً لأن ذلك معناه أنك موضع ثقته وأمانته وإنك خبير بشؤون هذه النصيحة وأهل أن تُستنصح. يجب أن تقدّر مجيئه اليك وعدم مجيئه الى غيرك! لماذا قصدك أنت بالذات ولم يقصد سواك؟!... لماذا توجّه إليك وحدك؟!... إنه الإيمان بصدقك.. ومعرفتك.. وخبرتك.. فكن عند حسن ظنه.. كن حسب ما هو يراك من أهلية المقام والصدق والإخلاص. فلا تفتك به ولا تخنْهُ في نصيحته. إمحضه النصيحة واقلب ظهرها لبطنها وغصْ في أعماقها حتى تستخرج له وجه الحق وتقتنص له الصالح.

إن طبيعة المؤمن أن يتمتع بالاخلاص في النصيحة وبذل الوسع في سبيل استجداء وجهها. لا يرتجل رأياً خطيراً ولا يقتصر على ظواهر محدودة بل يجهد ويجتهد في سبيل الوصول إلى الحقيقة، ولكن للأسف الشديد أن نرى

كبوات المؤمنين كثيرة.. من كنت ترى النصيحة عن أيديهم والإخلاص في نصائحهم.. يخيبون آمالك وتأتي العثرات والزلات عن أيديهم. إن في منظور الناس أن الحاجّ يجب أن يتمتع بالصدق ويسعى في النصيحة وإذا القضية تنعكس فتراه لا يصدق النصيحة كما لا يصدق في القول ونرى من نحتمل في حقه الكذب والغش إذا به لا يكذب ولا يغش بل يبدي النصيحة على وجهها السليم...

كنا نرتقب أن تكون الثغرة عند المنحرف فإذا بها تأتي من جهة المؤمن بالصورة..

نعم ربما نصح غير الناصح ممن ليس من طبعه ذلك ولا تترقب النصيحة منه، وربما انعكست الآية فغش من دأبه النصح وطبيعته عدم الغش...

«وإياكَ والاتكالَ على المُنى فإنّها بضائعُ النّوْكَى، والعقلُ حفظ التجارب، وخيرُ ما جرّبت ما وعظك بادِر الفُرصة قبل أن تكون غُصّةً، ليس كلُ طالبٍ يُصيبُ. ولا كلُ غائبٍ يؤوبُ».

اللغة:

المنى: ما يتمناه الشخص ويعلل نفسه باحتمال الوصول اليه.

النوكى: مفردها الأنوك وهو الأحمق.

---

(١) في هذا الفصل خمسة أمور وهي:

الأول: قوله عليه السلام: (وإياك والاتكال على المني فانها بضائع النوكى)، الأماني بدون العمل سندات بدون رصيد أو عملة مزيفة لا سوق لها؛ وصاحب الأماني انسان يعيش حالماً في السعادة والمال حالماً في المجد والشهرة؛ حالماً في اللذة والنعيم. إنه يحلّق باستمرار في عالم مملوء بالأوهام؛ انه في حلم لذيذ لا يحب أن يُزعج أو يستيقظ منه خوفاً على انقطاع لذته وفقدان حلمه. تراه يسرح وراء الدنيا بما فيها من مال ولذة دون أن يعمل من أجل ذلك ولو شيئاً يسيراً. فهو يعشق ان يصبح أمبراطوراً في المال ولكنه لن يحرك ساكناً ولن يتعب فكره ولا بدنه ولن يسعى في سبيل ذلك من قريب أو بعيد. وانه يريد أن يصبح نجماً لامعاً يبرز في عالم الدنيا ولكنه لن يتحرك من كوخه أو يمشي في تحقيق ذلك ولو خطوة واحدة. انها اماني تعيش بين ضلوع الساكين دون أن ترى النور أو يكتب لها الظهور الى عالم الحياة والأحياء.

وليس الأمر منحصراً بأبناء الدنيا، بل هناك من الناس المؤمنين الذين يطلبون الآخرة ويعيشون فردوسها الأعلى ويسبحون في نعيمها وسؤددها ويغوصون في بحارها وخيراتها؛ حتى هؤلاء بالذات منهم اناس يعيشون الاماني ولا يسعون في سبيلها أو يعملون من أجلها. إنهم يتقاعسون عن الجهاد والنضال

ومد يد المعونة الى الفقراء والأيتام. إنهم يريدون جنة الله ويحلمون بها ويتصورون أنفسهم في أجوائها يحلقون ويسبحون في نعيمها دون عمل ولا جهاد. إنهم يظنون أن باستطاعتهم خديعة الله عن جنته بهذه الأمنيات الفارغة والآمال الحالمة.. لا ... إن الله جعل للجنة ثمناً وثمنها التضحية بالنفس أولاً وبما تملك اليد ثانياً؛ البذل الفعلي والسعي في سبيل الله؛ وبدون أن تتحرك الطلائع المؤمنة وتثبت بعملها وسلوكها انها أهل للجنة فلن تنالها ولن تحظى برؤيتها إلا لزيادة همها وأساها.

وإن بعض المؤمنين كما نرى ونسمع يحبون للاسلام أن يحكم ويحبون أن تكون أحكامه وقوانينه هي التي تحكم الناس وتفصل في قضاياهم. إنهم يقرأون في صلواتهم دعاء: (اللهم انا نرغب اليك في دولة كريمة تعزّ بها الاسلام وأهله وتذل بها النفاق وأهله).. ولا يعملون من أجل بناء هذه الدولة ولا في سبيل تحقيق هذه الرغبة أدنى حركة ولا أقل خطوة. إنهم يريدون دولة من المهدي المنتظر صلوات الله عليه وعلى آله ينتظرون خروجه حتى يحققها لهم. إنهم يقبعون في بيوتهم ويحلمون في دولتهم التي لا تتحقق بالرغبة والأمنية.. لو كانت الدول تُبنى بالرغبة والأمنية لكان المسحوقون والضعفاء من أعز الناس دولاً... ولكن للأسف لا يتحقق ولن يتحقق شيء من ذلك. الدنيا مملوءة بالذئاب وهي في عراك مستمر من أجل الحصول على أكبر قدر منها. الدنيا تضم أشتاتاً مختلفة من الناس. انها تضم الملحد، وتضم الوثني وتضم اليهودي وتضم النصراني وتضم.. وتضم. وكل هذه الفئات تسعى إلى تثبيت تصوّرها على الأرض وتحلم أن تكون هي الحاكمة والمسيطرة، وتعمل في سبيل تحقيق حلمها وبسط نفوذها وسيطرتها.. والمؤمنون فئة تعيش ضمن هذه الأجواء المحمومة والمعركة الشرسة، فهل يُكتفى منهم بالأماني والدعاء؟! هل غاية ما عندهم أن يعيشوا في أحلامهم الحلوة وأمانيهم الساحرة دون أن يتحركوا من مواقعهم إلى الساحة ويقفوا في صف المجاهدين والمناضلين ويثبتوا هويتهم وأصالتهم ويحققوا الحكم الاسلامي الصحيح!! ان تاريخ الاسلام الذي صنعته

الأيدي المؤمنة بقيادة الرسول الكريم والصحابة النجباء لم يؤسس على الأماني والاحلام بل كان الجهاد والتضحية وكان البذل والعطاء وكان الاندفاع حتى الموت هو الطريق الذي رسموه لنا وعبّدوه بدمائهم وأشلاء المجاهدين منهم.

إن رغبة المؤمن يجب أن تبرز في الخارج عملاً وسلوكاً وسيراً حثيثاً ومتواصلاً في سبيل تحقيقها... هكذا علمنا النبي والصحابة وهكذا كانت مسيرة الرواد الطلائعيين الساعين في سبيل الله. إن من يمشي في سبيل الله لا يرى للأمنية مكاناً إذا لم تتحقق في الخارج تجسيداً حياً وحركة ونضالاً.. حتى كلمة التوحيد (لا إله إلا الله...) لا يكون لها معنى إذا كانت الأصنام منصوبة من حولك تُعبد من دون الله. لا قيمة لهذه الكلمة إذا لم تحرك فيك ثورة جبارة مدمّرة تقضي على لوثات الصنمية وأسفافها الأرضي السخيف. لا قيمة لهذه الكلمة إذا لم تأخذ حجماً بركانياً يقذف اللهب والحمم على كل الأوثان والأصنام وتحاول أن تقضي عليها وترد أتباعها إلى الدرب السليم.. إن كلمة لا إله إلا الله تفقد مدلولها ومعناها عندما تتجرد عن حرارتها وإثارتها، وعندما تفقد الجذوة التي تستطيع أن تعقم بها مجتمعك من الانحراف والإسفاف والرذيلة.

إن من يعيش الأمنيات ويسبح في بحر الخيال والأوهام دون أن يحثه شيء منها للحركة والعمل في سبيل تحقيقها وتجسيدها يكون إنساناً بطالاً، أحمق، يبيع ويشتري دون رأسمال.. ويغوص في بحرٍ دون أن يعرف السباحة أو يقود عربة لا علم له بقيادتها.. ولا شك أن تصيبه الفشل أو الغرق والعاقبة موتاً سخيفاً مضحكاً فيشمت به الأعداء ويرثي له الأصدقاء..

الثاني: قوله عليه السلام: (والعقل حفظ التجارب). بالتجربة استطاع الانسان أن يشق عنان السماء ويصعد إلى القمر.. وبالتجربة استطاع أن يقهر الجبال الشاهقة والبحار والمحيطات استطاع بالتجربة أن يبني مدنية ويؤسس حضارة.. استطاع بواسطة التجربة أن يفجر الذرة ويطلق الصاروخ... ويستطيع أن يحرق كل ما بناه بلحظة واحدة..

التجربة كادت أن تصبح رباً.. اتخذتها المدنية الحديثة مبدأ على أساسه تقبل فكراً وترفض فكراً، تؤمن بنظرية وترفض نظرية؛ آمنت بكل ما تقدمه التجربة وما تعطيه من حقائق ومنجزات وكفرت بكل القيم والمثل، وبكل الحقائق والمسلّمات إذا لم تستند إلى التجربة ولم تكن من نتائجها... ومن هنا كفرت بكل العوالم الغيبية المعبَّر عنها (الميتافيزيقيا). انها اتخذت هذه التجربة نقطة الفصل بين الحقائق والأوهام وعلى أساسها ميّزت السليم من السقيم والصالح من الطالح... وبقطع النظر عن صحة هذا التعميم في الحكم رفضاً وقبولاً يبقى للتجربة دورها الذي لا يمكن تجاهله؛ ويبقى لها قيمتها الكبرى ونتائجها التي لا يمكن أن يوفرها أي أمر آخر غيرها...

إن التجربة لها قيمتها ودورها ومجالها المحدود في ما يخضع للتجربة ولا يقوم إلا بها.. إن مجالها المادة تفتيتاً وتمزيقاً، جمعاً وتركيباً؛ لها مجال في عالم الاختراع والابداع، وهذا هو الامام الذي عاش عصراً قديماً يتخطى زمنه وعصره ليضع بين أيدينا حكمته المتعالية التي يدفعنا من خلالها إلى التجربة وممارستها... وإلى استغلال هذه التجارب كي نتقدم ونترقى ونصعد في سلم الحضارة والتقدم...

ولكن صيحة هذا الامام وصرخته وقعت صرخة في مقبرة لم يسمعها المسلمون، ولم يعيشوا في رحابها وآفاقها الواسعة، بل أسدلوا دونها الستار ولم يعطوها بالاً فاستغلها غيرهم... لقد وصلت إلى مسامع الغرب فراح العلماء منهم وأصحاب الفكر يدرسون التجربة بوعي ودقة حتى استطاعوا من خلالها أن يقدموا منجزات الحضارة الحديثة بوسائلها وسبلها وبكل ما تزخر به من تقدم ورقي، لقد تقدموا وتأخرنا، وقطعوا شوطاً طويلاً في تذليل الصعاب والعقبات ولا نزال نحبو على الركب نلهث في الصحراء القاحلة، نفتش عن جرادة نقتاتها أو ناقةٍ شاردة نردّها الى حظيرتها؛ حتى خيرات بلادنا، حتى ذهبنا الأسود- النفط المتدفق من بطن الأرض- نعجز أن نصنّعه كما نشاء ونفتقر إلى أوليات استخراجه فضلاً عن درجات تصنيعه وتصنيفه.. مأساة

كبرى، والله إنها مأساة، حتى صناعة النفط نستسلم فيها للخبراء والمستشارين الأجانب، ويبقى سر استخراجه وتسويقه وتصديره وتصنيعه محتكراً لهم. وليس لنا من الأمر إلاّ أن نقبل بالأسعار التي يريدون وبالقيمة التي يشترون، ليس لنا من الأمر الاّ أن نقبل بكل ما يطرحه علينا الأعداء المستغلون، واجبنا أن نقبل.. ونخضع ونرضى دون إظهار لاشمئزاز أو تأفف أو شكوى. ما أتفه هذا الزمن وما أحقر أهله.. كنا أسياد العالم وعباقرة الدنيا، كنا إذا سرنا سار معنا العلم والفكر والحضارة.. سارت معنا الثقافة والحرية والكرامة... وصرنا اليوم عالةً ثقيلة... لا ندخل في حساب الأمم الا للإستهلاك وتصريف منتوجاتها وتسويق بضاعتها... إن كل هذه الملايين بأرقامها الضخمة تتحطم أمام عدو صغير مرتزق جمع شتاته من أطرف الدنيا ولمّ متفرّقاته من أركان الأرض وأخذ يحتل الأرض الاسلامية تدريجياً ويؤسس امبراطوريته التي حلم بها منذ آلاف السنين. إن اليهود الذين احتلو فلسطين وشردوا أهلها وفتكو بلبنان واجتاحته معداتهم ودمرت قراه ومدنه، هذه الدولة اللقيطة.. ربيبة الاستعمار الأمريكي لم تكن لتستقر أو تتخذ موطن أقدام لها لو كان المسلمون يسيرون خلف دينهم ويعملون بما أمرهم به ربهم. إنهم تركوا وصايا نبيهم وأهملوا تعاليم العظماء منهم ففسدت عليهم الحياة وتأخروا عن غيرهم. إن غيرهم قد سار على الدرب حتى وصل، أما المسلمون فإنهم أهملوا العلم والخبرة وتركوا التجربة ومنجزاتها فأضحوا في مؤخرة القافلة البشرية يعيشون على فتات موائد الكبار من المستعمرين والمستكبرين.

إننا في زمن التجارب والخبرات وهي لا تتنافى مع العقيدة والإيمان.. بل الإيمان والإسلام يدعوان إلى أن نعدّ العدة ونشحذ الهمة ونقابل الأعداء بما عندهم من أسلحة ومعدات فلا يفل الحديد إلا الحديد ولا يسكت أصوات المدافع والراجمات والقذائف النووية إلا نظائرها. يوم يملك المسلمون القوة وتصبح بأيديهم مقاليد الخبرة والتطور يستطيعون أن يفرضوا وجودهم على

العالم بل يستطيعون أن يحققوا العدالة والكرامة لكل الناس على اختلاف أديانهم وتعدّد مذاهبهم ومشاربهم...

إننا نعيش في عصر قام ونهض على التجربة.. بل نستطيع أن نقول أن حضارتنا هي حضارة التجارب ولن نستطيع البقاء والاستمرار ولن تكتب لنا الحياة إلا إذا سرنا في خط التجربة يرافقها الايمان وتحدوها العقيدة.

إننا مع الامام في منهجه الفذ الكريم منهج التجربة بل التجارب في كل موطن يكون للتجربة فيه مجال فانها من العقل، بل هي العقل على حد قول الامام عليه السلام..

الثالث: قوله عليه السلام: (وخير ما جربت ما وعظك). التجربة ليست هدفاً في حد ذاتها بل هي مقدمة لنتيجة ترغب بها وتريد تحقيقها، نحن هنا نستطيع أن نحوّل هذه التجربة إلى عبادة تؤجر عليها... كما أن هذه التجربة يظهر خيرها فيما إذا أعطت ما أملته منها وأفادتك في تحقيق مطلوبك وغايتك... إن خير التجارب ما تستطيع أن تأخذ منه الفائدة والعبرة ويسهل لك قصدك ويوضح لك الرؤيا في مسيرتك الحياتية ويعظك كي تصحح سلوكك وعملك ويشحذ من همتك للسير وفق العدل والحق والصدق.

إذا اتعظت من خلال تجربتك فأنت الرابح والمستفيد... إذا كنت تظن الثقة بانسان يظهر منه الدعة والورع فجربه بالأمانة... أودع عنده مقداراً من المال، ثم انتظر ردّه لك أو جحده.. فلو ذهب المال منك فأنت الرابح. إنك بتجربتك هذه قد عرفت امانة الرجل من خيانته فلربما استأمنته على أعظم من ذلك وأهم... فيكون الخطر عظيماً وجسيماً... وكذلك لو أقرضت إنساناً مالاً دون أن تكتبه وتشهد عليه ثم أنكره عليك فإن إضاعة هذا المال إذا جعل منك رجلاً حذراً ووعظك بأن لا تعود لمثلها فأنت الرابح والمصيب وهكذا دواليك..

الرابع: قوله عليه السلام: (بادر الفرصة قبل ان تكون غصة).

في المأثور (الدنيا ساعة فاجعلها طاعة)، وكذلك (اغتنموا الفرص فانها تمر مرّ السحاب..) والشاعر يقول:

إذا درّت نياقــــك فاحتلبهـــــا فما تــــدري الفصيــل لمن يكونُ

تفويت الفرص وإضاعتها يُعدّ في بعض الأحيان جريمة يُحاسب عليها الانسان أمام الله وأمام أخيه الانسان.. فالشباب فرصة من فرص العمر تستطيع أن تقدم فيه الصالحات والأعمال الطيبة حيث أن القوى البدنية والعقلية والفكرية مؤهلة للعطاء، فلو أضعت هذه الفرصة سوف تندم عندما تكبر وتشيب... سوف تندم عندما تضعف قواك فلا تستطيع المشي كما لا تستطيع الحركة ولا تستطيع التفكير السليم والتوجّه المستقيم... عندما تأتي السنين لتنقض بنيتك وتحولك إلى هيكل بشري يحتاج إلى الإعانة وتقديم المساعدة... عندها فقط ستعض على يديك بل ستأكلها ندماً وحسرة دون أن تنفع الندامة أو تفيد الحسرة.

إن بعض المشاهد القرآنية تنقل لنا نموذجاً لهذه الحالة المريرة... تنقل لنا طلب الرجعة الى الدنيا كي يصلح الانسان ما أفسد أو أهمل من العمل ولكن لا رجعة ولا عودة فقد وأتتك الفرصة وكنت قادراً على العمل والنجاح فلماذا لم تعمل (قال ربي ارجعوني لعلي أعمل صالحاً فيما تركت... كلا انها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون..). لقد كنت في الحياة كان معك المتسع للعمل والجهاد ودعم الحق والنضال فلماذا لم تنزل إلى هذا المعترك؟!.. لماذا تخليت عن هذه الميادين وقبعت في زوايا بيتك وعكفت على ملذاتك وشهواتك... إن ميدان الحياة هو الميدان الذي يسمح لك ان تخوض تجاربه وتقرر على أساس العمل فيه النجاح والفشل... انه فرصة العمر فلا يجوز إضاعتها...

إن بعض الناس الكسالى الذين يهملون الجد والنشاط في أيام شبابهم سيندمون على إضاعة هذا الوقت وسيبكون على إضاعته وتفويته.. وإن إضاعة الفرص قد يكون على مستوى اكبر وأعظم وأشد خطراً كما لو كانت

الفرصة مؤاتية لإقامة حكم إسلامي ثم تهاون المؤمنون في إقامته وسوّفوا في بنائه وإقامته. إذا توفرت الظروف من أجل تحكيم الاسلام وجعله المحور الذي تدور عليه كل التحركات والنظريات والأفكار لا يجوز اهمال هذه الظروف بل يجب علينا أن نبادر من أجل تجذير الاسلام وتحكيمه وجعله القانون الذي يحكم الحياة بكل نواحيها. واذا استطعت ان تقدم نصيحتك وموعظتك وتوجيهك وإرشادك إلى إنسان ضال أو تائه أو متردد وكنت تترقب لها النجاح والتأثير وجب عليك أن تغتنم هذه الفرصة وتسعى بكل طاقاتك من أجل إيصالها إلى قلبه فإنها فرصة مواتية قد تفوت ولا تعود. وهكذا دواليك في كل مجال وفي كل ناحية.. وفي كل قضية أو مسألة...

الخامس: قوله عليه السلام: (ليس كل طالب يصيب ولا كل غائب يؤوب). كل إنسان يجب أن يسعى في سبيل الحصول على المكارم ويكد في الحياة من أجل اكتساب لقمة العيش الحلال ويكف نفسه عن الاستجداء والاستعطاء.. ولا يجوز بحال أن ينطوي على نفسه ويقعد عن السعي وطلب الرزق والصفات الكريمة... ومضافاً إلى هذا الاندفاع والسعي المطلوب إسلامياً وعقلائياً نجد أن بعض الأمور المطلوبة قد لا تدرك، قد يحول الزمن دون تحقيقها وتقف العقبات والمشاكل في طريق الوصول إليها... فيجب في منطق الامام بل في منطق المفكرين والعقلاء أن لا يكون عدم تحقيق بعض الأمور سبيلاً للكسل أو مجالاً لتقديم الأعذار الكاذبة لعدم السعي والحركة؛ فان طبيعة الأمور أن لا تتحقق كلها حتى مع الاجتهاد فيها والتعب من أجل الوصول إليها... لأن بعض المقدمات التي تأخذ بيدك قد لا تكون تحت سلطانك وقدرتك بل تحت سلطة الآخرين وقدرتهم. وأضرب لذلك مثلاً من واقعنا المُعاش، فإن المفكرين وأصحاب الرأي الصائب من أمتنا بذلوا كل طاقاتهم وقدراتهم من أجل توحيد هذه الأمة ولمّ شملها وجمع شتاتها؛ لقد حاول الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء والسيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده، حاولوا كلهم مع لفيف آخر من أبناء هذه الأمة أن يوحّدوا صفوف المسلمين ويجمعوهم تحت راية التوحيد،

ومع كل تلك الجهود لم يفلحوا ولم ينجحوا؛ لأن تحركهم ونشاطهم المحدود كان يقابله نشاط وجهاد كل القوى المستعمرة والمستكبرة لزرع الفتنة وتأجيج روح العداوة بين المسلم وأخيه المسلم، وعاونهم على ذلك المتعصبون من المذاهب والطوائف وأصحاب الامتيازات الذين لا يظهر لهم صوت ولا ترتفع لهم كلمة إلا ضمن الحزازات الطائفية والمشاكل المذهبية.

لقد كانت صيحة أولئك العظماء في جانب ومسيرة الشعب ومن تولى قيادته زوراً وبهتاناً في جانب آخر.. فكانت العقبات أشد وأقوى من أن يتخطاها رجال محددون بجدود ضئيلة وقليلة، وقدرات صغيرة غير مؤثّرة. ولكن فشل هؤلاء العظماء في تحقيق مرادهم والوصول إلى مطلوبهم لا يستدعي منهم وبالتالي منا أن نكف عن محاولة الجمع والسعي في سبيل توحيد هذه الأمة ورفع كلمتها، فان المسلمين يشكلون أعظم قوة وأكبرها لو اتحدوا واجتمعت صفوفهم. إنهم القوة الأكثر فعالية وحركة وقدرة لو اجتمعوا على كلمة واحدة. وكما الأمر في الأعمال فقد يكون في الخصال والصفات؛ فإنك قد تطلب الرياسة والزعامة التي تتصور أنك من خلالها تحقق العدالة وتبسط سلطان الدين والحق في المجتمع ولا توفق في ذلك إلى النجاح، فلا يجوز لك التقاعس والكسل ولا يجوز لك أن تسترسل أو تستسلم لفشلك بل يجب أن تبقى في حركةٍ وسعي دائبين حتى تحقق مطلوبك أو تعجز عجزاً نهائياً ودائمياً عن ذلك. فالإمام يريد أن يوضح هذه الفكرة... وهي فكرة أن كل من يطلب شيئاً قد لا يتحقق هذا الشيء، ولكن عدم تحقيقه لا يجوز أن يكون من دواعيه الخمول والكسل والقعود عن الاستمرار في السعي والطلب. وكذلك بنفس المفاد قوله: (وليس كل غائب يؤوب)، فرُبَّ غائب عن العيون قد لا تراه أبداً لأنه لن يعود؛ قد يطويه الموت أو يسجنه الظالمون في غياهب المطامير والزنازين.. فرُبَّ مجاهد قرر أن يعمل عملية فدائية في سبيل الله لضرب المجرمين اليهود أو الصليبيين ثم قبض عليه وأودع السجن فحالت بينه وبين أحبابه قضبان السجن وجدران تلك الزنزانة المنفردة... ولكن هذا الاغتراب وهذا التغييب

وعدم العودة لا يجوز أن يكون مانعاً لنا عن الحركة وعن الاغتراب وعن المهاجرة في سبيل الله وفي سبيل المستضعفين...

إن غياب وجه قد لا يعود وفقدان حبيب قد لا يؤوب يكون من أشرف الأمور وأجلّها إذا كانت رحلته وغيبته في سبيل الله وفي سبيل الحق والعدل...

فليس المهم أن تفقد وجهاً بل المهم أن تكمل مسيرة ذلك الوجه وتسير على نفس الخط ولا يكون غيابه وعدم أوبته عاملاً من عوامل إضعافك أو مبرراً لكسلك وجمودك..

«ومن الفسادِ إضاعةُ الزاد. ومفْسَدَةُ المَعاد. ولكل أمر عاقبة، سوف يأتيك ما قُدِّر لك. التاجر مخاطرٌ ورُبَّ يسيرٍ أنمى من كثير...»

---

(١) وفي هذا الفصل خمسة أمور:

الأول: قوله عليه السلام: (ومن الفساد إضاعة الزاد ومفسدة المعاد): الفساد يختلف ضعفاً وشدة، قلة وكثرة فالسرقة فساد والغش فساد، والغيبة فساد، وأكل المال الحرام فساد، ولكن هذه أقل سوءاً من قتل الأنفس وهتك الأعراض والمتاجرة بالأديان والأوطان. نعم كل منها فساد وانحراف وضلال ولكن أحدها أكبر من الآخر وأعظم جرماً وأشد أهمية لما يتبعه من الآثار وما يتركه من الخلفيات المؤلمة والمصائب المرهقة..

إن من كان بسفر وهو بأمسّ الحاجة إلى الزاد هل يضيّع زاده ويتلفه؟!.. هل من المنطق والمعقول أن يضيّع ما هو أهم شيء بالنسبة إليه... قد يستغني المرء عن الكماليات وقد يسقط من حسابه بعض الأمور المهمة فيكتفي بالخيمة بدل البناء ويكتفي بالمنزل المتواضع بدل المنزل الضخم الفخم، ويتنازل عن الثياب الفاخرة الثمينة ويستعيض عنها بثوب بسيط قليل الثمن... قد يتنازل عن بعض الكماليات الأخرى من أصناف الطعام وتعدّد ألوانه ويكتفي بتناول الضروري منه ولكن هل يصل به الأمر إلى إضاعة ما هو ضروري ويتوقف عليه قوام الحياة؟!.. الزاد ليس ضرورياً وحسب وإنما هو فوق الضرورة.. انه لا يقوم الانسان إلاّ به ولا يستطيع الحياة بدونه، لا يستطيع أن يكافح في الحياة أو يدافع إلاّ بعد ان يوفر له زاداً يشد من قوته ويقوي بدنه ويساعده على الاستمرار في الحياة ومشاكلها.. وكما ان الحياة تتوقف على الزاد ولا يستطيع الانسان أن يتحرك بدونه كذلك الآخرة... يوم المعاد... فإن هذه الدنيا مزرعة الآخرة وهذه يكون التزود فيها للآخرة.. والآخرة

هي منتهى الغايات وإليها يرجع الجميع... فما هو زادها؟ وما مؤونتها؟ هل مؤونتها من مؤن الحياة أم إنها من نوع آخر...

إن للآخرة زاداً يتمثل بالايمان والعمل الصالح... (والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات)، فزاد الآخرة أن يطفح هذا القلب بالإيمان بالله ورسوله، الإيمان بالله الذي يجعل الانسان منه رقيباً دائماً على كل نواياه وأقواله وأفعاله، الإيمان بالله الذي يربطه مع الله في كل الحركات والسكنات وفي جميع الأعمال والتصرفات... زاد الآخرة يتمثل بإطاعة الله فلا يعصي له أمراً وتتمثل بإعانة الانسان وشدّ أزره، والأخذ بيده نحو المستقبل الحر الكريم... الزاد للمعاد يكون بصلة الرحم وحسن الجوار وإعانة الفقير، يكون بهداية الناس وإرشادهم وتقويم سلوكهم... يكون بالصلاة والصيام والحج والزكاة وإداء الحقوق والواجبات؛ يكون بتنفيذ إرادة الله في الحدود والقصاص والديات؛ يكون في كل أمر من أوامر الله التي لا تخلو منها حركة ولا يتجرد عنها فِعْلٌ... وإفساد المعاد يكون بعدم القيام بهذه الأمور... وأي فساد هو إفساد المعاد؟! إنه فساد يهون عنده كل فساد لأن على أساسه يتعين المستَقَرُّ إما إلى جنة أو إلى نار.. وإن إنساناً نهايتُه تتأرجح بين الجنة والنار؛ ويستطيع أن يختار أحبهما إليه ثم يفسد عمله ويدخل النار لإنسانٌ تافه وأحمق بل ليس هناك أحمق منه وأتعس..

وإضاعة زاد الآخرة كما جاء عن النبي بما مفاده عندما سُئل عن المفلس فقال: أن يأتي الانسان بأعمال صالحة ولكنه يأتي يوم القيامة وقد شتم هذا وضرب ذاك فيؤخذ من حسناته حتى إذا لم يبقَ منها شيء أخذ من سيئاتهم فوضعت في ميزانه... فإن العمل الصالح إذا لم تلحقه بنار تأكله يعطي ثماره.. أما إذا أتيت بفعل حسن وأتبعته بالسيئات من كل جانب كيف يقوم هذا الفعل الحسن مقابل تلك الجرائم والموبقات؟..

الثاني: قوله عليه السلام: (لكل أمر عاقبة). كل أمر من الأمور له حكم شرعي ولكل حدث من الأحداث وجهة نظر شرعية، فالصدق له عاقبة محمودة

وان كان ضرره فعلياً قد يطال بعض الأشخاص الصادقين على أيدي الظالمين، وردّ الأمانة تعكس التزام المؤمن بدينه والتوافق بين رأيه وعمله لما يحكم به الله، وإقامة العدل في المجتمع ونشر المساواة له عاقبة دوام الحكم واستمراره ورغد الحياة وسؤددها. وهكذا دواليك قد تأكل أكلة مُنعت عنها تترك لك آثاراً سيئة وتحرمك أكلات، وقد ترتكب خطيئة يكون عاقبتها نار جهنم.. وإزاء هذه العواقب التي تنتجها هذه الأفعال يتراءى للانسان العاقل ان يفكر في عاقبة كل أمر يقوم به وفي كل حركة يتحركها ثم يوازن بينها وبين حكمها الشرعي ليرى مدى انطباقها على الحلال والحرام فإن كانت تدخل ضمن الأولى يقوم بها ويعمل بمضمونها وان كانت الأخرى اجتنبها وابتعد عنها...

إن العاقل الكيّس هو ذلك الإنسان الذي يتصور عواقب الأمور وخلفياتها وما تتركه على الساحة من الأثر والعاقبة فان كانت آثارها لصالح الإسلام والانسان ولو على المدى البعيد سعى في سبيل تحقيقها وإقامتها، وإن كانت الأمور على خلاف ذلك لم يحرك ساكناً ولم يتحرك من مكانه...

يبقى أمر مهم وسؤال وجيه يفرض نفسه أمام كل قضية من القضايا ومسألة من المسائل... وهو هل يحق لكل فرد أن يقيّم الأمور ويتصرف كما يرى من خلال رؤيته الخاصة لعواقبها أو أن المسألة خلاف ذلك؟..

والجواب عن ذلك: أما الأمور الشخصية فيجب أن يمشي حسب مقلّده- إن كان عامياً غير مجتهد- فيجب أن يكون في طهارته ونجاسته وصلاته وصيامه وغيرها من الأمور التي قد تتخذ صفة الأمور الشخصية والعلاقات الذاتية مقلداً للمجتهد، وفي الموضوعات الخارجية ككون هذا المائع خمراً أو هذا نجس وذاك بول فهذا يرجع الى اجتهاده الشخصي وتشخيصه الخاص... وأما اذا كانت الأمور من القضايا الراجعة إلى المجتمع ككل وتؤثر على النظام في إقامته وهدمه وفي إعلان الحرب وإيقافها وفي التصرف مع الدول وإقامة العلاقة بينها وبين دولة الاسلام فهذا يجب أن يُرجع فيه الى أولي الأمر

المتمثلين في زماننا بالفقهاء العدول الذين يحق لهم الأمر والنهي ولهم الحكم والسلطة في غيبة الإمام المنتظر عليه السلام...

إن إعلان الحرب وإيقافها يخضع لآرائهم واجتهاداتهم حسب ما يرونه من المصلحة للاسلام والمسلمين؛ وليس لغيرهم من الناس أن يجتهدوا في هذا الأمر ويحكموا على أمرٍ بالصحة وآخر بالفساد.. كما أنه ليس لكل فرد أن يستقل في إتخاذ القرار وإصدار الأحكام، بل يجب أن يرجع في هذا الأمر إلى أولي الأمر وإلاّ لو استقل كل فرد بما يرى لساد الهرج والمرج واختل النظام وفسدت الأمور...

والإنسان العاقل هو ذلك الذي يرى العواقب أما من خلال رؤيته إن كان من أهل الرأي أو من خلال الاعتماد على آراء غيره ممّن يصح له الاعتماد عليهم؛ وعندها يختار العاقبة الصحيحة والسليمة التي توصله إلى رضوان الله وجنانه...

الثالث: قوله عليه السلام: (سوف يأتيك ما قدر لك...): ما قدر لك سوف يأتيك ولكن ليس لك أن تترك الأسباب المنصوبة وتجلس في بيتك تنتظر ذلك الأمر المقدّر، بل عليك أن تمشي على طبق الموازين التي وضعها الله فان لكل شيء سبباً ولكل حادث محدثاً ولك قفل مفتاحاً.. ولا يجوز أن تتجاوز المرسوم لك شرعاً وتتخطاه إلى الحرام... فإن رزقك سيصلك عن طريق الحلال إذا بحثت عنه وتدبّرته؛ فبدلاً من أن تقتحم أبواب الحرام فاطرق أبواب الحلال وادخل إلى تحصيل الطيبات عن طريق مشروع وجائز..

الرابع: قوله عليه السلام: (التاجر مخاطر): لقد استبطنت لفظة (التاجر) كثيراً من المكر والاحتيال وأضحت وصفاً لقوم استحوذ عليهم الطمع والجشع والغش والاحتكار وقد مارس التجار طرقاً وأساليب ملتوية من أجل الحصول على الربح ضاربين عرض الجدار كل القيم والمثل وكل الآداب والأخلاقيات، فترى التاجر لا همّ له إلاّ إقتناص الربح وتوفيره ولو كان على حساب راحة الناس وكرامتهم وأمنهم وسعادتهم... لم يعد للمبادىء في نظر التجار أي أثر

بل كلها تُطوى ويقفز عنها في سبيل حفنة من المال. لم نعد نجد التاجر الذي يتورع عن الاكتساب الحرام، بل أباح التجار لأنفسهم كل شيء يعود عليهم بالنفع فأباحوا الربا وحللوا الغش وحكموا بجواز بيع الخمور وآلات اللهو والمعصية، واستوردوا المفاسد التي تميت النفوس وتقتل الأوقات وتقضي على التطلّع لمحو المستقبل المزدهر السعيد..

إن تجارّنا اليوم لم يعرفوا الحلال من الحرام ولا الجائز من الممنوع ولا الباطل من الحق؛ إن على قلوبهم أغشية عن رؤية الحق وكفى بهذه مخاطرة، كفى بها هلاكاً، إن من اشتبهت عليه الأمور فباع حلالها وحرامها وممنوعها وجائزها كيف يأمن عن الوقوع في الخطر... إن التاجر الذي لم يتفقه ولم يدرس معالم الحلال والحرام فيعرف ما يجوز له بيعه وما يحرم؟!.. وما يصح شراؤه وما يمنع؟!... ويعرف متى يتحقق الربا ومتى تفسد المعاملة؟!... التاجر الذي يبيع دون ضابط ويشتري دون ضابط كيف لا يقع في خطر المعصية وكيف ينجو من خطر الحرام... كان المسلم قبل هذه الأيام إذا أراد أن يشتغل في التجارة تفقّه في هذا الباب ودرس ما يمكن أن يُبْتَلَى به ووقف على كل ما يهمه في هذا الشأن ثم بعد ذلك يدخل في هذا المجال.

وكان التاجر أيضاً تبركاً وتيمناً لا يدشّن محله إلاّ في يوم يكون فيه مناسبة إسلامية كيوم ولادة النبي (ﷺ) أو مبعثه أو هجرته أو ذكرى ولادة أمير المؤمنين علي، أو يوم الغدير، أو في بعض الأيام المباركة التي تحمل طابعاً إسلامياً وحدثاً له قيمته ومدلوله وبركته. وكان التاجر يتبرك بقراءة مجلس عزاء سيد الشهداء ويتصدق على الفقراء ويعين المساكين ويخفف ربحه عن المؤمنين، كان فيما مضى لتجارّنا أسلوب رائع وطريقة لطيفة جميلة، لقد عهدنا بعض التجار المؤمنين في مدينة النجف الأشرف يعرفون باب التجارة وفقهها وآدابها ومستحباتها بشكل يريح النفس ويسرها...

وأين منهم تجارّنا اليوم؟ لو دخلتَ أسواقنا لأنكرتَ أن يكون فيها مسلم... التجار المسلمون في لبنان- إلاّ النادر القليل- ليس فيهم من الإسلام

أثر، لا تميزهم عن اليهود والنصارى بشيء، بل رأينا بعض التجّار وقد اتخمه الغنى وأفسده الثراء يضع النساء العاريات باعةً في محله ويفتح اسطوانات الغناء ومكبرات الصوت بقصد جلب الزبائن ولفت أنظارهم إلى محله؛ لم يعد له من همّ إلا همّ الربح فهو يفكر في قيامه ومنامه وفي حركته وسكونه وهو مع أهله وفي سهرته وعلى طعامه، يفكر بشكل مستمر في أنجح الطرق وأيسرها لتوفير الربح وازدياده دون نظر إلى حِلّيته وحرمته وهذا هو منتهى المخاطرة الدينية...

وهناك مخاطرة مادية وهي أن التاجر قد يشتري متوقعاً الربح، ولكن بما أنه فرد في مجتمع التجار، وكل منهم يبتغي الربح فقد تنزل قيمة السلعة عمّا اشتراها به، فيهوي في الخسارة والافلاس؛ وهكذا قد يشتري سلعة ويصيبها الكساد أو التلف أو غيرها من عوامل الزمن من حريق أو غريق أو غير ذلك...

إن التاجر معرّض للإفلاس في كل وقت وقد رأينا بأم أعيننا في هذه السنوات العجاف التي مرّت بوطننا لبنان كيف أصيب كثير من التجار بضربات قاضية أتت على أموالهم كلها واستحقوا الحقوق الشرعية بعد أن كانوا يؤدّونها أو هي واجبة عليهم قصروا في أدائها وسوّفوا في إخراجها. لقد وجدنا ذلك الملاك الكبير والتاجر العظيم قد استحق الرحمة والاحسان ووقف على بعض الأبواب يطرقها كي يستدين قليلاً من المال يصرفه على نفسه وعائلته... بل وصل الحال ببعضهم أن ماتوا غماً وحزناً على ما أصابهم من ذلٍ بعد عز ومن فاقة بعد غنى ومن فقر بعد ثراء؛ وهذه كلها عبر وعظات كي يأخذها تجارنا لإصلاح دينهم ومراقبة الله في تصرفهم في بيعهم وشرائهم ولا تغرّنهم الحياة الدنيا فإنها الى انقضاء وزوال.

الخامس: قوله عليه السلام: (رُبَّ يسير أنمى من كثير): أما على المستوى الشرعي فهذا شيء لا ريب فيه ولا شك يعتريه فإن الشارع اعتبر درهم الصدقة بواحدةٍ واعتبر درهم القرض بثماني عشْرةَ حسنةً، كما اعتبر درهماً من

الربا يصيبه الرجل أعظم من سبعين زنية كلها بذات محرم... كما أن الانسان لو تصدّق بما عنده وما ملكت يمينه كلها وكانت قناطير مقنطرة من الذهب والفضة وما غلا ثمنه من الجواهر والعقيان ثم لم يتقرّب بذلك إلى الله ولم يخلص في عمله، كل تلك الصدقات لم تَزِنْ عند الله جناح بعوضة... بينما لو أنفق الرجل بعض ما قدرت عليه يده وكان إنفاقه عن طيب نفس واخلاص وقربة إلى الله فان هذا التقرّب بالأمر اليسير ليس له عدل في دار الدنيا ولا نظير وانما الذي يوفّيه أجره هو الله؛ والله أكرم وأجل من أن يجعل أجره وثوابه دون الجنة؛ ولنا في قصة أهل البيت التي يقصها القرآن في سورة الدهر أعظم الأمثال وأجلّها حيث أن هؤلاء الأطهار المبرؤون من العيب قدّموا أقراصاً معدودة لليتيم والمسكين والأسير ولكنها خرجت من داخل قلوبهم وعاشوا مع هذه الأصناف في آلامهم وأحزانهم وتماستهم وتفاعلوا معهم بجميع جوارحهم فقدّموهم على أنفسهم وآثروهم على ذواتهم. ولما علم الله اخلاصهم في العطاء والتقرب اليه في البذل انزل فيهم آيات بينات يرددها العالم كله ويتمثلها المخلصون في سلوكهم وسيرتهم... إن هناك الكثير ممن قدّم وبذل وأعطى ولم تنزل في حقه آية واحدة بل ولا حرف واحد وقد يكون عطاؤه اكبر وأكثر بكثير من هذه الأقراص المصنوعة من خبز الشعير التي تصدّق بها أهل البيت، فإن القليل مع التوجه به إلى الله والاخلاص في طريقة تقديمه يكون أنمى أجراً وثواباً ممن يقدّم الكثير وهو عارٍ عن نية التقرّب إلى الله والتوجه إليه...

«لا خيرَ في مُعينٍ مهين ولا في صديق ظَنينٍ. ساهِل الدهرَ ما زَلَّ لكَ قَعُودُه، ولا تُخاطِرْ بشيءٍ رجاءَ اكثرَ مِنْه. وإياك أنْ تجمح بك مَطيهُ اللَّجاج».

اللغة:

المهين: الحقير.

الظنين: المتهم.

القعود: الجمل حين يمكن ركوبه.

---

(١) في هذا الفصل الشريف خمسة أمور:

الأول: قوله عليه السلام: (لا خير في معين مهين). إذا أردت أن تستعين فعليك بأصحاب الاقدام السابقة في معالي الأمور ووجوهها، توخّ أطيبها نفساً وأسخاها يداً وأعلاها منزلة. إذا أردت أن تستعين دون منّة بل مع الاحتفاظ بكرامتك وعزتك فارْم ببصرك نحو من تعرّق وتجذّر في المناقبية والتسامي فانه لن يردك خائباً ولن يشوش عليك عملك أو يلحق بك وبحاجتك التهمة المسيئة والسمعة القبيحة. إذا كانت حاجتك عند شخص كبير فترقب الرجل الكبير واستعن به لقضائها عنده ولا تتوسط بالخادم والحاجب والبوّاب.

إن النفوس الكبيرة لممارستها الخير وقضاء حاجات الناس تعود وكأن هذه الأمور من طبائعها بل ترى لذة في إعانة الناس وكشف كروبهم وتسهيل أمورهم، تعود حاجات الناس بالنسبة إلى ذوي النفوس الكبيرة عادة يأنسون بها بل يستوحشون لفقدها ويتأذّون عند عدم قضائها... فكما أن حاتم الطائي كان يجد اللذة في الكرم ويطلب الضيوف من أجل قراهم حتى أضحت هذه الخصلة عادة له يستوحش إذا أكل منفرداً بل لا يستطيع أن يجلس على مائدة خالية من الضيوف هكذا حال أصحاب الهمم الكبيرة وأصحاب الكرامة

الصحيحة يأنسون في قضاء حاجات الناس وسدّ عوزهم وستر عيبهم ولا يقصّرون في هذا المجال...

أما السفَلة من الناس، أبناء الشارع وأهل المجون... أما المهين الذي تزدريه الناس لخسته ووضاعته ولسوء تصرفاته وقلة حيائه الذي يمارس الانحرافات ويعمل بالمعاصي والخطايا فان الاستعانة به مذلة ومهينة.. وكيف تستشفع بمنحرف أو تستعين بظالم في قضاء حاجة أو إنجاز معاملة!!! وكيف تنظر الناس اليك والى حاجتك التي استعنتَ لقضائها بهذا المنحرف المهين، فإنهم بدون شك سينظرون إليك باحتقار وازدراء وسفالة وضعة وكفى بهذا سوءاً وكفى به خزياً. وهذا هو رأي الاسلام وهذه هي تعاليمه يوم كان في البين إسلام يحكم ومسلمون ملتزمون؛ أما اليوم، وسلام على هذا اليوم بل على هذه الأيام، فقد انقلبت الموازين وتغيّرت الوجوه وتنكّرت الدنيا وأدبرت وجاءتنا تعاليم الصهيونية والصليبية فزرعت في مجتمعنا المسمّى بالإسلامي مفاهيم وأفكاراً تخالف كل هذه القيم والمثل.. صارت المومسات وسائط في إيصال هذا الفرد إلى أعلى المنازل في الدولة وأعظمها.. وأضحت الانحرافات هي السبل التي تؤهل هذا الإنسان ليعلوا ويرتفع نجمة على أعتاب السلطان، بل السلطان نفسه كما كانوا يسمونه قديماً ويسمونه الآن الحاكم أو رئيس الجمهورية، حتى هذا صارت تأتي به العاهرات والمؤامرات وأضحى تمرّغه في الباطل هو ميزان تقدمه وانتصاره فهذا (ريغان) رئيس أميركا كان ممثلاً جاءت به الصهيونية العالمية زعيماً على رأس أكبر دولة في العالم وهكذا من كان قبله؛ جاءت بهم المنظمات اليهودية لأنهم يخدمونها ويخدمون مصالحها وكم تسربت فضائح الزعماء وانكشفت أدوارهم المشبوهة وخلفياتهم الدنيئة.

إن هذا الزمن، زمنُ العهر والنفاق؛ فبمقدار نفاقك وتملقك وتنازلك عن شخصيتك وكرامتك تستطيع أن تتقدم في الدولة وتترقى في مناصبها؛ وأنا أحيل القارىء إلى أن يدرس كل مسؤول- إلا القليل- بعين التحقيق والتدقيق ليرى صدق ما أقول.

الثاني: قوله عليه السلام: (ولا في صديق ظنين). لأن الصديق الذي يحمل نفسية مملوءة بالشك ويحمل كل بادرة من صديقه على أسوئها، مثل هذا الانسان لا يستطيع أحد المشي معه كما لا يستطيع أن يصفّي الأجواء وينقيها من الشرور والآلام، لأن وراء كل حركة مشكلة ووراء كل كلمة ألف معنى مما يضر بالوئام ويفسد الود، وقد رأى بعضنا هذا النوع من الأصدقاء الذين لا يصفو ودّهم ساعة حتى يعتكر ساعات ولا تنقّى أجواؤهم في وقت حتى تثار فيها الغبار في أوقات وسيأتي الحديث عن الصديق بشكل مفصل بعد قليل من الوصية إن شاء الله...

الثالث: قوله عليه السلام: (ماهل الدهر ما زل لك قعوده). الدهر يومان: يوم لك ويوم عليك؛ هكذا تكون الحياة وهكذا رسمت صورتها وتبينت معالمها فمن كانت له أعارته محاسن غيره، ومن كانت عليه سلبته حتى محاسن نفسه، هكذا قال علي في احدى كلماتها وهكذا واقع الحال والمشاهد للعيان.. فهناك أناس قد أنزلهم الدهر من عليائهم فأسقط تيجانهم وشدد عليهم حتى أحوجهم إلى أن يمدوا أيديهم للاستجداء والاستعطاء؛ وهناك أناس رفعهم الدهر من الحضيض، من أسفل طبقات المجتمع والحياة إلى عز لا يدانيه عز.. فقد كان هناك من يعرف الامارات العربية، ويعرف تلك الوجوه القديمة التي كان أصحابها يركضون خلف البعير في حر الهجير ليردُّوه إلى حظيرته.. وهناك من كان يطارد الجراد ليجمعه ويدخره لموسم الشتاء... وهناك من لم يعرف القميص ولا السروال... ثم مدّ الله لهم في طغيانهم وانزل نعمه عليهم ليعرفهم حقيقتهم ويقررهم على ظلمهم... وهكذا دواليك في غيرهم...

والإمام هنا يريد أن يقول لنا استغلوا حالة سلام الدهر معكم ولا تحاربوه أو تكلفوه فوق ما تقدرون وقد قال الشاعر:

ومكلّفُ الأيام ضد طباعها   متطلبٌ في الماء جذوة نارِ

فإذا سهلت الأيام وذل الدهر فيجب أن يتحين الانسان الفرصة لإستغلالها والاستفادة منها بمقدار طاقاته ولا يتكلف اكثر من ذلك فانه لن يستطيع، ولا

يحمل نفسه هماً وغماً بل كل شيء يأتي في وقته ويدركه الانسان في أيامه...

الرابع: قوله عليه السلام: (ولا تخاطر بشيء رجاء اكثر منه). العقلاء يسيرون في طريقتهم الحياتية على ضمان النتيجة أو إعتقاد ضمانها أو الظن القوي فيها، ولكنهم لا يقدمون على عمل فيه احتمال المنفعة أو رجاء الربح خصوصاً إذا كان ما يبذل مقابل هذا الاحتمال كبير كمن يخاطر للحصول على مائة بدفع التسمين فان المخاطرة بالتسمين قد تأتي عليها وتذهب بها وهذا عمل غير عقلائي.. وقد استعمل السفهاء اليانصيب وروّجوه بين الناس فمن بين آلاف الأوراق تربح عدة أوراق منها والباقي كلها تذهب هدراً؛ فمن يخاطر بعشر ليرات مقابل المبلغ المعلوم ويبذلها لاحتمال الربح، فانه يقدم على عمل غير طبيعي، وكم سمعنا أو رأينا أشخاصاً قد مضى شطر كبير من أعمارهم يشترون من هذه الأوراق دون أن يربحوا ولو فلساً واحداً...

الخامس: قوله عليه السلام: (وإياك أن تجمح بك مطية اللجاج): اللجاج في الخصومة يُفسد الحق ويشوش الرؤية السليمة فإذا كنت ذا حق فتأنّ في طلبه والوصول اليه؛ يجب عليك أن تسعى بهدوء ولين في طلبه.. فإذا اعتذر صاحبك بعدم توفر المال وتعسره فاقبل منه ذلك وأنظره إلى ميسرة... وإذا كان عند صاحبك شبهة حق في خصومه فلا تلجّ وتلحّ وتكرر التهديد والوعيد فإن ذلك قد يكون عليك وليس لك؛ وكم من إنسانٍ لجّ في طلب أمرٍ وكان لغير صالحه.. وكم من إنسان طلب الحق لجانبه وتبين أن الحق عليه.. فمن كان في أمر أو قضية فليتأنّ في طلبها ولا يلجّ في الحصول عليها...

«إحمِلْ نفسَكَ مِن أخيك عند صَرْمه على الصِلة. وعند صُدوده على اللُّطفِ والمقاربة وعند جموده على البذْلِ وعند تباعُده على الدُنّو وعند شدته على اللين، وعند جُرمه على العُذر حتى كأنك له عبد وكأنه ذو نعمة عليكَ. وإياك أن تضع ذلك في غير موضعه أو ان تفعله بغير أهله. ولا تتخِذنَّ عدوَّ صديقك صديقاً فتُعادِيَ صديقك».

اللغة:

صرمه: قطيعته

الصدود: الهجر

جموده: بخله

.....

(١) في هذا الفصل الشريف سيكون الحديث حول أمرين مهمين:

الاول: في الصداقة

الثاني في الأخوّة.

أما الصداقة: فقد تشوه معناها في هذا الزمن وتلبدت بغيوم داكنة حتى لم يعد يرى ويميز الصديق من العدو، إن الصداقة في هذا الزمن وليدة المصالح والمنافع فقد تأسست وابتنت على الأساس الواهي فبمجرد أن تنقضي المصالح والمنافع تذوب الصحبة وتضمحل المحبة... أما الصداقة اذا ابتنت على حب وقناعة وعن اختيار للمناقب الصالحة والصفات الحميدة في الصديق، فان مثل هذه الصداقة تستمر وتدوم فلا يتغير الصديق إذا جاءته الدنيا ساحبة اليه أذيالها ولا يتبدل موقفه منك إذا صار صاحب سطوة وسلطان أو قوة وتيجان.

إن كل ما في الدينا لا يغيّر نفسية الصديق ولا يبدله عن قديمة الذي كان

بينك وبينه لأن هذه الصداقة تبتني على أسس متينة يصعب إزالتها أو تغيّرها.

وإن أحاديث أهل البيت قد تكفلت في بيان الصداقة ومتى تتحقق؟ والانكار على الصديق المتقلب وكيف نحافظ على الصداقة ونرعى دوامها واستمرارها؟..

- فالإمام الصادق يحدد الصداقة حيث يقول: الصداقة محدودة ومن لم تكن فيه تلك الحدود فلا تنسبه إلى كمال الصداقة ومن لم يكن فيه شيء من تلك الحدود فلا تنسبه الى شيء من الصداقة..

أولها: أن تكون سريرته وعلانيته لك واحدة.

والثانية: أن يرى زينك زيْنة وشيْنك شينه.

والثالثة: لا يغيره عليك مال ولا ولاية.

والرابعة: أن لا يمنعك شيئاً مما تصل اليه مقدرته.

والخامسة: أن لا يُسلمك عند النكبات.

- ويقول الصادق أيضاً لبعض أصحابه: من غضب عليك من اخوانك ثلاث مرات فلم يقل فيك شراً فاتخذه لنفسك صديقاً.

- وفي نهج البلاغة: لا يكون الصديق صديقاً حتى يحفظ أخاه في ثلاث: في نكبته وغيبته ووفاته.

- وعن الامام الصادق عليه السلام قال: لا تُسمِّ الرجل صديقاً سمةً معروفةً حتى تختبره بثلاث: تغضبه فتنظر غضبه يخرجه من الحق إلى الباطل؟ وعند الدينار والدرهم وحتى تسافر معه..

- عن الصادق عليه السلام عن آبائه قال: قال النبي ﷺ: (اعمل بفرائض الله تكن أتقى الناس وأرضَ بقسم الله تكن أغني الناس وكفّ عن محارم الله تكن أورع الناس وأحسن مجاورة من جاورك تكن مؤمناً وأحسن مصاحبة من صاحبك تكن مسلماً..

– وفي حديث عن الامام الصادق عليه السلام قال: ليس منا من لم يحسن صحبة مَنْ صحبه.

– وقال الامام علي عليه السلام: (من أطاع الواشي ضيّع الصديق)..

– وقال الامام عليه السلام: (أصدقاؤك ثلاثة وأعداؤك ثلاثة: فأصدقاؤك: صديقك، وصديق صديقك، وعدوّ عدوّك. وأعداؤك: عدوّك، وعدوّ صديقك، وصديق عدوّك.)

وقال الرضا عليه السلام: أصحب السلطان بالحذر والصديق بالتواضع والعدو بالتحرز والعامة بالبِشْر.

– قال المأمون للرضا عليه السلام: أنشدني أحسن ما رويته في السكوت عن الجاهل وترك عقاب الصديق، فقال عليه السلام:

إني ليهجرني الصديق تجنباً	فأريه أن لهجره أسبابا
وأراه إن عاتبته أغريته	فأرى له ترك العتاب عتابا
واذا بليت بجاهل متحكم	يجد الحال من الأمور صوابا
أوليته مني السكوت وربما	كان السكوت عن الجواب جوابا

أما الأخوة:

الأخوة رباط المؤمنين وعُرى المتقين أحبها الله لخلقه فعاقدهم عليها، إنها تتجسد في بذل ما في اليد والسخاء بما عند الفرد وكفّ الأذى بل الاحسان والعطاء دون منّ ولا جزاء.. يشعر المؤمن اتجاه أخيه وكأنه نفسه لا يستثقل له حاجة ولا يؤخر له طلباً ولا يحوجه إلى المعاودة بل يبادر بمجرد أن يعرف أنّ أخاه يتمنى أمراً أو يريد حاجة يبادر فوراً إلى قضائها. الأخوة بين المؤمنين تتجسد في بذل كل الطاقات من أجل خير الأخ واسداء المعروف له وتقديم ما تحت يده، يحب له ما يحب لنفسه ويكره له ما يكره لها... يمد يده إلى كيسه دون استئذان ولا طلب...

ولو جئنا إلى تعاليم الإسلام في هذه الناحية لوجدنا المسلمين يعيشون في

عالم آخر وكأنهم لا يعرفون الاسلام بل كأنه لم يمر عليهم بعدُ ولم يسمعوا به وبأحكامه؛ أين هذه المثل والقيم التي تصوّر الأخ كالنفس، بل أهم من النفس في بعض الأخبار؟ أين هذا من واقعنا المر الأليم حيث التناحر والقتال وحيث الحرب والعداء فتجد المسلم في قطر يحارب المسلم في قطر آخر، وتجد العداء يستحكم كل يوم وتدور المهاترات والمنازعات وتدور الشتائم والتكفير؟ ولو ألقينا نظرة بسيطة على أمتنا العربية والاسلامية لوجدنا مصداق ذلك ظاهراً للعيان، إنك تجد الحدود الجغرافية التي وضعها المستعمر الكافر هي التي تفصل المسلم اللبناني عن المسلم السوري والسوري عن المصري وهكذا دواليك؛ وقد ساعد هذا الانفصال والاستقلالية ظلمُ الحاكمين وتكريسهم هذه الفرقة التي تخدم مصالحهم وتحفظ لهم عروشهم..

إن غباء المسلمين وعدم وقوفهم بشكل صحيح على إسلامهم جعلهم في حالة تفكك وتصدع ونكد وشقاء لا يقفون من كبوة حتى يقعوا في أخرى ولا يسدون ثغرة إلا وتفتح أمامهم ثغرات... أين تلك التعاليم العظيمة التي لم نرَ منها على مسرح الحياة شيئاً يذكر، لقد تبخرت كل تلك الإرشادات والأوامر وذهبت كلها أدراج الرياح.. فانظر رعاك الله إلى قليل من كثير من حقوق هذه الأخوة واعتبر بها وانظر الى واقعنا وتحقق من المفارقة الفاقعة بل المناقضات الصارخة...

- عن أبي عبدالله عليه السلام قال: (المسلم أخُ المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يخونه).

ويحق على المسلم الاجتهاد في التواصل والتعاقد على التعاطف والمواساة لأهل الحاجة وتعاطف بعضهم على بعض حتى تكونوا كما أمركم الله عز وجل رحماء بينكم...

- قال أبو عبدالله عليه السلام: (المسلم أخُ المسلم هو عينه ومرآته ودليله، لا يخونه ولا يخدعه ولا يظلمه ولا يكذبه ولا يغتابه).

- عن أبي جعفر عليه السلام قال: (إن من حق المؤمن على أخيه المؤمن أن يشبع جَوْعته ويواري عورته ويفرج عنه كربته ويقضي دينه فإذا مات خلّفه في أهله وولده)..

- عن المعلى بن خنيس عن أبي عبدالله عليه السلام قال: (قلت له: ما حق المسلم على المسلم؟ قال: له سبع حقوق واجبات ما منهن حق إلاّ وهو عليه واجب إن ضيّع منها شيئاً خرج من ولاية الله وطاعته ولم يكن لله فيه نصيب.

قلت له: جُعلت فداك وما هي؟

قال: يا معلى إني عليك شفيق، أخاف أن تضيع ولا تحفظ وتعلم ولا تعمل.

قلت: لا قوة إلا بالله.

قال: أيسر حق منها أن تحب له ما تحب لنفسك وتكره له ما تكره لنفسك.

والحق الثاني: أن تجتنب سخطه وتتبع مرضاته وتطيع أمره).

والحق الثالث: أن تعينه بنفسك ومالك ولسانك ويدك ورجلك.

والحق الرابع: أن تكون عينه ودليله ومرآته.

والحق الخامس: أن لا تشبَع ويجوع ولا تروى ويظمأ ولا تلبس ويعرى.

والحق السادس: أن يكون لك خادم وليس لأخيك خادم فواجب أن تبعث خادمك فتغسل ثيابهوتصنع طعامه وتمهد فراشه.

والحق السابع: أن تبرّ قسمة وتجيب دعوته وتعود مريضه وتشهد جنازته وإذا علمت أن له حاجة تبادره إلى قضائها ولا تلجئه أن يسألكها، ولكن تبادره مبادرة فإذا فعلت ذلك وصلت ولايتك بولايته وولايته بولايتك.)

- عن أبان بن تغلب قال: كنت أطوف مع أبي عبدالله فعرض لي رجل من أصحابنا كان سألني الذهاب معه في حاجته فأشار إليّ فرآه أبو عبدالله فقال: يا أبان إياك يريد هذا؟

قلت: نعم.

قال: هو مثل ما أنت عليه؟

قلت: نعم.

قال: فاذهب اليه واقطع الطواف.

قلت: وان كان طواف الفريضة.

قال: نعم.

قال: فذهبت معه ثم دخلت عليه بعدُ فسألتُه عن حق المؤمن؟!.

فقال دعه لا ترده فلم أزل أردّ عليه.

قال: يا أبان تقاسمه شطر مالك ثم نظر اليّ فرأى ما دخلني.

فقال: يا أبان أما تعلم أن الله قد ذكر المؤثرين على أنفسهم.

قلت: بلى

قال: إذا أنت قاسمته فلم تؤثره، إنما تؤثره إذا أنت أعطيتَه من النصف الآخر.

– وعن الامام علي عليه السلام قال: (قال رسول الله ﷺ: للمسلم على أخيه ثلاثون حقاً لا براءه له منها إلا بأدائها أو العفو: ١– يغفر زلته، ٢– ويرحم عبْرته، ٣– ويستر عورته، ٤– ويقيل عثرته، ٥– ويقبل معذرته، ٦– ويرد غيبته، ٧– ويديم نصيحته، ٨– ويحفظ خلته، ٩– ويرعى ذمته، ١٠– ويعود مرضه، ١١– ويشهد ميته، ١٢– ويجيب دعوته، ١٣– ويقبل هديته، ١٤– ويكافي صلته، ١٥– ويشكر نعمته، ١٦– ويحسن نصرته، ١٧– ويحفظ حليلته، ١٨– ويقضي حاجته، ١٩–ويستنجح مسألته، ٢٠– ويُسَمّتُ عطْسته، ٢١– ويرشد ضالته، ٢٢– ويرد سلامه، ٢٣– ويطيب كلامه، ٢٤– ويبر أنعامه ٢٥– ويصدق أقسامه، ٢٦– ويوالي وليه، ٢٧– ولا يعاديه، ٢٨– وينصره ظالماً ومظلوماً، فأما نصرته ظالماً فيرده عن ظلمه وأما نصرته مظلوماً فيعينه على أخذ حقه، ٢٩– ولا يسلمه ولا يخذله، ٣٠– ويحب له من الخير ما يحب لنفسه ويكره له ما يكره لنفسه).

وقد ذكر صاحب (المحجة البيضاء) للأخوة ثمانية حقوق نذكر فهارسها مع بعض الالتفاتات...

- الأول: المال: فقد قال الامام علي بن الحسين عليهما السلام لرجل: هل يُدخل أحدكم يده في كُم اخيه وكيسه فيأخذ منه ما يريد من غير اذن؟

قال: لا.

قال: فلستم باخوان.

- الثاني: الإعانة بالنفس في قضاء الحاجات والقيام بها قبل السؤال وتقديها على الحاجات الخاصة.

قال الإمام جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام: إني لأتسارع إلى قضاء حوائج أعدائي مخافة أن أردهم فيستغنوا عني.

- الثالث: اللسان بالسكوت مرة والنطق اخرى، أما السكوت فإن يسكت عن ذكر عيوبه في حضرته وغيبته.

- الرابع: حق اللسان في الكلام كأن يذكر فضائله.

- الخامس: الدعاء للأخ في حياته ومماته بكل ما يحبه لنفسه ولأهله.

- السادس: العفو عن الزلات.

- السابع: الوفاء والاخلاص.

- الثامن: التخفيف وترك التكليف وذلك أن لا يكلف أخاه ما يشقّ عليه.

إن الامام في وصيته يريد أن يؤكد التلاحم القوي بين الأخوة ويسعى إلى ردم أي هوة يمكن أن توسع الخلاف أو تعمقه. فإذا بدرت من صديق بادرة أو صدرت هفوة أو كان الصديق لأمرٍ ما قد تغيّر فيجب أن يقابله الصديق الآخر بعكس ذلك فيصله عند القطيعة ويلطف به عند الصدود ويبذل له عند بخله، ويدنو منه عند بُعده وبهذا المفاد وردت الأحاديث الكثيرة. منها ما رواه في الكافي عن أبي عبدالله عليه السلام عن النبي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ في خطبة: ألا أخبركم بخير خلايق الدنيا والآخرة؟ العفو عمن ظلمك، وتصل من قطعك والإحسان إلى من أساء اليك وإعطاء من حرمك.

وفي حديث آخر عن أبي حمزة الثمالي عن علي بن الحسين قال: سمعته يقول:

إذا كان يوم القيامة جمع الله تبارك وتعالى الأولين والآخرين في صعيد واحد ثم ينادي منادٍ أين أهل الفضل؟ قال: فيقوم عُنُقٌ[1] من الناس فتتلقاهم الملائكة فيقولون: وما كان فضلكم؟ فيقولون: كنا نصل من قطعنا ونعطي من حرمنا ونعفو عمن ظلمنا فقال: فيقال لهم: صدقتم ادخلوا الجنة.

---

(١) عُنُق: جماعة.

«وَامْحَضْ أخاكَ النصيحةَ حسنةً كانت أو قبيحةً وتجرَّع الغيظَ فإني لَمْ أرَ جُرعةً أحلى منها عاقبةً ولا ألذَّ مَغَبَّةً. ولِنْ لِمن غالظك فإنه يوشك أن يلينَ لك. وخذ على عدوك بالفضل فانه أحلى الظَفَرَيْن. وإنْ أردت قطيعة أخيك فاسْتبقِ له من نفسِك بقيةً يَرجعُ إليها إنْ بدا له ذلك يوماً ما».

اللغة:

الغيظ: الغضب الشديد.

المغبّة: العاقبة.

غالظك: عاملك بخشونة.

---

(١) في هذا الفصل الشريف خمسة أمور:

- الأول: قوله عليه السلام: (وامحض أخاك النصيحة حسنةً كانت أو قبيحة). كان للنصيحة قيمتها وأهميتها يوم كان الودّ بين المسلمين قائماً والتحابب بينهم سارياً، كان المسلم يلتقي مع أخيه المسلم ليقدم له النصيحة التي يراها لنفسه حيث كانت الروح الإيجابية بين الأخوة تتفاعل فيا بينهم وكانوا يعيشون كالجسد الواحد يرى أحدهم زين أخيه زينه وشين أخيه شينه. كان الأخ يندفع في سبيل بذل النصيحة لأنها تحمل الخير والودّ وتوجه الأخ إلى ما فيه الصلاح والسعادة.. وكان الأخ المتوجهة نحوه النصيحة يتقبلها برحابة صدر ووعي، يصغي إليها ويعطيها أهمية كبرى، يحرك فكره فيها ويأخذها بعين الاعتبار.. هكذا كان المسلمون بل أكثر من ذلك... وأين هم منا اليوم... لا يجرؤ أحد أن ينصح أحداً لأن هذه النصيحة أما أنها ترفض أو تهمل أو تأتي بشرّ قبيح للناصح الأمين... وهذا يعود تارةً للناصح للشك في إخلاصه وتهمته في النصيحة أو لنفس الشخص المنصوح حيث يجد نفسه أكبر

من النصيحة أو أكبر من الناصح دون أن ينظر إلى النصيحة نفسها ويحلل معناها ويدرسها بجدية وواقعية..

ففي حين يسلك المسلمون خلاف دينهم يصر الإسلام ويؤكد ويكرر الطلب من الأخوة أن يبذلوا النصيحة لبعضهم البعض، ليس النصيحة التي تكسب الودّ وترضي الأخ فحسب، ليست النصيحة التي توافق مزاج الأخ وتوفر له الرضا بها والارتياح؛ بل يجب أن تكون النصيحة حتى فيا يكون ثقيلاً عليه قاسياً على سمعه وقلبه إذا كانت النصيحة حتى فيا يكون ثقيلاً عليه قاسياً على مسمعه وقلبه اذا كانت صحيحة وسليمة ولها حقيقتها وواقعيتها.. يجب أن تكون النصيحة من الأخ نحو أخيه مطلقة العنان في ما أحب وكره لأنها في كلتا الحالتين تعود عليه بالنفع والصلاح وهذا هو غاية الأخوة وهدفها البعيد.

قال رسول الله ﷺ : إن أعظم الناس منزلةً عند الله يوم القيامة أمشاهم في أرضه بالنصيحة لخلقه، ويقول الإمام الصادق: عليكم بالنصح لله في خلقه فلن تلقاه بعمل أفضل منه.

– الثاني: قوله عليه السلام: (وتجرّع الغيظ فاني لم أرَ جُرعةً أحلى منها عاقبة ولا ألذّ مغبّة): ما أجمل الإنسان وأكبره عندما يعلو على غضبه ويرتفع عن تفجيره ضربةً قاصمة أو كلمةً قاسيةً أو صرخةً مؤذية.. ما أروع الإنسان عندما يبتسم ثغره وجوفه يغلي، ويضحك سنه ويكاد قلبه ينفجر من الغضب، إنه يحلم، يقابل الإساءة بالإحسان ويحلم وان جُهلَ عليه ويجاور بالكلمة الطيبة والنظرة العطوفة دون أن يُثار أو ينفجر في وجه خصمه...

كظم الغيظ أن تحبس غضبك مهما كانت أسبابه وتعيش مع من أثارك باللين والوعي فتفتح له باب الحوار الأخوي وتحلم عليه حتى يعود عن غضبه ويرتدع عن تصرّفه...

إن الإنسان إذا امتلك غضبه واستولى على أعصابه يستطيع أن يعيش في ارتياح وهدوء بال... وكم وجدنا أولئك الحمقى الذين يثورون لأتفه الأسباب

وأحقرها... وكم رأينا من المشاكل التي كانت يمكن أن تحلّ بإبتسامة أو كلمة طيبة أو تجاوز عن أمرٍ حقيرٍ لا يستحق الوقوف عنده..

كظم الغيظ عملية امتلاك لما يتحرك في الانسان من احساسات وانفعالات غير عقلانية وسيطرة كاملة عليها عند حب الانتقام والثأر وقد وردت الأحاديث الكثيرة التي تحث عليه وتمدح فاعله.

عن أبي عبدالله عليه السلام قال: كان علي بن الحسين عليهما يقول ما أحب أن لي بذلّ نفسي حمر النعم، وما تجرعت جرعة أحبّ إليّ من جرعة لا أكافي بها صاحبها.

- قال أبو عبدالله عليه السلام: (ما من عبدٍ كظم غيظاً إلاّ زاده الله عز وجل عزاً في الدنيا والآخرة).[1] وقد قال الله عز وجل ﴿الكاظمين الغيْظ والعافين عن الناس والله يحبُ المحسنين﴾، وأثابه الله مكان غيظه ذلك.

- عن علي بن الحسين عليهما السلام قال: (قال رسول الله ﷺ: من أحبّ السبيل إلى الله عز وجل جرعتان: جرعة غيظ تردّها بحلم وجرعة مصيبة تردّها بصبر.).

- قال أبو عبدالله عليه السلام: (ما من جرعةٍ يتجرعها العبد أحبّ إلى الله عز وجل من جرعة غيظ يتجرعها عند ترددها في قلبه، إما بصبر وإما بحلم)...

- الثالث: قوله عليه السلام: (ولنْ لمن غالظك فانه يوشك أن يلين لك). إن الله سبحانه وتعالى مدح نبيّه وبيّن له فضيلة لينه وعطفه وحنانه فقال تعالى: ﴿ولو كنتَ فظاً غليظاً القلب لانفضوا من حولك...﴾. فكما أن الغلظة والخشونة تنفّر الناس وتفرقهم فإن اللين والعطف والحب يجمعهم.. إذا كنت مع أصدقائك غليظاً حركت نفوسهم عليك وأثرتها نحوك فإن النفوس إذا كانت لينة تتحبب إلى الناس وتتقرب منهم لأن اللين نوع من الإحسان والنفوس مطبوعة على حب من أحسن إليها، وهذا عكس الغلظة والجفاء،

فإنه منفّر للمرء مبعد له عن إخوانه وأصدقائه. فمن غالظك في حديث أو نظرة أو نحوها فَلِنْ معه وتحبب إليه تجده عمّا قريب يعود إليك ويقابلك بأفعالك خيراً ويجازيك بإحسانك إحساناً...

- الرابع: قوله عليه السلام: (وخذ على عدوك بالفضل فإنه أحلى الظفرين): الظفرين أحدهما الغلبة على العدو والانتصار عليه في ساحة الجهاد، والآخر أن تأخذ عليه بالفضل من الاحسان والاكرام حتى تسكته بل تجعله لساناً ينطلق في مدحك وتقريظك وهذا الأخير من الظفرين أهم من الأول وأحلى وأثمن وأجمل.. فإن في الأول تقضي عليه مادياً وتنتصر عليه عسكرياً بقوة زندك وسلاحك الذي يشترك فيه أي حيوان يكون أقوى منك بينما في الآخر يتمثل الانتصار الفكري والغلبة العلمية حيث تحوّله بهذا الإحسان والفضل إلى لسانٍ ينطق بحمدك ويذكر فضلك واحسانك، في الأول تجده يتململ لينقّض عليك لأنه لم يذعن لك إلاّ تحت وطأة الغلبة والقهر بينما في الآخر يذعن لك من الداخل ويشعر أنك بإحسانك متفضل عليه محسنٌ إليه.

- الخامس: قوله عليه السلام: (وإن أردتَ قطيعة أخيك فاستبقِ له من نفسك بقيةً ترجع إليها إن بدا له ذلك يوماً ما): جاءت كلمة الإمام هنا تعلياً سماوياً لهذا الانسان الذي تنزع نفسه إلى الشر ويريد أن يسلك مع أخيه خلاف المرسوم له شرعاً. يريد الإمام ان يقول لهذا الانسان إن أخاك ليس عارياً عن كل فضيلة ولا مسلوب الحسنات كلها بل لا يخلون أن يكون فيه بعض المزايا الحميدة والصفات الطيبة؛ فاذا تشاكست معه في أمر وتفرقت كلمتكما إلى غير اجتماع فيجب أن تحتفظ له ببقية باقية في نفسك من هذه الصفات يمكن أن يرجع إليها إذا عادت الأمور إلى مجاريها وصفت الموارد لشاربيها...

إن بعض الناس إذا غضب على أخيه أو لم يعجبه أخوه في بعض تصرفاته أو خالفه في رأي أو إتجاه أو ارتكب معه خطيئة عمداً أو خطأً، تراه يتعامل معه معاملة العدو فيكشف كل أوراقه التي وضعها هذا الأخ بين يديه أيام السرور والهناء، إنه لا يُبقي بقيةً من تلك الأسرار التي كان يسرها إليه

صديقه فتراه يكشفها سراً سراً ويبوح بها واحدةً إثر أخرى، ويعمد إلى صفاته ليعرّيه من كل فضيلة وينسب اليه كل سيئة ذميمة... لقد انقطع حبل الود بينهما وتمزق ذلك الشمل الذي كان ملتئماً فيما مضى...

إن من يقطع كل الخطوط بينه وبين أخيه يصعب عليه العود اليه حتى لو كان الأخ يتمتع بإيجابيات وحسنات ويريد أن يرجع أدراجه نحوه..

كيف يرجع اليه وقد تقطعت السبل التي كانت تصله به؟! لم يعد خيط رفيع يصل بينهما أو يجمعهما؟!.. فالإمام ينبهنا إلى معنى دقيق وعظيم وهو أن لا نقطع كل الخطوط والخيوط التي بيننا وبين الأخ بل يجب أن نبقي بعضها حتى إذا أراد الرجوع أمكن ذلك وسهل الأمر..

«وَمَنْ ظنَّ بكَ خيراً فصدّقْ ظَنَّه، ولا تُضيعَنّ حقَّ أخيك إتكالاً على ما بينك وبينه، فإنه ليس لك بأخٍ من أضعتَ حقّه، ولا يكُنْ أهلُك أشقى الخَلْقِ بك، ولا ترغبَنّ في مَنْ زَهِدَ عنك. ولا يكونَنَّ أخوك أقوى على قطيعتك منك على صلته، ولا تكونَنَّ على الإساءةِ أقوى منك على الإحسان ولا يكبُرنَّ عليك ظُلْمُ مَنْ ظلمك، فإنه يسعى في مضرته ونفعِك. وليس جزاءُ من سرّك أن تسوءه».

في هذا الفصل أمور يجب التعرض لها.

– الأول: قوله عليه السلام: (ومن ظن بك خيراً فصدّق ظنه). ترغيب في عمل الخير وقوة دفع في سبيل الصالحات.. إنه أسلوب من أروع الأساليب وطريقة رائعة من الطرق التي تأخذ بيد الانسان نحو الفضيلة... أسلوب الظن الحسن بن ابتدأ الخطوة الأولى في طريق اصلاح النفس وتهذيبها.. إن حسن ظنك بإنسان يجعله قهراً عنه ان يصدّق ظنك؛ حسن الظن يشكل قوة الدفع في المظنون به، فمن ناديته بصفة حميدة أو خصلة عالية اضطر ان يتصنع أو يتكلف حتى يبلغ هذه الخصلة.. فمن كررت عليه يا صادق اضطر أن يحقق هذه الصفة في نفسه ويظهرها لك بصورة صادقة وإذا تكرر منه هذا الفعل واستمر فيعود بعد مدة عادة دائمة يعسر عليه أن يتخلى عنها بسهولة..

– الثاني: قوله عليه السلام: (ولا تضيعنّ حق أخيك إتكالاً على ما بينك وبينه فإنه ليس لك بأخ من أضعتَ حقه). إذا صدقت الأخوة وجب الاخلاص فيها والبذل لها وعدم منع شيء عنها، فيتحول الأخ الى نفس ثانية يرعاها أخوه ويحافظ عليها ويهتم بشؤونها ويبذل ما تحت يده لها ومن أجلها.

وقد أكد الأئمة على رعاية حق الأخوة والمحافظة عليها وقد رسموا في

حديثهم الشريف كيف نتعامل مع إخواننا وكيف نستطيع أن نكتسب مودتهم ونُديم أخوتهم...

ومن جملة هذه الأمور التي أكد عليها الأئمة رعاية حق الأخوة والمحافظة على القيام بما تتطلبه هذه الأخوة ولا يترك الأخ هذه الحقوق إتكالا على هذه الأخوة.

بعض الأخوة يهملون حقوق اخوتهم بحجة أنهم من البيت تارةً وبحجة أنهم كأنفسهم أخرى وبحجة أنهم إخوة ثالثةً، والإمام يؤكد أن هذا الأخ لا يسقط حقوقه هذه الأعذار والحجج... فإذا مرض وجبت زيارته واذا عاد من سفره وجبت تهنئته وإذا صار عنده مناسبة وجب الحضور عنده ولا يجوز التعليل وخلق الأعذار بأنه أخ فلا يعتب وانه أخ وهو يغفر.. وخصوصاً إذا تكررت هذه المخالفات وكثرت هذه الاعتذارات فإن عقد الاخوة تتحلل عراها وتنفصل ويفقد الأخ عندها أخاه، والغبي من فقد أخاً له عاش معه وأعجبه واستفاد من سلوكه وحديثه بما يقربه من الله وجنته..

- الثالث: قوله عليه السلام: (ولا يكن أهلك أشقى الخلق بك). نفهم من خلال الحض في أحاديث المعصومين على صلة الرحم والجوار والأهل والقرابة والأصدقاء والأخوة أن للإسلام عناية زائدة بمن يتصل بهم وتربطهم به رابطة ولو كانت ضعيفة... هذه الصلة يمتّنها الإسلام ويقوّيها ويرفع من طريق تحقيقها كل العقبات والمعوقات ويوصي المسلمين بالعفو والصفح والتسامح ويؤكد على هذه المعاني في حق الأهل والأقرباء والرحم...

إن الأحاديث تؤكد على التراحم بين الناس جميعاً ولكنها تؤكد هذا المعنى في حق الأقرباء من الأهل والأولاد والأرحام... والإمام هنا ينهي أن يكون أهل الإنسان أشقى الناس به بدل أن يكونوا أسعد الناس به... فإذا لم تستطع أن تكون وسيلة السعادة لأهلك فلا أقل من أن لا تكون وسيلة شقاء لهم.. وإننا نسمع عن بعض الناس أنهم خارج بيوتهم ينشرحون ويفرحون، يضحكون

ويمرحون، حتى إذا عادوا إلى أهلهم تغيّرت أوضاعهم وانقلبت أحوالهم؛ تراهم تسوء أخلاقهم وتعلو أصواتهم بالصياح والسباب والشتم والضرب وكأنهم غير أولئك الذين كانوا قبل ساعة خارج بيوتهم أصحاب الأخلاق والآداب والفرح والانشراح. إن هؤلاء يخالفون وصية الامام هذه ويعملون بخلافها؛ وقانا الله من الزلل والخطأ ووفقنا لما فيه الخير والفلاح...

- الرابع: قوله عليه السلام: (ولا ترغبّن فيمن زهد عنك). إذا رغبت فيمن زهد عنك زادته رغبتك فيه احتقاراً لك لأنه ينظر إليك بعين الحاجة إليه والعوز إلى فضله فإن الرغبة في إنسانٍ لو قابلته الرغبة من الطرف الآخر أثرت هذه الرغبة وأثّرت وأعطت ثماراً طيبة ونتائج حسنة...

إذا كانت الدنيا إلى جانب انسان وقد أقبلت عليه من أطرافها تراه يزهد بأصحابه القدامى ويتنكر لجميلهم القديم معه ويتناسى كل إحسانهم وفضلهم ويزهد فيهم على حد تعبير الامام لأنه يجد نوعاً جديداً من الأصحاب والخلّان على شاكلته وسمته، وقد عهدنا أناساً ممن اغتنوا بعد فقر وارتفعوا بعد ذل رأيناهم قد زهدوا بأصحابهم وتنكروا لهم بل لم يعودوا يعرفونهم، فأجمل بهؤلاء الناس أن يقابلوا مثل هذا المتكبر المتعالي بالزهد فيه والاحتقار لجالسه، فإن ذلك أحسن لحالهم وأجمع لشؤونهم...

- الخامس: قوله عليه السلام: (ولا يكونن أخوك أقوى على قطيعتك منك على صلته ولا تكونن على الإساءة أقوى منك على الاحسان): الإحياء على وجه هذه الأرض في سباق مستمر بعضُهم مع بعض، وكل واحد قد رسم شوطه وحدد هدفه فمنهم من حدد الحدود بالإفساد والمعاصي والخطايا كأبناء هذا الزمن الذي أخذ أهله يسارعون فيا بينهم أيّهم يكسب إثماً أكثر من غيره؛ فترى هذا الفرد يشرب كأساً محرمة فيسابقه جاره ليشرب كأسين وترى هذا الانسان يتباهى بعدم الصلاة فيبادله الآخر متباهياً بعدم الصلاة والصيام، وترى هذه المرأة تتباهي بسفورها وخلاعتها فتبادر أختها لتباهيها بهذا، وبعدم القيام بشيء من واجبات الله وهكذا دواليك. هذا هو سلوك الناس في زماننا،

ولكن الاسلام له شوطٌ يرسمه ضمن حدود الله ويقول لهذا الانسان: إذا بادر أخوك لقطيعتك وسارع إلى ذلك فكن أنت السابق على صلته وكن أنت الذي ترسم له طريقاً حسناً وأنت الذي تعلمه درساً في الخير والعمل الصالح... لا يكن بمعصيته أسرع منك في طاعتك فأنت على حق وخطواتك كريمة ومباركة فلا يجوز أن يسبقك العاصي في معصيته على شوط الطاعة في طاعتك، وعلى حسن المبادرة إلى صلة من قطعك والاحسان إلى من أساء إليك.

والآن وأنا أكتب هذه الكلمات أسمع بأذني أهل الفسوق يحيون ليلتهم بالمعصية وأصواتهم ترتفع بالغناء الحرام في ساعة متأخرة من بعد منتصف الليل؛ إنهم يسارعون في المعصية والانحراف ويتجاهرون بالحرام على رؤوس الأشهاد، في هذه اللحظات التي يتسابق فيها الفسقة على معصية الله يغط المؤمنون في سبات عميق وتأخذهم راحة النوم والكرى فيا ليتهم سهروا على طاعة الله كما سهر العصاة على معصية الله ويا ليتهم اجتمعوا كما اجتمع ونحن نسارع في الإهمال والتسويف والتأجيل، إنهم يسارعون في الانحراف ونتباطأ في الإصلاح، وإن بقينا هكذا هم يسرعون ونحن نتباطأ سيغلب باطلهم حقنا وسيأتي انحرافهم على استقامتنا وسنندم في موضع لا يفيد الندم فيه.

- السادس: قوله عليه السلام: (ولا يكبُرن عليك ظلم من ظلمك فانه يسعى في مضرته ونفعك). الظلم من أشد الكبائر وأعظمها في الإسلام ولم يسمح به لأحد بل حارب الظالمين من أول يوم عرفت فيه هذه الأرض كلمة الاسلام. إن تاريخ هذا الدين معروف لكل الواقفين عليه والسائرين على هداه وكما انه لم يرضَ بالظلم فقد أكد على الناس أن يثوروا في وجه الظالم ولا يستسلموا لظلمه وقهره بل يجب عليهم أن يقفوا في وجهه بكل السبل الممكنة التي تردعه على ظلمه وتوقفه عن ممارسة الظلم.

والإمام هنا في هذه الكلمة الشريفة يريد أن يعالج الموضوع من ناحية أخرى وهي تقدير الأضرار التي تلحق بالظالم من جراء ظلمه وبيان أن هذا

الظلم إنما يحيق بأهله لأن الله أوعد الظالم بنار يُدخله فيها ، فعاقبة الظلم تعود اليه وهو الذي يختار هذا الجزاء بيده. ومن طرف آخر يأخذ المظلوم أجر مظلوميته ويقتص الله له من الظالم ويعوّضه عن آلامه التي لحقته بجنات تجري من تحتها الأنهار ، وهذا العقاب للظالم شيء محقق لا بد منه ، ويكون للمظلوم أجرٌ إذا رفض الظلم والاضطهاد وعمل من أجل رفعه وإقصائه ، أما إذا إستسلم للظلم ورضخ للظالم ، أما إذا امتنعت يده أن ترتفع في وجه الظالم وكذلك إذا حُبست كلمته عن الانطلاق ورضيت نفسه بالذل فإن الله لا يثيبه على مظلوميته بل يعاقبه عليها ويدخله النار مع الظالمين لتركه مقارعة الظالم والركون اليه والسكوت عنه..

– السابع: قوله عليه السلام:(وليس جزاء من سرّك أن تسوءه). بل جزاء الاحسان الاحسان وجزاء المعروف معروف مثله؛ فمن رآك بعين واحدة ينبغي أن تراه بكلتا عينيك ، وعلى أقل تقدير أن تراه بعين واحدة كما رآك . وهذا هو فعل الكرام من الناس والشرفاء منهم إنهم يُكْبِرون الذين يسدون اليهم معروفاً ويجلّون مَنْ تحملوا من أجلهم أقلّ تعب ومشقة وعجيب أن يُبادَلَ المحسنَ بالإساءة والمُعطي بالصدود والكريم بالبخل ، ومن أدخل عليك السرور بإدخال الحزن والألم عليه. إن هناك بعض الجبلاّت الثقيلة التي تتعامل بهذا الاسلوب ، إنها جبلات لئيمة طُبعت على الخسة والدناءة فهي ترفض الاحسان واذا عوملت به تنكرت لفاعله وأساءت إليه. ولكن المسلمين الطيبين يتعاملون بيسر وسهولة ويكبرون كل إحسان إليهم ويتحينون الفرص من أجل وفائه؛ إنهم يرونه ديناً يترقبون الأوقات ليردوه إلى أهله وأصحابه ، فهم في طوايا نفوسهم يرون هذا الجميل نعمةً تحتاج إلى شكر وشكرها أن تكافيء صاحبها وترد إليه باحسان أشد وأفضل...

«واعلم يا بُني أنَّ الرزق رزقان: رزقٌ تَطلُبُه ورزقٌ يطلبُكَ. فإنْ أنت لَمْ تأتِهِ أتاك. ما أقبح الخضوعَ عند الحاجة والجفاء عند الغنى. إنَّ لك من دنياك ما أصلحتَ به مثواك. وإنْ جزعْتَ على ما تفلّتَ من يديك فاجزَعْ على كلِ ما لم يصلْ إليك. إستَدِلَّ على ما لم يكُنْ بما قد كان فإنَّ الأمور أشباهٌ».

اللغة:

مثواك: مقامك.

تفلّت: تملَّص من اليد فلم تحفظه.

في هذا الفصل الشريف أمور:

– الأول: قوله عليه السلام: (واعلم يا بني أن الرزق رزقان، رزق تطلبه ورزق يطلبك فإن أنت لم تأته أتاك). قسّم الإمام في حديثه هنا الرزق إلى قسمين: رزق تطلبه ويتوقف الحصول عليه إلى أن تنهج معه الأسباب الطبيعية التي سنها الشارع ووضعها لكل فائدة وثمرة وربح، فهناك أسواق مفتوحة وبيع وشراء وهناك معاملات يجب أن تتخذ اليها الطريق من أجل توفير الربح والثراء ولا يجوز لك أن تكون اتكالياً تعيش في زوايا بيتك وضمن جدران غرفتك الأربعة دون أن تتجاوزها بحجة أن الله قد تكفل لك برزقك ومؤونتك فإنك إن عملت ذلك تكن مخالفاً للمرسوم شرعاً ومناقضاً لأقوال المعصومين الذين كانوا يدفعون المسلمين إلى الخروج إلى الأسواق ويأمرونهم بالبكور إلى عزّهم كما في بعض الأخبار وكذلك تكون من الذين لا يستجيب الله دعاءهم على حد قول المعصوم في حديث آخر.. فهذا هو القسم الأول من الرزق، وهو الرزق الذي يتطلب منك أن تطلبه وتسعى في الحصول عليه. وأما القسم الثاني وهو الرزق الذي يطلبك فقد يتعجب بعض الناس من

هذا الكلام ولكن وشرف الحق وعزة الله لقد لمست هذا بيدي وعشته في أيام حياتي اكثر من مرة... لقد كنت أرصد أن يأتيني الرزق من جهة فإذا بها تقفل ويمتنع الرزق منها، ولكن ما ان تنغلق أبوابها حتى تفتح من أبواب أخرى لم تكن بالحسبان ممن لا أعرف وممن لا أحسب له حساباً في عالم الرزق. آمنت أن الله يحب الانقطاع اليه فحسب، والتوكل على قدسه دون سواه... إنه كان يعطيني دروساً فذة تقطع املي من أي جهة كنت آمل أن يكون عن طريقها رزقي ويفتح لي الأبواب عن طرق أخرى أوسع وأجل وأكرم مما كنت أتوقع.

- الثاني: قوله عليه السلام: (ما أقبح الخضوع عند الحاجة والجفاء عند الغنى). بعض النفوس تتغير بتغيرات الاحوال الاجتماعية والظروف المادية والمعنوية الأرضية، وهذه النفوس ليس لها أصالة النفوس المسلمة ولا واقعيتها ولا تتمتع برصيد إيماني قوي ولا بوعي إسلامي عميق... إنها نفوس تعيش الجاهلية في عمقها والإنحراف في طبيعتها والفساد من داخلها وتظهر كل هذه في صور وأشكال مختلفة ومتباينة ومن هذه الصور النابية المنحرفة المشوهة صورة الانسان الذليل المسكين الذي يركع أمامك ويخضع لكل ما تمليه عليه عندما يكون بحاجة اليك وله غرض عندك، وأما إذا استغنى عنك ولم يعد بحاجة إليك تنكر لك وابتعد عن ساحتك بل تنمّر في وجهك واستأسد عليك وكأن لم يكن بينك وبينه معرفة سابقة ولا صلة قديمة...

وإن كل واحد منا قد مر بتجربة من هذا النوع، وكل واحد منا رأى هذه الصورة التي يرسمها الامام في كلمته هذه، وكم وقفنا مع أنفسنا وقفات، وقفنا نتأمل في هذا الفرد من الناس الذي كان بالأمس يتردد عليك ويطرق بابك من أجل حاجة يريد أن تقضيها له، واليوم بعد أن قُضيتْ واستغنى عنك يمر وكأن لم يعرفك... كم وقفنا وتألمنا من دناءة هذا الانسان وتنكّره للجميل والإتيان على كل ذلك الماضي الذي كان فيه ذليلاً ودنيئاً ولم يعد يتذكر منه إلا الساعة التي هو فيها، فما أقبح الانسان صاحب هذه الخصلة وما

أقل وفاءه وإخلاصه. وهذا النوع من التصرف يتنزه عنه المؤمنون ولا يتعاملون مع بعضهم على هذا الأساس بل يبقى المسلم يتصرف مع أخيه المسلم وينظر اليه حال حاجته اليه نظرته اليه في حال غناه عنه، وبهذا يفترق المؤمن عن غيره ممن لم يعيشوا العمق الإيماني والأصالة الرسالية والتربية والآداب الإسلامية..

– الثالث: قوله عليه السلام: (إن لك من دنياك ما أصلحت به مثواك). باعتبار أن الدنيا دار ممر إلى أخرى دار مقر، والانسان العاقل هو الذي يأخذ من ممره إلى مقره، ويصلح مكان إقامته الدائم ويأخذ من طريقه ما يصلح ذلك المثوى الذي لا يتحول عنه وهو واحد من أمرين: إما إلى جنة عرضها السماوات والأرض وهي لا تحصَّل بالتمنّي ولا بالأحلام إنما تحصّل بالعلم والعمل به، إنما تحصل بالجهاد والكد والتعب، تحصل إذا استطاع هذا الانسان أن يقف مع نفسه ويفكر في خلواته منفرداً في الأسباب الموصلة إلى تلك السعادة الأخروية التي لا ينضب نعيمها ولا يجفّ سرورها، إنه ولا شك سيقوده عقله ويأخذ به تفكيره إلى الإيمان بالله ورسله ويتبنّى طريق الأنبياء والرسل والتقيد بتعاليمهم الموصلة إلى تلك الدار التي لا عناء فيها ولا شقاء لأن طريق الأنبياء هو الطريق الوحيد الذي يقودهم إلى ذلك المقام الأمين؛ ولا شك أن رسالة الاسلام التي نزلت على قلب النبي محمد ﷺ باعتبارها الناسخة لكل رسالات الله المتقدمة والواجب على كل إنسان أن يرجع إليها والتديّن بها، فإنها الرسالة التي يسعد بتطبيقها الناس في الدنيا والآخرة...

– الرابع: قوله عليه السلام: (وإن كنت جازعاً على ما تفلّت من يديك فاجزع على كل ما لم يصل إليك): لملمة وكفكفة لأحزان هذا الانسان الذي امتلكت عليه الحياة كل شؤونه وشجونه فيضحي يلطم وينوح إذا فقد أمراً كان بيده فلو كانت عنده ثروة وضاعت منه بكى عليها وابتلّت الأرض من دموعه وازعج الجيران بأنينه وعنينه؛ وإذا هُدم بيته لأمر تراه يضج وينشر الأحزان في نفسه وبين أسرته، بل قد يصل الحال في بعض الأشخاص أن يموت

غماً بمجرد أن يسمع بضياع ثروته أو هلاك متاعه وبذلك يخسر أمواله ويخسر نفسه.

والإمام هنا يريد أن يوقظ هذه النفوس وينبهها إلى أمر وهو في منتهى البداهة، ولكنها غافلة عنه وهو واضح للعيان ولكنها ساهية عن أبعاده، أنه يريد أن يصب في روُع هذا الإنسان أنك إذا كنتَ جازعاً من فوت أمر كان بيدك فيجب أن تجزع لأمر لم يصل إليك... إن هناك أموراً كثيرة تتمناها وتستشرف نفسك إليها، وتتمنى أن تصبح ملكاً أو أميراً وتتمنى أن تصبح صاحب أعظم ثروة في العالم وأغنى الناس وتتمنى أن تحصل على الأمر الفلاني والمنزلة الفلانية، فاذا كنت تجزع للأول فيجب أن تجزع لهذا أيضاً فكما أنك لا تجزع لهذا الأخير فيجب أن لا تجزع للأول، يجب عليك أن تفكر في الطريق إلى إعادة ما فقدته وإلى تكوين ما ضاع من يديك من جديد.. يجب أن لا تجزع وتحزن بل يجب أن تبتدىء وكأنك خُلقت من جديد تصارع الحياة وتخوض غمراتها من أجل البناء الجديد والحياة الجديدة...

- الخامس: قوله عليه السلام:)استدلّ على ما لم يكن بما قد كان فان الأمور أشباه): (يقال إنك بعدُ لم تمت ولكن ألم ترَ من مات). فيجب أن تأخذ العبرة من غيرك ويجب أن لا تكون أنت محطّ التجربة وقد مرت على غيرك؛ بل إحْمد الله الذي لم يُجرها عليك فربما لم تكن على استعداد لتحمّلها أو الصمود في وجهها... إنك نجوت من حوادث الدهر وآفاته. فصحتك عامرة وأموالك موفرة وتتمتع بمنزلة رفيعة وكلمة مسموعة ولكن اعتبر بمن كانت له تلك الصحة فأضحى عليلاً وبمن كانت له تلك الثروة وقد أتت عليها الأحداث؛ وبمن كانت له تلك الوجاهة حيث أضحت نكالاً له وعبرةً لمن بعده. يجب عليك أن ترى الحياة وتأخذ لها الاستعداد، أن تأخذ العبرة ممن مرض أو افتقر أو انحطّ بعد صحة وغنى وجاه فتستعمل كل هذا في وقته وفي محله دون أن تشدّك هذه الأمور إلى الطغيان أو الانحلال... أو الإستعلاء على الناس... ولكن وبكل أسف أنّى لهذا الانسان أن يعتبر وكل الحياة تحمل العِبَر؛ إنه

يمشي في موكب الموتى ويحمل على اكتافه نعش أحبّ الناس إليه ولكنه غافل عمّا يحمله الغد إليه إذ ربما كان هو المحمول فليحتبر بحال هذا الإنسان وينظر اليه بعين مجرّدة لا تحمل حباً ولا بغضاً بل تحمل عدلاً وإنصافاً ويوازي بين أعماله الصالحة فيقتدي بها وبين أعماله الطالحة فيتجنبها وبهذا يستفيد من تجربة غيره وينجح في مستقبل أيامه...

« ولا تكونَنَّ مِّن لا تنفعُه العِظَةُ إلاّ إذا بالغْتَ في إيلامه. فإن العاقلَ، يَتّعظُ بالآدابِ والبهائمَ لا تتعظ إلاَّ بالضرب. إطْرح عنك واردات الهموم بعزائم الصبر وحُسنِ اليقين. من ترك القصْدَ جارَ. والصاحبُ مُناسَبٌ. والصديقُ من صَدَقَ غيبُه. والهوى شريك العَناء. ربَّ قريب أبعدُ من بعيدٍ وربُّ بعيدٍ أقربُ من قريب. والغريبُ مَنْ لم يكن له حبيب، مَنْ تعدّى الحق ضاق مذهبُه ومن اقتصر على قدْره كان أبقى له ».

اللغة:

القصد: الاعتدال.

جار: مال عن الصواب.

الصاحب مناسب: يصبح كالقرابة من النسب.

في هذا الفصل الشريف أمور:

– الأول: قوله عليه السلام: (ولا تكونن من لا تنفعه العظة إلا إذا بالغت في إيلامه فإن العاقل يتعظ بالآداب والبهائم لا تتعظ إلا بالضرب). قد تأتمن إنساناً بدينار فيجحده وينكره ولا يؤديه إليك فإذا لم تتعظ بهذا القليل وعدت لتأتمنه على ألف دينار وينكرها عليك فلا تلومّن إلا نفسك. إن العظة بالدينار يجب أن تكون محفزاً قوياً لك لأخذ العبرة والانتفاع من التجربة فإن الانسان العاقل هو الذي يتعظ بأبسط الأمور وأيسرها ولا يحتاج إلى أن يمر بامتحان شديد ودرس قاس اليم...

إن الأحرار من الناس والشرفاء من البشر تجرح مشاعرهم أدنى كلمة من إنسان تخرج في حقهم فيحفظونها درساً عملياً طيلة حياتهم ومدى عمرهم...

وأما العبيد الذين تربوا على الصغار والضعة هؤلاء لا تنفعهم ألف كلمة

ولا تحركهم ألف موعظة ولا تستثير مشاعرهم مدافع المواعظ وصواريخها لأن حسهم الداخلي قد مات وشعورهم قد تبلّد بحيث فقدت الكلمات مدلولها والمواعظ وقعها ولم يبقَ أمامهم إلا أن تُهزَّ العصيُّ ويرتفع السوطُ تأديباً. قديما قال الشاعر:

العبـــــد يُقرع بالعصـــــا والحر تكفيـــــه الملامَـــة

وقال المتنبي مبيناً صفة العبيد:

لا تشترِ العبدَ إلا والعصا معه إن العبيد لأنجاس مناكيد

- الثاني: قوله عليه السلام: (اطرح عنك واردات الهموم بعزائم الصبر وحسن اليقين). إنها دعوة للتحلي بالصبر وحسن اليقين بالله كي يقضي على كل هم يشغل فكر هذا العبد الضعيف ويربكه عن المسير، فإن الدنيا لم تكن تصفو لأحد فما من همٍّ يزول حتى تحل محله هموم ولا يستطيع الفرد أن يتغلب عليها إلا بالصبر الذي يتمتع به الإنسان ويقوده الى النصر والفتح...

- الثالث: قوله عليه السلام: (من ترك القصد جار، والصاحب مناسب، والصديق من صدق غيبه). الطريق الوسط هو خير الطرق وأسلمها، والاعتدال في كل الأمور محبوب ومرغوب وهو الصواب والموافق للحكمة والعدل، فإن الشجاعة هي الحد الوسط بين طرفي الافراط أو التفريط وهما الجبن والتهور، والكرم هو الحد الوسط بين الأسراف والتقتير، والاسلام هو الوسط والعدل، وأما اليمين والشمال فهما المضلة وهكذا دواليك، ومن ترك طريق العدل والانصاف فلا إشكال أنه سيجور لأن الجبن جور كما أن التهوّر جور وقديماً قيل:

حـــــب التناهي شطـــــطٌ خـــــــير الأمور الوسطُ

وأما الصاحب فهو الذي يتحول من إنسان بعيد عنك وغريب عنك الى إنسان يرتبط بك بعلاقة تكاد تصبح نسبيّة، بل إن النسيب قد لا يصل الأمر بينك وبينه أن تفتح صفحاتك أمامه إما حياءً وخجلاً أو خوفاً وفزعاً أو لأمر

آخر، بينما كل ذلك ينكشف أمام الصديق، فالأسرار تستباح والخفايا تظهر، ولم يعد أمام الصديق أيّ ستر أو غطاء، واذا أضحى الصديق بهذا المستوى من العلاقة وتحوّل إلى قريب روحياً وفكرياً وإنسجاماً، فيجب أن تحفظه كما تحفظ الأنسباء وترعاه كما ترعاهم وتدفع عنه كما تدفع عنهم، وقد بيّنا في فصل سابق حق الصديق ولزوم مراعاة الصداقة والحفاظ عليها...

- الرابع: قوله عليه السلام: (والهوى شريك العمى وربّ بعيد أقرب من قريب وقريب أبعد من بعيد والغريب من لم يكن له حبيب). من غلبه هواه لم يعد يبصر طريق الحق والرشاد فاذا طغى هوى القرابة والنسب لم يعد للعدل مجال ولا للانصاف دور، فإذا اعتدى قريبك بررت اعتداءه واذا ظلم بررت ظلمه، وإذا ضرب بررت ضربه، وهكذا تخلق المبررات والتأويلات من أجل أن توافق هواك في قرابتك. وإذا غلب هوى العشيرة ضربت صفحاً عن كل المعاني السامية الرفيعة التي كنت تحلم بها في أيام الودّ والصفاء..

وقد عبّر الله في كتابه عمّن يتخذ الهوى ديناً له وسيرة عبّر عنه بالآله لهذا الشخص وقال تعالى: ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه...﴾ فإن هذا الهوى يتحول إلى آلة يأمر وينهي ويحرك ويجمد المرء عن الحركة...

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام: (إنما أخاف عليكم اثنين إتباع الهوى وطول الامل، أما إتباع الهوى فإنه يصدّ عن الحق وأما طول الأمل فينسي الآخرة. وقال أعرابي: (الهوى هوان ولكن غُلِط باسمه.

وقال الهزلي:

أبن لي مـــــا ترى والمرء تأبـى: عزيمتـه ويغلبـه هواهُ
فيعمـى ما يرى فيـه عليـه ويحسب مــــا يراه لا يراه

وأما قوله ربّ بعيد أقرب من قريب وقريب أبعد من بعيد فهذا شيء خاضع لموازين الإسلام ومدى إرتباط الفرد بها.. فربّ إنسانٍ بعيد لا تعرفه ولا تعرف بلاده ترتبط معه في أجواء العقيدة وتأنس به وترتاح للقياه، ورب

قريب تعيش معه تحت سقف بيت واحد لا تحب رؤياه ولا تتمنى لقياه فالمسلم الذي يعيش مع أخيه القريب النَّسبي وهو يعانده في عقيدته ولا يلتقي معه في فكره وسلوكه بل يتخذ اليمين أو اليسار أو الضلال والانحرام مثل هذا الأخ القريب كمثل أبعد الناس ممن لم تجتمع معهم ولم تلتقِ بهم، بل هم أخف شراً وأقل ضرراً لأنك لم تنكشف اليهم بينما أنت مكشوف له، وقال الحكيم مصوراً حال بُعد القريب وقرب البعيد:

كانـــت مودة سلمان لهم رَحِماً ولم يكن بين نوحٍ وابْنِهِ رَحِمُ

فإن الغريب يلتفت يمنةً ويسرةً فلا يجد من يحدب عليه ولا من يعينه على مشاكله ومصاعبه، لا يجد أماً تحن عليه ولا أباً يهتم بشؤونه ولا أقارب يدفعون عنه ولا إخوة يحفظونه... إنه يعيش منفرداً إن مات لم يشعر بموته أحد وان عاش لم يحس بحياته أحد... إنه عضو غريب ليس من أهل هذه البلدة ولا من سكانها وهكذا هي حال من لم يكن محبوباً من أقربائه وجيرانه وخلانه، فإنه لسوء فعله وشؤم تصرّفه يكون منبوذاً، وإن كان مع أهله ويكون مبعداً عنهم وإن كان يعيش في وسطهم.. إنه غريب حيث لا محب له ولا شفيق عليه.

- الخامس: قوله عليه السلام: (من تعدّى الحق ضاق مذهبه ومن اقتصر على قدره كان أبقى له). من تجاوز الحق وتخطّاه لا شك أنه يتيه ويضل. وهذا التيه والضلال مهما جُعلت له المبررات فإنها ضيقة ولا تقوم حجة على دعم الباطل وتصيّره حقاً... فمن تجاوز الصدق إلى الكذب مهما برر كذبه فانه لن يفلح ولن يجد الأذن الصاغية لأعذاره بل سيجد الضيق والضعف في ما يقدمه من مبررات ويجد بينه وبين نفسه عجزاً عن إيجاد وسيلة تقنع الغير وتقنع نفسه.

وأما قوله: من اقتصر على قدره كان أبقى له، فإن من عرف قدره ومنزلته ووضع نفسه في موضعها يبقى مُصان الجانب محترم المقام؛ فمن عرف أنه عامي غير مجتهد ثم تنطّح وتطاول على المجتهدين، ووضع نفسه في غير موضعها، فلا بد وبدون شك أنه سيصغر في أعين الرجال ولا يبقى له هيبته ومقامه، ومن كان

وضيعاً سافلاً عاصياً لله ثم وضع نفسه في صف الاتقياء فلا بد وأن الأيدي ستشير اليه والعيون ستتغامز عليه، ومن كان جاهلاً وادعى الفهم والعلم سيسقط من أعين الناس ويُحتقر... بينا الانسان إذا عرف قيمته ومكانته والتزمها فانه يبقى عزيز الجانب محترم المقام لا يُذم ولا يُلام... والعجب العُجاب أن نرى الناس في هذا الزمن جلسوا في غير أماكنهم وتكلموا بما هو أرفع من مستواهم فصار الجاهل يُفتي والأمي يناقش والفلاح يجادل وعامل التنظيفات يحاور، إنهم ارتفعوا عن أماكنهم ليحتلوا غيرها دون حق أو جدارة...

« وَأَوْثَقُ سَبَب أخذتَ به سببٌ بينك وبين الله، ومَنْ لَمْ يُبالِكَ فهو عُدوك. قد يكون اليأسُ إدراكاً إذا كان الطمع هَلاكاً، ليس كلُ عورةٍ تظهر ولا كل فرصة تُصاب. وربما أخطأ البصير قَصْدَه وأصاب الأعمى رُشده. أَخّر الشرُّ فإنك إذا شئت تعجّلْتَه. وقطيعةُ الجاهل تعدِلُ صِلةَ العاقلِ ».

اللغة:

لم يبالُك: لم يهتم بأمرك ولم يكترث لك.

تعجّلته: استبقت حدوثه.

في هذا الفصل الشريف أمور:

– الأول: قوله عليه السلام: (وأوثق سبب أخذت به سبب بينك وبين الله). الأسباب التي بين أيدينا أسباب واهية لا يكاد يعتمد الانسان على أحدها حتى ينقطع فأنت تعتمد على وظيفتك وتظن أنها السبب الذي يؤمّن لك الحياة الرغيدة والعيش السعيد وتظن أنها الفرصة الوحيدة التي تستطيع أن توفر من خلالها الغنى والثروة. ولكن ما يكاد ظنك يذهب إلى ذلك حتى تفاجئك الأحداث بتنحيتك عنها بتهمة زائفة أو خطأ متوقع أو أمر لم يخطر بالبال. وأنت في متجرك تظن أنه المكان الوحيد الذي يمحو عنك الفقر والسبب الفريد الذي يوفر لك رغيد العيش وبحبوحته وتحلم في مستقبل عزيز وتأخذك الأماني إلى فردوس النعيم والسعة والغنى والثراء ولكن ما هي إلا أوقات يرصدها الزمن لك حتى تأتيك الأخبار بخراب محلك أو حريقه أو كساد بضاعتك وتعطيل الأسواق. وهكذا كل منا لا بد وأن يتخذ سبباً لحياته وديمومتها بعز وكرامة، ولكن يجب أن يكون سببنا الأوثق والانجع هو السبب الذي يكون موصولاً بالله ومن الله؛ فإن هذا السبب هو الذي لا ينقطع

والسبب الذي لا يطرأ عليه الفساد أو الضياع ولا يعتريه شيء من عوامل الفناء والاضمحلال وهذا السبب هو مسبب الأسباب وخالقها وهو أن تكون في كل عمل تقوم به تتحول فيه إلى عبدالله، تطلب القرب منه والزلفى لديه ويكون أكبر همك القربة إليه والتقريب من ساحات قدسه ورضاه، وهذا أوثق الأسباب وأضمنها لك في الحياة الدنيا وفي الآخرة. لئن تقطعت الأسباب كلها وتعطلت العلل بأجمعها يبقى السبب الذي تلتقي فيه مع الله قائماً لا ينقطع ولا ينفصم..

- الثاني: قوله عليه السلام: (ومن لم يبالك فهو عدوك): اللامبالاة تتخذ أوجهاً وأشكالاً مختلفة باختلاف الأشخاص الذين تصدر منهم واتجاه من تكون نحوهم... فإذا كانت اللامبالاة صادرة من الرعية نحو الوالي فهذا معناه عداؤها له ولسلطانه لأنها صفة الاستهانة به وبعدده وعدته ولا يتخذ هذا التوجه إلا عدوّ، فإذا رأيت فرداً لا يبالي بحكم قائم فاعلم أنه ضده وعدوّه...

وإذا صدرت اللامبالاة من الصديق فاعلم أيضاً أنها وليدة الإستهانة والازدراء أو الطيش والخفة أو بداية العداوة والبغضاء، وأما إذا صدرت ممن لا تعرفه فاحملها على أنها طبيعة فيه أو عادة أو سوء أدب. وعلى كل حال ليس لك حق واجب يفرض عليه الاهتمام بشأنك، نعم هناك أدب شرعي يحبّب إليه وإلى كل الناس أن يشعر بعضهم نحو بعض بالاهتمام والاعتناء...

- الثالث: قوله عليه السلام: (قد يكون اليأس إدراكاً إذا كان الطمع هلاكاً).قد تطلب أمراً تتصور فيه الفوز والفلاح وتسعى في سبيل تحقيقه حتى تصل إليه ويكون فيه هلاكك، فالنملة طلبت جناحين وعندما تحققا لها طارت فوقعت على وجه الانسان فقتلها... ولو بقيت بدونهما لسلمت وقد تسعى في الوصول إلى مطلب أو أمر وتيأس منه، ويكون يأسك سبباً لحياتك وديمومة بقائك. فيجب أن لا يكون عدم إدراكك لأمرٍ مجلبةً للهم والحزن، ولا تجعله عقبةً يصعب عليك اجتيازها بل إذا سدّت الأبواب أمامك فافتحها بالتوجه إلى الله ولا تذهب نفسك حسراتٍ على ما فات بل كن أكبر وأعظم مما فاتك

وتغلّب على جراحك وأحزانك فإنها أيسر وأسهل من القضاء على حياتك...

- الرابع: قوله عليه السلام: (ليس كل عورة تظهر ولا كل فرصة تصاب وربما أخطأ البصير قصده وأصاب الأعمى رشده). ليس كل عورة تظهر وإلاّ لأضحت مستمسكاً سهلاً بأيدي الأعداء والاخصام فإن الحسد عورة والجبن عورة والبخل عورة. وهذه قد تبقى ضمن القلوب لا تظهر وقد يظهر بعضها ويختفي بعضها الآخر...

وليس كل فرصة تصاب إذ ربما فتحت الأبواب وارتفعت الحجب وتراءت لك الأعلام ولكن دون الوصول إليها عقبات وعقبات؛ فأنت تستطيع أن تنتقم من عدوك ولكن العفو عنه يقف حاجزاً، وكما يقول الإمام صلوات الله عليه: (قد يرى القلب الحول وجه الحيلة ولكن دونها حاجز من تقوى الله...) فأنت تستطيع أن تكوّن ثروةً ضخمة من خلال الغش والسرقة كما يفعل أكثر الناس اليوم ولكن يحجزك عن ذلك الخوف من الله وعذاب الملك الجبار...

- الخامس: قوله عليه السلام: (أخّر الشر فإنك إذا شئت تعجلته وقطيعة الجاهل تعدل صلة العاقل). لا تفعل الشر فإنه تحت يدك إذ تستطيع أن تفتح ألف مشكلة في ساعة واحدة ولا تستطيع أن تغلق مشكلة واحدة انفتحت فأنت قادر على أن تجتنب الشر بما أعطاك الله من حرية الحركة والاختيار... وأما قطيعة الجاهل فإنها تعادل صلة العاقل لأن الجاهل إذ قطعته أمنت شره ودفعت ضرره وهو يعادل صلة العاقل الذي يوفّر لك سبل الخير وطرقه...

« مَنْ أَمِنَ الزمانَ خانَه. ومن أعظمه أهَانَه. ليس كل من رمى أصاب. إذا تغيّر السلطانَ تغيّر الزمان. سَلْ عن الرفيق قبل الطريق. وعن الجار قبل الدار. إياك أن تذكُرَ من الكلامِ ما يكونُ مضحكاً وإنْ حكيت ذلك عن غيرِك ».

في هذا الفصل الشريف أمور:

- الأول: (من أمن الزمان خانه ومن أعظمه أهانه، ليس كل من رمى أصاب...). فربما قلت وأنت في بحبوحة من العيش ورغد من الحياة ما أجمل الدنيا وأطيب الأيام، ولكنك وأنت تتكلم بذلك يرصد الزمن أنفاسك ويعدّ لك العدّة ليقلب لك ظهر المجن... فكم من ملوك استرخوا على عروشهم وأمنوا وثبات الزمن وإذا بهم يمسون ملوكاً ويصبحون سوقة إن لم يكونوا مشردين أو مسجونين أو مقتولين.

وأما من أعظم الزمان ورفعه واهتم بما فيه من ثروة ومال ومن جاه وسلطان. فإن هذا الزمن سيأتي ليفرّق بينه وبين ما يشتهي، سيأتي هذا الزمن ليضع حاجزاً بين ما أعظمتَ ورفعت وبينك وبهذا يكون قد أهانك ولم يترك لك المجال كي تسترسل في ملذاتك. وأما قوله ليس كل من رمى أصاب، فإن الإصابة تحتاج إلى توفيق بعد التمرين والاستعداد وأخذ الحيطة والمقدمات فكثيرون الذين يطلبون الجاه فيفشلون أو يطلبون الغنى فلا يدركون أو يريدون التقدم فيتأخرون...

وأما قوله: (إذا تغيّر السلطان تغيّر الزمان). الحديث عن السلطان حديث ذو شجون وأول شيء يطرح علينا هو سؤال لمن الحكم؟ هل الحكم لله أم للناس وما هي مواصفات الحاكم في الاسلام وشروطه. أما الحق فالحكم لله وليس لأحد من الخلق، والحاكم يحكم وينفذ ارادة الله دون ارادته ويقوم بإصلاح البلاد،

وتقريب العباد نحو الله بحسب الموازين التي وضعها الله. ولا يجوز له أن يستبد أو يظلم كما لا يجوز له أن يهمل الناس ليفسدوا في الأرض ويزرعوا الرعب والاضطراب. وإن الأمة الانسانية كلها متفقة على أنه لا بد للناس من إمام برّ أو فاجر، وإلاّ لاضطرب حبل الأمن وأكل القوي في هذه الحياة الضعيف وتسلّط الجبابرة على الأقزام وهكذا دواليك...

والسلطان بمقدار التزامه بالحق ونزاهته في الحكم وعدالته في توزيع الأموال والوظائف والرتب ينعكس ذلك على الرعية، فإذا كان السلطان صالحاً انعكس صلاحه على مجتمعه وأثر أثره فيهم فصلحت الرعية، وإذا كان ظالماً جائراً اضطرب حبل المجتمع وساد الفساد والظلم بين أفراد المجتمع...

إن السلطان بيده الأمر والنهي وهو القائم على تنفيذ القانون وصيانته فاذا كان مؤمناً عادلاً كان الزمن زمان إيمان وعدل؛ فالمجتمع كله يتغير وإذا كان الحاكم لا يهمه إلاّ شهوته ولذته وجمع المال والجواهر، فلا بد وأن تسير الناس في ركابه وتقتدي به وقد قيل (الناس على دين ملوكهم).

وقوله: (سل عن الرفيق قبل الطريق وعن الجار قبل الدار). للسفر آداب ومستحبات ذكرها المعصومون في أحاديثهم وبيّنوا كل جوانب هذا الأمر فأمروا بالسفر من أجل بلوغ الطاعات وأداء الحقوق وإقامة الجماعات أو من أجل اكتساب الرزق والجهاد وأباحوا السفر في كل أيام الأسبوع وفضلوا السبت والخميس ورفضوا التشاؤم من الأيام وحلوا عقدة بعض الناس بقولهم (تصدقّ واخرج أيّ يوم شئت)...

وقد حببوا للمسافر أن يرافق من يتزين به ويعرف حقه، كما أنهم حكموا باستحباب أن يكون الرفيق من صنف المسافر فإن كانت حالته متوسطة فليرتقب أمثاله فإن ذلك يحفظ عليه كرامته ويديم له مودته، فعن أبي جعفر (ع) قال: إذا صحبت فاصحب نحوك ولا تصحب من يكفيك فإن ذلك مذلة للمؤمنين...

كما أنه يُكره السفر منفرداً فعن أبي عبدالله (ع) قال: قال رسول الله ﷺ: ألا أنبئكم بشر الناس قالوا: بلى يا رسول الله.

قال: من سافر وحده ومنع رفده وضرب عبده.

وعن موسى بن جعفر (ع) قال: لعن رسول الله ثلاثة: الآكل زاده وحده، والنائم في بيت وحده، والراكب في الفلاة وحده.

فالرفيق في السفر يشترط أن تتوفر فيه الأخلاق الحسنة والتمسك بالدين والمحافظة على الحقوق ورعاية الأخ والحفاظ على مودته فلا يشتم ولا يقذف ولا يغتاب ولا يغضب ولا يحسد ولا يخيف. يشترط أن يكون السفر معه مُقَرّباً من الله ومُبعِداً عن الشيطان. أما إذا كان الرفيق سيء العشرة، سيء الأخلاق، غضوباً، شرساً فإنه يحول السفر إلى جحيم ويحتم الافتراق في منتصف الطريق...

وفي السفر يُخْبَرُ الانسان على وجه الحقيقة وتظهر معادن الأخلاق التي تكون طبيعة فيه عن المصطنعة التي تكلفها في بعض الأحيان. وفي السفر تظهر عدالة الانسان من فسقه وأمانته من خيانته وجميل أخلاقه من قبيحها.

أما قوله: (وعن الجار قبل الدار): فإن الحفاظ على الجار من وصايا الله في كتابه ووصايا النبي والأئمة في سنتهم.

فأول مراتب الأمر من المعصوم أن يحسن الانسان مجاورة من جاوره، فعن أبي عبدالله عليه السلام قال والبيت غاص بأهله: اعلموا انه ليس منا من لم يحسن مجاورة من جاوره.

قال رسول الله ﷺ: حسن الجوار يعمر الديار ويُنْسيءُ في الاعمار.

وإذا عجز عن الإحسان فليكفّ عن أذى الجار.

فعن أبي عبدالله (ع) قال: جاءت فاطمة عليها السلام تشكو إلى رسول الله بعض أمرها فأعطاها كربة[1] وقال: تعلّمي ما فيها، فإذا فيها: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم

ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو يسكت. وعن رسول الله (في حديث المناهي) من أذى جاره حرّم الله عليه ريح الجنة ومأواه جهنم وبئس المصير..

كما أنه يكره مجاورة جار السوء لما فيه من الأضرار والتسبب في الحرام، إذا كان الجار ضعيف الايمان. ففي الحديث عن أبي جعفر عليه السلام قال: من القواصم التي تقصم الظهر جار السوء إن رأى حسنةً أخفاها وان رأى سيئةً أفشاها... وفي الدعاء (وأعوذ بك من جار سوء...) وإذا ابتلى الانسان بجار سوء فما عليه إلا أن يصبر ولا يبادله الأذى بل يحسن عشرته لعله يتوب أو يرعوي...

وأما قوله: إياك أن تذكر في الكلام ما يكون مضحكاً وان حكيت ذلك عن غيرك.

الكلام الظريف الذي يدخل السرور على قلب المؤمن من الأمور المحبوبة لدى الشارع شريطة أن لا يطال أحداً بالإيذاء والازدراء والاستهانة والغيبة، والمزاح الذي يتضمن الكذب مَنهيٌ عنه لا يجوز، وإن استعمله البطالون واستساغة بعض المتفكهين فقد شاع رمي النكتة التي تتضمن الإيذاء والإهانة دون أن يبصر ما تؤدي اليه من معصية وإنما ينظر إلى مقدار ما تثيره من الضحك ومدى ما تترك من الترفيه وراحة النفس وغالباً ما تتضمن أذية أو كذبة أو غيبة أو بهتاناً، وحكاية فعل أو قول لشخص لا يرضى بحكايته...

«وإيّاك مشاورةَ النساء فإنَّ رأيَهُنَّ إلى أفْنٍ وعزمَهنَّ إلى وهْنٍ. واكْفُفْ عليهِنَّ من أبصارِهنَّ بحجابك إيَّاهُنَّ فإن شدة الحجاب أبقى عليهن. وليسَ خروجُهن بأشدَّ من إدخالِك مَنْ لا يُوثَقُ به عليهن. وإن استطعتَ الاَّ يَعرفْنَ غيرك فافعل.

ولا تُمَلِّكِ المرأةَ من أمرها ما جاوزَ نَفْسَها فإنَّ المرأة ريحانةٌ وليسَتْ بقهرمَانة. ولا تعْدُ بكرامتِها نَفْسها ولا تُطْمِعها في أن تشفَعَ لغيرها. وإياك والتّغايُرَ في غير موضع غَيْرةٍ فإنَّ ذلك يدعو الصحيحة إلى السَقَمِ والبريئةَ الرِيَبِ».

اللغة:

الأفن: النقص.

الوهن: الضعف.

القهرمان: الذي يحكم في الأمور ويتصرف فيها بأمره.

التغاير: إظهار الغيرة عليها بغير محلها.

في هذا الفصل الشريف يتعرض الامام إلى المرأة وكيف يجب أن يعاملها الرجل. ونحن يستحسن بنا أن نلّم بهذا الأمر من بعض جوانبه بشكل موجز فنقول: المرأة في ظل الاسلام لعبت دوراً مهماً ورائعاً وقد اعتنى بها الاسلام عناية فائقة النظير وأعطاها من الحقوق ما يتلاءم وطبيعة تركيبها البدني والنفسي.

وقد أكد الإسلام على حب البنات وهن صغار وأوصى بهن خيراً. فعن الصادق عليه السلام قال: البنات حسنات والبنون نعمة والحسنات يُثاب عليها والنعمة يُسأل عنها.

وعن أبي عبدالله (ع) قال لبعض أصحابه: بلغني أنه وُلد لك ابْنة فتسخّطّها. وما عليك منها. ريحانة تشمها وقد كفيت رزقها وكان رسول الله ﷺ أبا بنات، ثم عندما تكبر جعل الشارع أمر زواجها بيدها.

فعن أبي جعفر قال: المرأة التي قد ملكت نفسها غير السفهية ولا المولّى عليها، تزويجها بغير ولي جائز.

ثم بعد أن تصبح زوجة فإنها غير مسؤولة عن شيء حتى نفقتها واجبة على زوجها وكذلك أطفالها تجب نفقتهم على أبيهم. كما أن الإسلام أعطاها من الحقوق ما نكاد أن نقول إن أعظم التشريعات على امتداد عمر الحياة لم تعطها إياها؛ أنها وهي في بيت زوجها غير مسؤولة عن تهيئة الطعام ولا فرش الفراش ولا غسل الثياب ولا كنس البيت ولا يجب عليها تربية الأطفال ولا حضانتهم ولا شيء من أمورهم، بل كل ذلك يجب على الأب. وعندما نذكر هذه الأمور لا نطرحها كشعار من أجل المزايدات بل إن التشريع أمامنا ورسائل فقهائنا في متناول أيدينا؛ فهيّا إسألوا عن ذلك فهل أعطاها الغرب والشرق حقوقاً كهذه الحقوق... نعم أعطاها التعب والمشاكل فأوجب عليها العمل خارج البيت في المصانع والمعامل وفي المكاتب والشركات واستخدمها في البيت فجمع عليها همّ الداخل وهمّ الخارج واستذلّها باسم الحرية وهي عين العبودية، طرح أمامها لفظة الحرية وأغراها بالاسم ناسيةً أن خلف الأكمة ما خلفها فأخذت تشاطر الرجل بل تزيد عليه في الأتعاب، لقد حوّلها الى دمية يحركها ويستغلها متى أراد...

نعم إن الاسلام نظر الى التركيب الجسدي والنفسي للمرأة فأوجب عليها الحجاب الشرعي الذي يستر العورة وهذا الحجاب لا يقف حاجباً دون العلم والثقافة ودون الإدراك والوعي ولا يقف دون التحرر والثورة، إن هذا الحجاب هو عنوان التمرد على الانحلال والميوعة وإثبات شخصيتها المستقلة وهويتها الاسلامية الرفيعة... إن هذا الحجاب لا يقف دون أن تبيع المرأة أو تشترى أو تتملك أو تهب أو تتعامل مع الناس ومع المجتمع... بل إن هذا

الحجاب يمنع الفتنة والاغراء الذي تحدثه طبيعة الجسد الأنثوي. فأراد الاسلام أن يحد من هذه الثورة ويمنع كل ما يؤدي إلى الفساد والانحلال.

ونحن نرى المشاكل التي تحدث والقضايا التي تظهر في المجتمع من جراء هذا الفلتان الغريزي والحيواني لدى المرأة والرجل. والاسلام عندما منع ان تجتمع امرأة برجل منفردين إنما أراد أن يمنع دخول الشيطان بينهما فيسول لهما الرذيلة ويفتنها على دينها ويضلها الطريق، وهذا ينسجم مع الخط العام الذي يحسم مادة الفساد وما يوصل إليه...

وإن المرأة لا يجوز أن تضع نفسها في صف الرجل من الجهة البدنية، فإن لها خصائص تميزها عنه منها الجاذبية فيها وكونها مطلوبة، ومنها أنها تحمل وتلد ومنها أنها صاحبة عادة شهرية، وهذه فوارق مهمة يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار: فالاسلام حينما فرض عليها بعض القيود فإنما لاحظ المصلحة العامة للمجتمع وأخذ في البين طبيعتها وما يتحمله بدنها وتقدر على القيام به... وهذا كله في الحياة الدنيا...

أما في ميزان الله، في الآخرة فلا ميزة للرجل على الأنثى إنهما معاً أمام الله على حد سواء من يعمل خيراً يره ومن يعمل سوءاً يجزى به (فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض..) فمن يعمل الصالحات يُجزَ بها ومن يعمل المعاصي يُجزَ بها...

فربَّ امرأة فاقت ملايين الرجال والله تعالى يقص علينا قصة المرأة المؤمنة التي رفضت فرعون وسلطانه وكفرت به وبكل قصوره، وتوجهت نحو الله طالبةً رضاه وطاعته، قال تعالى: ﴿وضَرَبَ الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت ربي ابنِ لي عندك بيتاً في الجنة ونجّني من فرعون وعمله...﴾ إنها صورة فذة لإمرأة مثلت دور البطولة والعظمة في وجه الطاغية فرعون وزمرته. وفي الإسلام برزت المرأة المسلمة في معارك الجهاد والقتال ووقفت أمام الطواغيت والمنحرفين فكانت سميةُ أول شهيدة في الإسلام، وكانت

الحوراء زينب بوقفتها البطولية العظيمة أمام يزيد الفاجر تعطي الصورة المشرقة للمرأة التي تمتلك العقيدة والإيمان وتدافع من أجلها وتبذل في سبيلها كل ما تملك من غالٍ ونفيس...

إن في تاريخنا أروع الأمثال والنماذج لتضحيات قامت بها المرأة بدافع من إيمانها وعقيدتها...

نعم إن الممارسات الخارجية التي يقفها الرجل في بعض الأحيان والتي تشكل الانحراف والشواذ فإنه لا يمثل رأي الاسلام ولا تطلعاته وآماله. فإن النفوس مجبولة على الظلم إذا لم يكن عندها دين يردعها أو قوة اكبر منها تمنعها. إن هذه الممارسات اللاشرعية التي يمارسها الرجل أو يفرضها على المرأة لا يعترف بها الإسلام وليس مسؤولاً عنها وإنما المسؤول أولاً وبالذات هو الرجل صاحب الإرادة الحرّة والاختيار والمسؤول عنها ثانياً المجتمع الظالم المنحرف.

ولنعد إلى كلام الإمام لنقف عند كل فقرة فقرة..

إن الإمام يوصي ولده ويحذّره من مشاورة النساء بقوله: (وإياك ومشاورة النساء فإن رأيهنّ إلى أفن وعزمهن إلى وهن).

أما المشورة فإنها مستحبة بأصل الشرع، والإمام في احدى كلماته يقول: (ومن شاور الرجال فقد شاركهم في عقولهم) ولكنْ للمشورة أصول أهمها أن يكون المستشار أهلاً للمشورة ومن أهل الخبرة فيها ومشاورة النساء ليس في الأكل والشرب وبعض الأمور العائلية حتى تقول كيف ينهى الشارع عنها ويحبب عدمها، فإن هذه الأمور التي لا يمتد خطرها بل ليس فيها خطر، قضيتها سهلة ميسورة. وإنما الإشكال هو عدم مشاورة النساء في الأمور المهمة ذات الخطر الواسع، فإن المرأة في مثل هذه الأمور ينبغي أن لا تستشار لأنها ليست على إطلاع في الأمور السياسية ولا خبرة عندها في القضايا العسكرية ولا علم لها بالأمور الاقتصادية، فإذا استُشيرتْ والحالُ هذه، فلا بد وأن رأيها لا يكون صائباً. وبتعبير الامام رأيها إلى أفن أي نقصان وخسران؛ واذا عزمن

على رأي فان عزمهن لا يبقي على ابرامه بل يُنقض بسرعة وكم من رأي لهن يظن الانسان أنه عقدة لا تحل واذا بلحظات قليلة تأتي عليه فتتراخى المرأة وتتراجع عن رأيها... مهما كانت المرأة صلبة وقوية في أمر فانها تتراجع عنه بل قد تنتقل إلى نقيضة...

وأما قول الإمام: (واكفف عليهن من أبصارهن بحجابك إياهن فان شدة الحجاب أبقى عليهن وليس خروجهن بأشد من إدخالك من لا يوثق به عليهنّ وان استطعت ألاّ يعرفن غيرك فافعل). واكفف عليهن من أبصارهن بحجابك إياهن فان هذا الحجاب يقف حاجزاً بينهن وبين الابتذال والميوعة، فان المرأة إذا سفرت أفسدت وإذا خرجت من بيتها أضرت خصوصاً في هذه الأجواء الموبوءة التي شمّر اليهود فيها لإفساد المجتمعات والانحراف بها عن جادة الصواب، وقد استعملوا كل وسائلهم الخبيثة والشيطانية وسخروا المرأة وزينوا لها التبرج والسفور والخروج إلى الأسواق العامة والاختلاط بالرجال في المدارس والمستشفيات وفي كل المؤسسات والدوائر، وتبرعوا بالدعايات لذلك تارةً باسم التقدم وأخرى باسم التحرر حتى انهار صرح العفة والكرامة وتداعى كل ما يسمى شرفاً وغيرة فأضحت أسواق الدعارة تفتح بشكل رسمي وبإجازة مصدقة من الحكومة، وأخذ الرجل ينظر إلى زوجته أو ابنته أو أخته في أحضان الغريب تراقصه فيبادر ليهنئها على نجاحها في هذا الدور الذي قامت به. واسترسلت المرأة تبرز محاسنها من قميص قصير إلى ما فوق نصف الركبة إلى بنطلون ضيق يشخّص المفاتن ويفسد الشباب ويغريهم.. إن هذه المصاعب التي تطالعنا في كل يوم هي نتيجة هذا التبذل والاستهتار بالقيم والأخلاق والمثل...

إن الإسلام يريد أن يحصن المرأة من الانحراف ويريد أن يقوّمها على الصراط المستقيم كي تصلح الأسرة ويصلح المجتمع فمن هنا كره للمرأة أن تخرج لتختلط بالرجال كذلك منع من ادخال من لا يؤتمن عليها...

ثم إن الإمام يريد أن يحسم القضية بشكل واضح وحسمها يتحقق بأنك إذا

استطعت أن لا تعرف نساؤك غيرك فافعل فانها بذلك تمتنع عن التطلع لغيرك إذ ربما نظرت نظرة أعقبتها حسرة أو أمنية إلى الحرام تفسد عليك مقامك وهناءة عيشك...

ثم إن الامام نهاه عن ترك الأمور للمرأة كي تتصرف فيها كما تريد وتحب فإن بعض الأمور كما قلنا سابقاً لها قيمتها وأهميتها فيجب ألاَّ تشترك فيها، بل إنَّ للمرأة عالمها الخاص بها ولها شخصيتها الخاصة وان قدرت ان لا تعطيها اكثر مما لها من هذه الشخصية فافعل...

ثم نهاه الامام ان يستعمل الغيرة في غير موضعها فلا يتجاوز ما رسمه الله له وما نهاه عنه، لا يجوز أن يكون أشد غيرة من الله، بل الله هو صاحب الغيرة وواضع الغيرة فيجب أن نكون كما أراد وأحبَّ وعلل الامام الغيرة التي في غير محلها، بأنها تسبب مشكلة خطيرة من حيث تدعو الصحيحة من النساء إلى الفساد والبريئة إلى الريب وهذا أمر منهي عنه...

« واجْعَلْ لكل إنسانٍ من خَدَمكِ عملاً تأخُذُه به فإنه أحْرى أنْ لا يتواكلوا في خدمتك. واكرم عشيرتك فإنهك جَناحُك الذي به تطير وأصلُك الذي إليه تصير. ويدُك التي بها تصولُ.

استودُع الله دينك ودنياك واسألْه خيرَ القضاه في العاجلة والآجلة والدنيا والآخرة والسلامُ ».

في هذا الفصل الشريف أمور:

– الأول: لفت نظره إلى الخدم وان يجعل لكل واحد منهم عمله الخصوص حتى إذا قصّر يعاقب وان اجتهد ونبغ في أمر أحسن جزاؤه وأثيب على فعله وإحسانه...

– الثاني: الوصية بالعشيرة بالاحسان إليها وإكرامها وأن لا يعيش بعيداً عنها محتقراً لها جافياً لأفرادها فإن العشيرة هي عز الانسان وقوته ومهما ابتعد عنها فإنّه سيعود إليها... هذا بالطبع إذا لم تتخذ طريق الضلال والانحراف وألاّ تكون عادات جاهلية يمقتها الاسلام ويرفضها. الاسلام يحب العشيرة ويريدها ويجمع أفرادها على الاسلام وأحكامه وعلى الحق والعدل، وأما إذا اتخذت العشيرة الباطل والظلم فلا يجوز للفرد أن يعاونها أو يؤيدها بل يجب ان يردعها ويوقفها عن ممارساتها الضالة والظالمة.

وإلى هنا انتهت الوصية الخالدة للإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام نسأل الله سبحانه وتعالى أنْ ينفعنا بها ويثيبنا عليها إنه سميع مجيب.

الفهرست